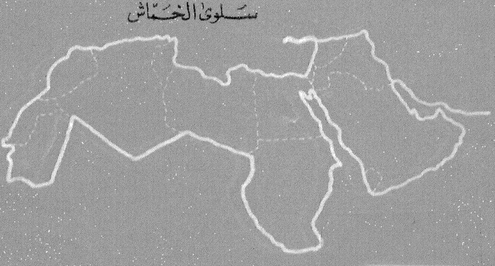


تأليف

فرانتس تشنر فريتس شتيبات

سلوى الخماش





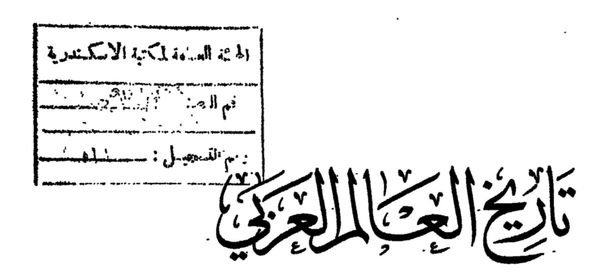
دار صادر

بيروت

تاريخ العالم العربي



١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م



تاريخ العالم العربي

تأليف

فرانتس تشنر   فريتس شتيبات

سلوى الخماش

دار صادر
بيروت

تقديم

لدى تحول الجماعات إلى أمم يلعب الماضي المشترك دوراً بارزاً . ولهذا فإن التاريخ يشكل واحداً من العناصر الهامة في الوعي القومي . فهل يعني ذلك أن البحث في تاريخ أمة لا بدّ وأن يكون مقصوراً على من ينتمي إلى تلك الأمة ؟ أعتقد أن مثل هذا الحصر أو القَصْر ليس بالأمر الحسن . ذلك أننا نعلم أن الحقيقة هي كمال المعرفة ، وأن مثل هذا الكمال ليس في متناول البشر — أفراداً كانوا أو شعوباً . غير أن اقترابهم من الفهم الحقيقي لموضوع ما يزداد كلما تعددت وجهات النظر التي يعالج بها ذلك الموضوع . ولا شك أنه من غير المفيد أن نتجاهل أو حتى نحُول دون آراء أولئك الذين يتمتعون بالعلم والمعرفة في الموضوع ، لا لشيء إلاّ لأنهم يقفون بعيداً عن الساحة . كذلك فإنه من السخف أن ننظر إلى آراء من هم في وسط الساحة والمشاركين مباشرة في الموضوع على أنها دون غيرها من الآراء ، فارضين أنها ذاتية غير موضوعية .

يضاف إلى ذلك أن التفاهم المتبادل بين الأمم يعد واحداً من الشروط الحاسمة لتحقيق السلام بينها . والسبيل الوحيد إلى تفهم الآخرين هو التعرف على مشاكلهم ، وهذا لا يتأتى فقط عن طريق الاستماع السلبي لآراء الغير حول مشاكلهم وقبول مقولاتهم ، بل إنه من الضروري أن يتبنّى المرء ما يصل إليه من معلومات ويعمل رأيه فيها بصورة إيجابية . ولهذا كان من

المرغوب فيه دائماً أن يتناول أهل العلم في أمة من الأمم تاريخ غيرهم من الشعوب بالدراسة والتحليل . فإذا تذكرنا أن الأمم لا تعيش منعزلة ، بعضها عن بعض ، بل هي جزء من البشرية ككل ، وأن التاريخ الإنساني بأكمله يتألف من تاريخ الأمم معاً ، نجد أن هذه الحقيقة تبيح لنا البحث في تاريخ الأمم الأخرى، بل تجعل ذلك ضرورياً، كالبحث في تاريخنا الخاص .

ومثل هذا البحث لن يكون بطبيعة الحال مثمراً إلا إذا كان الباحث من شعب آخر يكافح من أجل الفهم والمعرفة ، لا من أجل السيطرة أو الإبادة ، كذلك لن يكون مثمراً إلا حين يحترم الباحث المعنى الحيوي لموضوع البحث كما يراه صاحب القضية ، ويمتنع عن الادعاء بأنه يحتكر الحقيقة .

ونحن إذ نقدم تاريخ العالم العربي الذي كتب الجزء الأكبر منه باحثون ألمان ، يحدونا الأمل أن ينظر القارىء إلى هذا العمل على ضوء ما سبق أن أشرنا إليه من أفكار . كما نأمل أن يدرك القارىء أن هؤلاء الباحثين ، وهم يعرضون آراءهم بكل صراحة ، ليس لديهم من هدف سوى تفهم التاريخ العربي . إن ترجمة الكتاب إلى العربية لم يكن الغرض منها مجاملة العرب . ذلك أن تقديرنا للشعب العربي أكبر بكثير من أن نعمد إلى إرضائه عن طريق كتاب يحمل مجرد عبارات التبجيل بين ثناياه . كما أننا لا نهدف من نشر هذا الكتاب إلى فرض آرائنا على القارىء . بل إنه من الواضح أن هناك آراء ستكون مجالاً للاختلاف . وسنكون من جانبنا سعداء حين يدور نقاش حول أوجه الخلاف نتعلم منه . فنحن نقبل منذ البداية احتمال وقوعنا في خطإ غير مقصود ، آملين أن لا يؤثر هذا الاحتمال في ثقة القارىء في النزاهة العلمية للمؤلفين .

إن الفصول الثمانية الأولى من هذا الكتاب هي بقلم فرانتس تشنر أستاذ

الدراسات الشرقية في جامعة مونستر في وستفاليا من عام ١٩٣٥ إلى عام ١٩٥٦ . وربما كانت أهم أبحـــاث تشنر دراسته الفتوة وما شابهها من المؤسسات الإسلامية . ولقد ساهم تشنر بشكل فعّال في توسيع نطاق إهتمام الدراسات الشرقية في الغرب لتصل إلى التاريخ الاجتماعي للعالم الإسلامي متجاوزة التركيز على فقه اللغة ، والدراسات الدينية ، وتاريخ الأدب ، وتأريخ الأحداث . وتوفي تشنر في ١١ نوفمبر سنة ١٩٦٧ في الواحد والسبعين من عمره . وقد ظهرت هذه الفصول الثمانية لتاريخ العالم العربي في الألمانية للمرة الأولى عام ١٩٤٤ . ثم ظهرت الطبعة الثانية للكتاب عام ١٩٦٤ وعليها بُنيت الترجمة العربية التي بين أيدينا . وقد قمتُ بتحقيق وتحديث الإحصاءات الواردة في الكتاب ، أما ما عدا ذلك فقد آثرت أن أتركه كما أورده تشنر

أما الفصل التاسع فقد كتبته سنة ١٩٦٣ تتمةً للطبعة الثانية من الكتاب . وحين أنظر اليوم إلى ما كتبته عام ١٩٦٣ ألاحظ أن بعضاً من الإشارات والآراء التي أوردتها قد تغيرت نظرتي إليها بعض الشيء على ضوء ما اتضح من معلومات ، بحيث يمكن إعادة صياغتها ، إلاّ أني لضيق الوقت لم أفعل . وهكذا فإن الترجمة العربية لهذا الفصل مطابقة للنص الألماني الأصلي .

أما الفصل العاشر فقد أُضيف إلى الطبعة العربية ليتصل بتاريخ العالم العربي إلى أواسط عام ١٩٧٣ . ومؤلفة هذا الفصل هي الزميلة العربية الدكتورة سلوى الخماش التي عملت سنوات في جامعتي لندن وبرلين . وهي بهذا على معرفة وثيقة بمناهج البحث لدى المستشرقين الأوروبيين . ولا يعني هذا أنها خلال عرضها للموضوع قد تعرضت لأي نوع من التقييد، بل إنها أغنت هذا الكتاب حين صوّرتْ مفهومها للموضوع معبرة عنه بأسلوبها الخاص .

وإنه ليؤسفنا أننا لم نصل بعرض الحوادث إلى حين نقطة التحول في حرب

تشرين ــ أكتوبر سنة ١٩٧٣ . إن هذا الواقع يذكرنا بأن كاتب التاريخ يتخلف دوماً خطوات عن صانع التاريخ .

إن ترجمة مثل هذا الكتاب من الألمانية إلى العربية لمهمة شاقة ، حيث إنها لا تعني مجرد نقل الحقائق الثابتة البسيطة ، بل هي بالدرجة الأولى نقل الفروق الدقيقة في المفاهيم التي يتعرض لها الموضوع . وهنا أود أن أقدم شكري العميق إلى الأستاذ الدكتور نقولا زيادة والدكتورة سلوى الخماش لتحملهما هذه المهمة .

أقدم شكري كذلك للناشر السيد هورست إردمان من توبنجن ، لمبادرته بالسعي إلى ترجمة الكتاب إلى العربية . كما أقدم شكري الخاص للناشر العربي السيد أنطون صادر الذي ساهم بمجهوده الشخصي ودون كلل في إخراج هذا الكتاب بشكله المتين الجذاب كما فعل بالعديد من المؤلفات من قبل .

الدكتور فريتس شتيبات
أستاذ الدراسات الإسلامية في جامعة برلين الحرة

برلين ، يوليو ١٩٧٤

الفصل الأول

العالم العربي

البلاد والسكان

يتكوّن العالمُ العربيُّ ، في غالبه ، من صحارٍ وسُهوب تسفو رمالَها الرياحُ التجارية ويقوم حاجزاً بين العالم القديم من جهة وبين المناطق الاستوائية في إفريقية السوداء والمحيطِ الهنديّ من الجهة الأخرى . وتجاوره شمالاً بلادُ حضارةِ حوض البحر المتوسط التي تنتمي للعالم القديم . وبينما نجد أن هذه المنطقة الواسعة لها في جهاتٍ ثلاث حدود طبيعية واضحة مكوَّنة من بحارٍ ومن جبالٍ في أواسط آسية ، نجد أنّها في الجنوب ، حيث تلتحم الصحراء نفسها بمنطقة السُّهوب والسڤانا السودانية ، تتصل هي بكتلة القارة الإفريقية .

ويتخذ تركيبُ هذه المنطقة المتميّزة شكلَ نجد متسعٍ متماسك ، ينحدر نحو جهاتٍ ثلاث ، بينما يلتحم جنوباً بمناطق أواسط إفريقية المرتفعة . ويتراوح علوّ الجزء الغربي لهذا النجد بين ٢٠٠ و ٥٠٠ متر عن سطح البحر ، بينما يتجاوز ارتفاعه في جزئه الشرقيّ ، في الترس النُّوبيّ العربيّ ، ألفاً من الأمتار . غير أنّه عند هذه النقطة بالذات ينشطر شطرين ، بسبب أكبر أخدود على وجه البسيطة، وهو الأخدود الإريثري الذي يشغله البحر الأحمر

والذي يمتد ٢٣٠٠ من الكيلومترات من باب المندب إلى السويس : ويكوّن الشطر الشرقيّ منه المشرق العربيّ ، الذي يتخذ شكل شبه جزيرة . والقشرة الأرضية المحيطة بهذا الأخدود ، والتي يرجع ما أصابها من تقلّب ووعورة إلى الحقبة الجيولوجية الثالثة الحديثة ، تظهر في الجانبين ، العربيّ والنوبيّ ، على شكل مرتفعات عالية ، وهي التي تسمّى السَّراة في بلاد العرب . ويسمي العربُ السهل المنخفض الضيّق الحار الرطبَ الممتد بين الجبال والبحار تِهامة ، وهو شكل تكوَّن من الأتربة التي حملتها الأمطارُ العنيفة المنحدرة من الجبال ورسبتها عند أقدامها . أما المرتفعات فيزداد علوُّها باتجاهنا من الشمال إلى الجنوب على جانبي هذا الأخدود . فجزؤها الشمالي ، في الجهة العربية ، يكوّن مع البرّ الشرقي أرض الحجاز ، الذي يحجز جزيرة العرب عن البحر الأحمر ، وفي الجزء الجنوبي توجد المناطق العالية في عَسير واليمن ، حيث يقترب ارتفاع الجبال من ٤٠٠٠ متر (أعلى جبل في بلاد العرب هو جبل حَضور نبيّ شُعَيب قرب صنعاء وارتفاعه ٣٧٦٠ متراً) وتكون الأودية على ارتفاع نحو ألفي متر (تقع صنعاء ، عاصمة اليمن ، على ارتفاع ٢٢١٠ أمتار) . وتنتهي المنطقة الجبلية في بلاد العرب ببلاد نجد ومعدل ارتفاعها نحو ألف متر . وتتمتع نجد بجوٍّ شبه استوائي جافّ مع تقلّب كبير في درجة الحرارة (في فصل الشتاء يكون ثمة صقيع في الليل) . وهذه المنطقة المرتفعة تنحدر شمالاً ، في سهول عريضة ، نحو سورية وأرض الرافدين ، وتنحدر جنوباً وشرقاً ، نحو الخليج العربي والربع الخالي ، في تدرّجات هلالية الشكل متحدة المركز . وبدءاً من سورية وعبر غرب الجزيرة العربية تظهر على سطح الأرض الموازية للأخدود الإريثري سلسلةٌ من البراكين الحديثة ، مخروطية الشكل ، متوسطة الارتفاع ، والتي لا تصلح حممها البركانية للحياة النباتية ، وتكوّن حرّات يصعب اجتيازها . وفي أقصى الشرق يتصل النجد

العربي المذكور بواسطة سلسلة جبال عُمان ، الجبل الأخضر (ارتفاعه ٣٠٢٠ متراً) بالجبال الالتوائية الواقعة عبر خليج عُمان العميق ومضيق هُرْمُز والمتمركزة في مرتفعات جنوب إيران . وهذه تتفق في اتجاهها الأفقي مع سلسلة جبال عُمان — من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي . إن بلاد العرب من أكثر بلاد العالم استعصاء على من يبغيها وذلك بسبب تعاقب الصحاري والسهوب التي تغطي البلاد من جهة إلى أخرى ، وفقر السواحل من الموانىء ، ومنها سواحل البحر الأحمر التي تحيط بها الحواجز المرجانية .

إن المنطقة السورية اللبنانية الفلسطينية مشطورة إلى قسمين : شرقيّ وغربيّ ، وذلك بسبب الغور الذي هو امتداد للأخدود الإريثري (أي أخدود البحر الأحمر) عبر خليج العقبة . والشرقيُّ منهما يتاخم الصحراء بينما يحاذي الغربيُّ البحرَ . والغور الفلسطيني اللبناني السوري ذو تركيب جيولوجي متباين . ففي جزئه الجنوبي ينخفض انخفاضاً كبيراً ، ويسمى هنا البحر الميت (سطحه يقع على انخفاض ٣٩٤ متراً تحت سطح البحر) ، وهو أعمق غور على سطح البسيطة لا تغمره مياه البحر . وفي أجزائه الوسطى ، في البقاع ، يرتفع سطح المنخفض ألفاً ومئة من الأمتار . أما المرتفعات المحيطة بالبقاع فتصل إلى أعلى ارتفاع لها في جبال لبنان غرباً (ظَهر القَضيب ، وهو أعلى جبل في لبنان ، يرتفع ٣٠٦٦ متراً) وجبل الشيخ أو حَرَمُون شرقاً (٢٧٥٩ متراً) ، وهو الذي يكوّن الجزء الجنوبيّ من سلسلة لبنان الشرقية أو أنتيلبنان . ونجد في شرق سورية في حوران (جبل الدروز ١٨٣٩ متراً) منطقة بركانية قديمة ، ذات تربة خصبة جداً نتجت عن انقذاف الحمم (اللافا) منها .

والجزء المنخفض من حوض الرافدين ، أي بابل القديمة ، وهو الذي سمّاه العرب « العراقَ العربيّ » ، والذي يكوّن القسم الجنوبي من الجمهورية

العراقية اليوم ، هو سهل غِرْيَنِي . وكانت تغطي هذه المنطقة قديماً مياهُ الخليج العربيّ الضحلة ، إلاّ أنّ الطَّمْيَ الذي كانت تحمله الأنهار من المنطقة الكردية الأرمنية في الشمال ، وبخاصة نهرَي الفرات ودجلة ، كان يطمر هذه الأجزاء تدريجيّاً .

وقد كان مصبّا النهرَين المنفصلين أصلاً يقعان شمالي المنطقة التي يقتربان فيها من بعضهما اليوم ، أي شمالي بغداد بقليل . والمواد التي كانت ترسب هنا بفعل ارتفاع المياه وقت الفيضان ، بنى النهران منها مع الزمن السهلَ البابليّ ووسّعا رقعة الساحل البحري وما زالا يوسّعانه . وحتى في العصور القديمة كان النهران يصبّان في الخليج العربي منفصلين . وفي الوقت الذي احتلّ فيه العربُ المسلمون البلاد كان النهران قد اتحدا ، وكان المصبُّ يقع على نحو أربعين كيلومتراً جنوب البصرة التي بُنيت عند ملتقى النهرين ، والتي كان لها دورٌ مباشر في التجارة البحرية . أما اليوم فإنّ مصبّ شطّ العرب ، كما يسمى القسم من مجرى الماء الذي تجتمع فيه مياه النهرين ، يبعد عن البصرة قرابة ٩٠ كيلومتراً . ويمكن القول بأن الأرض تمتد بين كيلومترين وثلاثة كيلومترات في القرن الواحد . أما الجزء الأعلى من أرض الرافدين أي ما بين النهرين (الجزيرة — جزيرة ابن عمر) فهي هضبة يتراوح ارتفاعها بين ١٠٠ و ٣٠٠ متر ، يخترقها نهرُ الفرات ويحدها دجلة شمالاً ، وتتصف أجزاؤها الداخلية بصفات مناطق السهوب .

فإذا انتقلنا إلى الجزء الغربيّ من النَّجد الصحراوي العربيّ الشمال إفريقي ، وجدنا أن نهر النيل يخترق القسم الشرقيّ منه من الجنوب إلى الشمال . والنيل الذي يبلغ طوله الإجمالي ٦٥٠٠ كيلومتر هو ثاني أنهار العالم طولاً . وقد حفر النهر لنفسه في الهضبة الصحراوية الشمال إفريقية مجرى لا يتجاوز عرضه بضعة كيلومترات ، ويتراوح عمقه بين ١٠٠ و ٣٥٠ متراً . وبسبب

الطَّمْيِ الذي يحمله النهر إلى واديه أصبح هذا صالحاً للزراعة . أما عند مصبه في البحر المتوسط فقد كوَّن النهر دلتا واسعة ، هي سهل غِرْيَنيٌّ خصب .

والنجد الصحراوي ، وهو الجزء الداخلي من أراضي شمال إفريقية ، يتكوَّن من سهل مرتفع ينخفض نحو البحر شمالاً وغرباً . وفي جزئه الأوسط ، في الصحراء الوسطى ، تقوم جبال بركانية الأصل يتجاوز ارتفاعها ٣٠٠٠ متر (جبال هجَّر ومرتفعات تِيبستي) . أما الصحراء الكبرى فهي أكبر منطقة صحراوية وشبه صحراوية على سطح الأرض ، بحيث تكوِّن ، بسبب الصعوبة القصوى في اجتيازها ، فاصلاً بين إفريقية السوداء والبيضاء ، والتي لا تزال ، رغم وسائل النقل الحديثة ، صعبة الاجتياز ، ومن ثمّ فلا تزال حتى اليوم أجزاء كثيرة منها لم تكتشف بعد .

يتصل النجد الصحراويُّ في الشمال الغربي بجبال الأطلس الالتوائية ، التي ترتبط ، من الناحية الجيولوجية ، بجنوب أوروبة . ومن ثمّ فإن جبال جنوب إسبانيا وجبال الأطلس تتفقان في الاتجاه ، ولا يفصل بينهما سوى انخفاض مضيق جبل طارق . إن سلسلة جبال الأطلس التي تبلغ في أعلى قممها ٤٥٠٠ متر في الأطلس الكبير في المغرب ، تسمح للأودية بأن تتكوَّن فيها أرض صالحة للزراعة ، وفي بعض الحالات حتى على ارتفاعات كبيرة بين الجبال (مثل السهل المرتفع بين الأطلس الشمالي والأطلس الصحراوي في الجزائر ، حيث يبلغ ارتفاعه نحو ٩٠٠ متر) ، كذلك تسمح هذه السلسلة بتكوّن سهل واسع على شاطئ المحيط الأطلسي في المغرب . أمَّا في شرق المغرب والجزائر على شواطئ البحر المتوسط ، فإن اتجاه الجبال أدى إلى وجود سهل ساحليّ ضيِّق تكاد تنعدم الموانئ فيه . لكن الجبال يتوقف امتدادها غربيّ تونس وبذلك يتكوَّن سهل يمتد إلى خليج سرت الذي يشكِّل ساحله تعاريج كثيرة.

* * *

إن الأحوال المناخية في العالم العربي تفرضها قلّة الأمطار ، وهي حالة يتأثر بها القسم الأكبر من البلاد. والأجزاء التي يؤثّر فيها البحر الأبيض المتوسط أي مناطق الأطلس وبرقة وفلسطين ولبنان وسورية ثمّ شمال العراق هي التي يسقط فيها من أمطار الخريف والشتاء، ما يروي الأرض. وتنزل على سفوح جبال عسير واليمن أمطارٌ صيفية . وفي هذه المناطق تقام في المرتفعات مدرّجات لاستغلال الحقول استغلالاً أفضل وحماية تربتها من أن تجرفها المياه المتدفقة من المرتفعات .

وما تبقى من المناطق التي يشغلها العرب تقع تحت تأثير الرياح التجارية وتكتفي بأمطار قليلة تسقط بين حين وآخر : فتهطل الأمطار غزيرة في الخريف والشتاء في شمالها ، وفي الصيف في جنوبها فلا تمكث في الأرض ليستفاد منها ، وكثيراً ما تهطل فجأة فلا تُجنى منها أيّ فائدة ، وغالباً ما تنحدر دون أن تستغل .

قلّة الأمطار هذه مع ما تعرفه المنطقة من تغير في الحرارة (التي تكوّن في شمال الجزيرة العربية الصقيع في ليالي الشتاء) أدّت إلى وجود الصحاري والبوادي . ولما كانت الأنهارُ الدائمةُ معدومةً ، فإن الإنسان ، في مثل هذه الأرض الواسعة ، يقيم في أماكن قليلة حيث يعثر على مياه سطحية : هنا تقوم واحاتٌ قد تكون غنيةً بالنباتات ، التي تيسّر للإنسان حاجاته الضرورية للعيش في هذه الصحاري والسهوب . وفي بقاعٍ أخرى كان الإنسان يهتدي إلى المياه الجوفية التي يستخرجها من آبار عميقة (في الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية يصل العمق إلى ٢٥ متراً) . وقد حفرت المياه التي تهطل بغزارة بين الحين والآخر أودية ربما تظلّ جافة طوال السنة ، وأحياناً لعدّة سنوات ، وأحياناً أخرى تكون مجاري لسيول عريضة سريعة . وبما أن سطح جزيرة العرب يتكوّن من تدرّجات تتخذ شكلَ الأهلّةِ وتنحدر نحو

الشرق والجنوب ، فإن الأودية المذكورة تتجه في غالب الأحوال من المناطق الجبلية نحو الشرق والجنوب في اتجاه قطر الأهلة . أما وادي السِّرْحان ، الذي يبدأ في المرتفعات الشمالية لصحراء النفوذ ويتجه شمالاً نحو حوران إنّما هو منخفض يمتلىء بما تُرْسِبُه فيه الأمطار الغزيرة : ومن ثمة فإن فيه خطاً من الواحات الخصبة والتي أهمّها منطقة الجوف وهي دَوْمَةُ الجَنْدَل القديمـــة .

ومن الممكن في أحوال مؤاتية ، الاستفادة من الأمطار المنهمرة ، في الريّ بواسطة ضبط المياه . ومن البلاد التي تعتمد على مياه الفيضان اعتماداً كليّاً ، اليمن ومصر وبابل . ففي الأزمنة القديمة كانت كميات كبيرة من المياه التي تتجمع في جبال اليمن المرتفعة بعد أمطار الصيف الغزيرة تحصر في مرتفعات اليمن الشرقية المحاذية للمنطقة الصحراوية المعروفة باسم « الرّبع الخالي » . وساعد ذلك على استغلال مساحات واسعة من الأرض ، والتي أصبحت الآن ، بعد انهيـــار السدود في القرن السادس للميلاد ، سهوباً تقوم فيها واحاتٌ . ومصر ، التي هي واحة نيلية متصلة ، لا تزال تحتفظ بخصبها بسبب كميات المياه الضخمة التي يحملها النيل الأزرق بعد هطول الأمطار المنتظم في إثيوبية (الحبشة) . أما في بابل فإن نهر دجلة وروافده ، ونهرَ الفرات فيما يلي ذلك ، يحمل كميات كبيرة من المياه التي تسقط على الجبال الكردية في الخريف والشتاء والتي تجزي بعد ذوبان الثلوج ، فتغطي الأرض حتى تبدو وكأنها بحر . وكانت شبكة متشعبة من القنوات تحمل مياه الفيضان المتجمعة في الأنهار ، ليُستَفاد منها في الرّيّ ، إلاّ أنّ هذه تعطّلت منذ نهاية العصور القديمة . وبينما نجد أن مصر ، بالاعتماد على التكنولوجيا الحديثة وخاصة سدّي أسوان ، تمكّنت من زيادة ورفع مستوى إنتاج الأرض خلال القرنين التاسع عشر والعشرين ، نلاحظ أن بلاد الرافدين التي كانت

فيما مضى مركز الإنتاج الزراعي في المشرق ، لا تزال إلى اليوم تعتمد على اقتصاد الواحة إلى حدٍّ ما .

فإذا حوّلنا نظرنا عن واحتي النهرين الكبيرين ، مصر وبابل ، نجد أن الواحاتِ الواقعة في المناطق الجافة تشغل جزءاً طفيفاً يكاد لا يذكر من مساحة الكتلة الأرضية التي تغطّيها الصحاري والبوادي ، فهي في بلاد العرب تقارب سدس المساحة ، بينما الخمسة أسداس الباقية منطقة صحارٍ وبوادٍ يقطنها البدو الذين هم ربع السكان فقط . أما في الصحراء الكبرى فالحالة فيها أسوأ من جزيرة العرب . كما أننا قلّما نجد الواحات في الصحراء الكبرى على شكل مجموعات كما هو الحال في جزيرة العرب وهذا ما يجعل اجتيازَ الصحراء هناك أصعبَ من اجتياز جزيرة العرب .

* * *

يترتب على الأحوال المناخية التي مرّ ذكرها ، تباينٌ كبير في وسائل استغلال الأرض في بلاد العرب . فالفلاحة وزراعة نباتاتٍ معيّنة لا تكون ممكنة إلا في الأراضي التي تسقط عليها الأمطار والتي ترويها مياه الفيضان ، وفي الواحات أيضاً . وتقتصر الصحاري والسهوب على الاقتصاد الحيواني ، وهو نظام من الحياة الاقتصادية يتفق مع حياة التجوال التي يحياها البدو ؛ ومن حيث النباتات النافعة فإن المناطق الجافة تختص بزراعة النخيل ، بينما تختص منطقة البحر المتوسط بالزيتون والتين والكرْم . إن شجرة النخيل ، التي تنعدم في مرتفعات اليمن فقط ، لا يُستَغنى عنها في حياة الناس في الواحات والسهوب الموجودة في جزيرة العرب والصحراء . إن سكان الواحات يحصلون منها ، قبل كلّ شيء ، على ثمرها الذي هو من أهم الأغذية الشعبية في هذه الجهات ، ويستعملون خشبها — على رداءته — في بناء البيوت . وتصنع

من الجزء القاسي من السعف أدواتٌ منزليّةٌ متنوّعةٌ ، والسعف نفسه يصلح مكانس كما أن أليافه صالحــة لأن تُجدل حبالاً . وإذا استثنينا الأجزاء الجنوبية من الجزيرة العربية ، فإن الكرمة لا تنمو إلاّ في مواضع قليلة .

وشجرة النخيل جزءٌ أساسيٌّ من الصورة الطبيعية للواحة . وثمة نبتة نافعة حريّة بالــذكر بالنسبة للجزيرة العربية وهي شجيرة البن ، وهي التي نقلت قبل قرون قليلة من إثيوبية ، حيث كانت تنمو بريّة ، إلى جنوب الجزيرة العربية وزرعت على سفوح جبال اليمن الــتي ترويها الأمطار . وكان البن يصدّر في السابق من ميناء مُخا ؛ أما الآن فيُصَدّر من الحُديدة . ومن أقدم الأزمنة كانت الأجزاء الجنوبية من الجزيرة ، وخاصة المناطق الساحلية المتاخمة للمحيط الهندي ، أي بلاد حَضْرَمَوت ومَهَرة ، تصدّر البخور والمرّ المستخلصَين من عصارة فصيلتين من شجر الكافور .

ويختصّ العالم العربيّ باستعمال الجمل والحمار حيوانَين أليفَين ، أمّا الفرَس فلا يستعمل بالدرجة نفسها . ويصحّ القول بأن الجمل ذا السنام الواحد ، وهو النوع الوحيد الموجود هناك ، متوطن في الجزيرة العربية . ولا يمكن العثور عليه وحشيّاً الآن . وقد تمّ تدجينه في بلاد العرب خلال الألف الثاني ق . م . وهو الذي مكّن التحرُّك الحرّ والتَّرْحال الواسع ، أي الحياة البدوية في هذه الأراضي الفسيحة . وقد خرج الجمل في العصور القديمة ، من الجزيرة العربية إلى المناطق الزراعية المحيطة بها ، وبأعداد محدودة ؛ وتشير نقوشٌ ترجع إلى حوالي ١٠٠٠ ق . م . إلى ذلك ؛ وقد وصل مصر في أيام البطالسة ، أما بقية إفريقية فقد وصلها أيام الرومان . إلا أن الفتح العربيّ هو الذي أدّى إلى انتشار الجمل هناك على هذا المقياس الواسع بحيث

أصبحت المنطقة كلّها ، بالإضافة إلى الجزيرة العربية ، موطناً له ، كما هي الحال الآن . وبسبب قوائمه الطويلة وصبره واعتداله ، التي تمكّنه من تحمل الجوع والعطش أياماً طويلة ، يكون الجمل وسيلة التنقّل الوحيدة في هذه الصحاري والسهوب المقفرة في جزيرة العرب والصحراء الكبرى ، والتي لا يمكن اجتيازُها إلاّ بواسطته . ولا يمكن للبدوي أن يستغنيَ عن الإبل قط . فبالإضافـة إلى صلاحيتها للركوب والحمل فإنّها تزوّده بالحليب واللحم والجلد . فشعرها يحاك قماشاً ، وروثها يستعمل وقوداً ، وقد يستخدم بولها أيضاً للغسل . وفي جزيرة العرب يُحتفظ بالنوق فقط لأنّها تدرُّ الحليب، أما الجمالُ فتحفظ بأعدادٍ قليلة لتستعمل للتناسل . وتذبح أكثر الجمال صغيرةً . وثروة العربيّ هي إبله ، بالإضافة إلى نخلـه .

والحمار يظهر وحشيّاً في سهوب الجزيرة والنّوبة وشبه جزيرة الصومال ؛ وقد كان الحمار الوحشيّ ، بوصفه أسرع الحيوانات عدواً ، يُعتبر أنبل الحيوانات المُطارَدة في المشرق . ولما دجّنَ الحمار أصبح حيوان السهوب الذي يقدم لسكان الواحات العون في أعمالهم . وهو موجود في هذه المنطقة بكاملها من أقدم الأزمنة ؛ فهو ، قبل كلّ شيء الحيوان الداجن في جميع المناطق الزراعية والواحات والمرتفعات .

أما الفرس فنجد أن موطنه الأصليّ ليس آسيةَ الغربية ، بل إنه نقل إلى هنا بعد محاولات أُولى مبكرة ، في أواسط الألف الثاني ق . م . ، وبخاصة الفرس العربيّ الأصيل يبدو أنه حديث العهد . إن المعلومات التي وصلتنا من العالم القديم تشير إلى العرب على أنّهم ساقةُ إبلٍ . أما الذين كانوا متاخمين للبلاد المزروعة مثل الأنباط ، فلا بدّ أنّهم عرَفوا الفَرَسَ في العصور القديمة . إلاّ أنّ الأخبار الموثوق بها عن استعمال القبائل العربية القاطنة في الأجزاء

الداخلية من الجزيرة العربية (مثل ثَمُود) للفَرَس تعود إلى القرن الرابع بعد الميلاد . وبالمقارنة فإنّ الشعر العربيّ القديم ، الذي يعود إلى أوائل القرن السادس ، يشير إلى الفَرَس على أنه الرفيق الذي لا مثيل له لأمير البدو المحارب. ذلك بأن طواعيتَه ومرونتَه ، ممّا لا يتوفّر للجمل ، يجعل الفرس أكثر صلاحيّة منه للقتال بدرجة كبيرة جداً . ومن ثمّ فإن الفَرَس أصبح ، للعرب ، الصوّال الجوّال ، واستعماله في الحروب هو الذي جعل من العرب خصوماً مخيفين ، كما برهنوا عن أنفسهم فيما بعد . وعلى كلٍّ فإن ملابس العرب وأسلحتهم (انعدام السروال والسيف المعوّج وتقديم الرمح على القوس) مما يلفت النظر إلى أن الفرس غريب عنهم أصلاً . وقد رافق استعمال الفرس في الجزيرة العربية صعوباتٌ ، فالفرَس بحاجة إلى الماء يوميّاً ، وهذا يجب أن يحمِلَه الجملُ عبر طريق طويلة ، ومن ثمّ فإن تربية الخيل في الجزيرة العربية ظلّت وقفاً على فئات قليلة من البدو الأغنياء . ولذلك فإن الفرَس أصبح ، بالنسبة إلى البدوي الوجيه ، حيواناً للعرض أي للوجاهة . وترتب على ذلك أن أعدادَ الخيول في جزيرة العرب لم تكن قطّ كبيرة : ففي معركة بَدر (٢ هـ - ٦٢٤ م) كان في حَمْلَة أهل مكّة مئة فرس وسبعمئة من الإبل . ومراعي نجد التي كان الخليفة عمر بن الخطاب قد أمر بحجزها لتزويد الجيش بحاجاته من حيوانات للركوب والنقل ، كانت مخصصة لـ ٣٠،٠٠٠ من الإبل ، ولثلاثمائة فرس فقط .

أما ذوات القرن فإن الغنم والماعز منتشران في كل مكان ، والغالب أن تقتصر تربيتها على القبائل الفقيرة ، وخاصة القبائل التي تخلّت عن بدويتها بعض الشيء واستقرّت على مقربة من الواحات . أما البدو الأصيلون فإنّهم يحتقرون تربية الغنم والماعز ، وينصرفون إلى تربية الإبل فقط ، مع العلم بأنّهم يحتاجون إلى نتاج هذين الحيوانين : فشعر الماعز يزوّدهم بالمادة اللازمة

لحيامهم ؛ ولما كان حليب النُّوق لا يتحوّل إلى زبدة ، فإنّهم يحتاجون إلى حليب الغنم أو الماعز لإنتاج الزبدة .

وقد كان الشرق القديم كبير العناية بتربية الأبقار ، لكن منذ بدء العصر الإسلامي انتقلت هذه العناية إلى تربية الصغير من ذوات القرون وإلى تربية الإبل ، فالجمل يُستعمل في جرّ المحراث وإدارة دولاب البئر لرفع الماء . وفي الجزيرة العربية بالذات ليس للأبقار مكانٌ ، لأنّها بحاجة إلى الكثير من العلف .

وممّا يجب أن يُحسَب له حساب في الاقتصاد العالمي مصايدُ اللؤلؤ الموجودة في الخليج العربي ، حيث يتركز صيده في جزر البحرين ، التي تجذب إليها السكان من جميع أنحاء الجزيرة العربية .

* * *

إن كثافة السكان في رقعة العـــالم العربي الواسعة تتوقّف على قابلية الأرض للاستغلال الاقتصادي . وفي الجدول التالي ، مساحة كلٍّ من الأقطار المختلفة وعدد سكانه وكثافتهم ، وتقدير نسبة سكان المدن منهم ، بقدر ما تسمح به الأرقام الموجودة . ومن المهم أن نلحظ على كلٍّ ، أن هذه الأرقام لا تعتمد على الإحصاءات إلاّ بشكل جزئي ، والباقي يقوم على تقديرات . أما نسبة سكان المدن في الأقطار المختلفة فلا تقوم على مقاييس موحدة ، ولذا فلا يجوز مقارنة بعضها ببعض .

البلاد	المساحة بآلاف الكيلومترات المربعة	السكان بالآلاف	السكان الكيلومتر المربع الواحد	نسبة سكان المدن	
المملكة العربية السعودية	٢١٥٠	٧٢٠٠	٣		
اليمن	١٩٥	٥٠٠٠	٢٦		
اليمن الجنوبي	٢٨٨	١٢٢٠	٤		
مسقط وعمان	٢١٢	٥٦٥	٣		
اتحاد الإمارات العربية	٨٤	١٨٥	٢		
قطر	٢٢	١٠٠	٥		
البحرين	٠،٦	٢٠٧	٣٤٦	٨٢،٤	١٩٦٥
الكويت	١٦	٥٧٠	٣٦	٢٢،١	١٩٦٥
العراق	٤٣٥	٩٣٥٠	٢١	٥٧،٨	١٩٧٠
سوريا	١٨٥	٦٢٩٤ (١٩٧٠)	٣٤	٣٦،٩	١٩٦٠
لبنان	١٠	٢٦٤٥	٢٥٤		
الأردن	٩٨	٢٢١٧	٢٣	٤٣،٩	١٩٦١
قطاع غزة	٠،٤	٣٥٦ (١٩٦٧)	٩٤٢		
مصر	١٠٠١	٣٢٥٠١	٣٢	٤٢،١	١٩٧٠
الأرض المعمورة فقط	٣٦		٩١٣		
السودان	٢٥٠٦	١٥١٨٦	٦	١١،٨	١٩٧٠
ليبيا	١٧٦٠	١٨٦٩	١	٢٤،٦	١٩٦٤
تونس	١٦٤	٥٠٢٧	٣١	٤٠،١	١٩٦٦
الجزائر	٢٣٨٢	١٣٣٤٩	٦	٣٨،٨	١٩٦٦
المغرب	٤٤٥	١٥٠٥٠	٣٤	٣٢،٣	١٩٦٩
موريتانيا	١٠٣١	١١٤٠	١	٦،٧	١٩٦٥
المجموع	—	١٢٠٠٣١			

يضاف إلى ذلك العرب الساكنون في إسرائيل ٣٠٠ ١٩٦٧

والعرب الساكنون في تركيا ٣٦٦ ١٩٦٥

والعرب الساكنون في إيران ٤٠٠

فيكون المجموع الكلي ١٢١٠٩٧

أكثر الأرقام مأخوذة من حوليّي الأمم المتحدة الإحصائي والديموغرافي لسنة ١٩٧٠ وتشير إلى الحالة في سنة ١٩٦٩ ، إلاّ حيث ذكرت سنوات أخرى .

إن هذه الأرقام الواردة تغطينا صورة لقابلية البلاد المختلفة للاستيطان. والصورة هذه، في إطارها الواسع، تعكس أيضاً الأحوال في القرون الغابرة، وعلى الأقل منذ الفتح العربي. ومن الواضح أن الواحد منا كي يدرك أحوال الاستيطان على ما عرفت في الماضي، باستثناء تزايد السكان الطبيعي، يتوجب عليه أن يلاحظ حالة الازدهار المادي الذي عرفته البلاد، والذي كان يقرّر مدى الاستيطان نفسه. أما اليوم فعدد السكان يقوم على اعتبار وضع للازدهار المادي يفوق ما كانت عليه الحال في القرون الخالية، باستثناء العراق وجنوب الجزيرة العربية. فمصر مثلاً التي يقطنها اليوم ما يزيد عن ٣٠ مليوناً من السكان والتي تعتبر من أكثر بقاع الدنيا كثافة، إذ إن الكيلومتر المربع الواحد، من الأرض الزراعية، فيه ٩١٣ نسمة، كان سكانها سنة ١٨٠٠، حين كانت مساحة الأرض المزروعة صغيرة، مليونين ونصف مليون فقط. ويتوجب علينا أن نفترض مثل هذا التبدل في الأرقام في المناطق المأهولة الأخرى، بينما بقي الاستيطان في مناطق الصحاري والسهوب بواحاتها المتناثرة على ما هو عليه تقريباً، ولذا فكثافة سكانها لم تتبدل إلى تلك الدرجة في العصور التي يهمّنا أمرها، أي بعد ظهور الإسلام. وينفرد جنوب العراق (بابل) بأن عدد سكانه اليوم أقلّ ممّا كان فيه في العصور الغابرة. ففي عصر الازدهار الذي عرفته أيام الخلافة الأولى (إلى حول ٣٠٠ هـ/٩٠٠م) كانت المنطقة لا تزال ترويها القنوات القديمة، والتي قد تلفت كلية اليوم، ومن ثمّ فإنّه كان في وضع حضاري أفضل بكثير؛ فلا عجب أن يكون سكّانه اليوم أقلّ من سكانه آنذاك. ومثل ذلك ينطبق على جنوب جزيرة العرب، أي أراضي اليمن الزراعية المزدهرة التي كانت تعتمد على السدود، حيث كانت تتجمّع المياه المنحدرة من الجبال. ومنذ أن خربت هذه السدود أصبح جزء كبير من الأرض سهوياً، ولذا فسكانه اليوم أقل

بكثير مماّ كانوا قبلاً .

فيما يتعلّق بكثافة السكان فالأرقام تتكلّم عن نفسها . والتقديرات التي قام بها هـ. فون فسمان سنة ١٩٤١ لسكان الجزيرة العربية على أساس نمط الحياة فيها ، ذات فائدة كبيرة في هذا الصدد . على ذلك كان سكان الجزيرة العربية بأكملها مقسمين على الشكل التالي :

سكان المدن (٢٦ مدينة يزيد عدد سكان كل منها عن ١٠،٠٠٠)	٦٧٠،٠٠٠
مزارعو الأراضي الفلاحية والبساتين الجبلية (في عسير واليمن وعُمان)	٤،٥٣٠،٠٠٠
سكان الواحات	١،٢٠٠،٠٠٠
البدو	٢،٤٠٠،٠٠٠
المجموع	٨،٨٠٠،٠٠٠

وثمة تقدير أحدث (ك . س . توِتْشِل : المملكة العربية السعودية ، برنستون ، ١٩٥٨ ، ص ١٣٩) فيه أن المملكة العربية السعودية فيها ٣٧ بلداً في كلّ منها ٥،٠٠٠ نسمة أو أكثر و ٢٨ بلداً في كلّ منها ١٠،٠٠٠ أو أكثر ، فيقدر مجموع سكانها بـ ١،٤٥٥،٠٠٠ ، أما البدو فيقدّرون بـ ٧٨ بالمئة أي ٥،١٥٩،٠٠٠ نسمة . ومن ثمّ يكون المجموع الكلي ٦،٦١٤،٠٠٠ .

وغالباً ما يتحكّم البدو في شؤون سكان الواحات وإلى درجة ما في المدن من حيث ارتباطها بالعالم الخارجي . وتفوّق المدن الكبيرة في وسائل السيطرة والتنظيم والمقدرة الاقتصادية لا يضمن استقلالها فحسب ، بل يعطيها موقع قوة بالنسبة للبلاد المحيطة بها . وخير مثل لمدينة تمت لها مثل هذه السيادة هو مكّة في نهاية العصور القديمة في الزمن الذي ظهر فيه النبي (ص) . كانت الطرق التي تربط أجزاء الجزيرة العربية ببعضها البعض تلتقي يومئذ هناك ، وقد عرف تجار مكّة المقدامون كيف يؤمّنون لأنفسهم هذه الطرق ضدّ البدو — إلى أن أتيح للنبي أن يوحّد قوى البدو وأن تخضع مكّة نفسها

لإرادته . وما كان لمثل هذا الأمر أن ينشأ عن البداوة نفسها ، بل نشأ معتمداً على واحة مثل يثرب (المدينة) . وبصرف النظر عن دلالة هذه الحادثة الفريدة في التاريخ العالمي ، نرى فيها مثلاً لاحتمالات الصراع العادي بين قوى البدو والحضر ، على نحو ما حدث عبر التاريخ في جزيرة العرب ، وعلى نحو ما يحدث أيضاً .

لم تذكر في الجداول الواردة سابقاً العناصر غير العربية ،والمقيمة في البلاد العربية ، وهي التي يجب أن تنقص من مجموع السكان العرب ، كي نحصل على العدد الصافي للسكان العرب ، وهذه العناصر يدخل فيها الأوروبيون والأكراد في العراق وسوريا والشراكسة في الأردن والعناصر الإفريقية في جنوب السودان (الحامية والنيلية) والجاليات اليهودية وغيرها . أما البربر الذين يقطنون في المناطق الأطلسية ، فيقول نفيل باربر (عرض لشمال غرب إفريقية ، لندن ، تورنتو ، نيويورك ، ١٩٥٩ ص ٧٩ و ٢٠٣) إن ٣٥ في المائة من سكان المغرب وقرابة ٣٠ في المائة من سكان الجزائر يتكلمون البربرية ، لكنه لا يعطي تقديراً للسكان على أساس عنصري ، خاصة وإن حركة تعريب البربر في تلك الديار يسير بخطى حثيثة . ومن العناصر الغريبة التي تعيش في بلاد العرب بقية من الرقيق في الجزيرة العربية والمغرب ، وأتراك خلفهم الحكم العثماني الطويل في البلاد التي خضعت له ، وكذلك إيرانيون في العراق والخليج . وهذه الجماعات يصعب الحصول على أي إحصاء لها . وأما فيما يتعلق بسكان المناطق الصحراوية في شمال إفريقية ، حيث تقيم شعوب مسلمة غير عربية بين القبائل العربية ، وهي الطوارق (من الحاميين الغربيين) والتبو من السودان ، فإننا لا نملك معرفة صحيحة لعددها ، ويجب اعتبارها قضية معقدة . لكن جميع أقطار الصحراء الكبرى وأواسط النيل الإسلامية تسود فيها اللغة العربية لغة تخاطب وتواصل .

وبين مجموع هذه الشعوب الناطقة بالعربية والتي تبلغ في مجموعها أكثر من ١٢٠ مليوناً ، وهي التي تشعر ، على وجه العموم ، بعروبتها ، يوجد ما يزيد عن ستة ملايين من المسيحيين الشرقيين . أما المسلمون فمؤلفون من مذاهب مختلفة : السنّة والشيعة والإباضية ، كذلك الإسماعيلية والدروز والنصيرية أو العلويين . كما يجب علينا أن نضيف العرب الذين يعيشون في تركيا قرب الحدود السورية وفي الجزء المجاور للعراق من إيران في منطقة عربستان (التي عرفت في القديم باسم عيلام وفي العصور الوسطى باسم خوزستان) وفي سواحل الخليج العربي الشرقية . ولا يزيد هؤلاء في عدد العرب إلاّ قليلاً . أما العرب الذين هاجروا إلى الهند وجاوه وشرق إفريقية ، وحديثاً إلى أميركا ، فلا يدخلون الآن في بحثنا .

وإذا عدنا إلى أصل الشعوب العربية نجد أن قاطني الأرض الصالحة للزراعة ينتسبون في الغالب إلى الشعوب المتحضرة الشرقية القديمة التي اعتنقت الإسلام وتعربت لغة مثل سكان بابل (وفيهم عنصر إيراني) والسوريين (السريان) والمصريين ، الذين اختلطوا بالدم العربي إلى درجة معينة ، وكذلك فإن العرب الذين استوطنوا هذه البلاد اختلطوا بسكانها القدامى . والأمر الجدير بالاهتمام قبل كل شيء هو أنّه في البلاد الزراعية القديمة من العالم الناطق بالعربية اليوم كان اعتناق الإسلام فيها معادلاً لقبول العروبة . ويبدو أن هذه الحالة لم تستقم على الدرجة نفسها بالنسبة لمناطق الأطلس ، ومع ذلك فإن قسماً كبيراً من السكان الذين هم اليوم من الناطقين بالعربية ، وخاصةً في المدن ، هم من أصلٍ بربري أو متبربر بالاختلاط . إلى هذا الاختلاط العرقي الواسع الانتشار ، والذي يبدو ، بطبيعة الحال ، في أقوى مظاهره في المدن ، ثمّة مزيج من الدم الأسود الذي جاء مع الرقيق الذي نقل ، عبر العصور ، إلى الجزيرة العربية وشمال إفريقية . وتعيش في جدّة وفي المدينتين المقدستين مكّة المكرّمة والمدينة المنورة

مجموعة مستعربة من الشعوب المختلطة وهي تتكوّن من جميع العناصر الموجودة في العالم الإسلامي .

فالصفاء العنصري العربي قد يعثر عليه بين بدو الجزيرة العربية وبدو شمال إفريقية الناطقين بالعربية ، وهم الذين لم ينتقلوا بعد إلى حياة مستقرة . فالبدو وحدهم شديدو الحرص على صفاء الدم ، بينما العرب المتحضرون يعملون بنزعة المساواة في الإسلام ، التي لا تقيم وزناً لنسب الإنسان ، بل إن كلّ شيء يعتمد على التشهد ، ولأبناء السراري ، بغض النظر عن الأصل ، ما لأبناء الحرائر . أمّا البدو فلم يأخذوا بنزعة المساواة هذه : فحتّى اليوم يعتبرون العربي هو من يتمتع بصفاء الدم من جهة الأب والأم على السواء . والبدو يأخذون بأرستقراطية الدم ، فليس أرستقراطياً من كان ذا دم مُختلط .

إنه من الأهمية بمكان ، من الناحية الأنثربولوجية ، أن شمال إفريقية كان ، في الزمن القديم ، قبل قدوم الإبل ، منفصلاً انفصالاً تاماً وقوياً عن المناطق الاستوائية . فالصحراء تكوّن حاجزاً لا سبيل إلى اجتيازه ، فمنعت الهجرة بأعداد كبيرة من الجنوب ، وكان أمام العناصر البشرية الموجودة في أواسط إفريقية ، كي تصل إلى الشمال ، إما اتباعُ الطريق البحري المحاذي لسواحل إفريقية الغربية أو الشرقية ، أو الانحدار مع النيل . وكان وصول الإبل إلى إفريقية في أيام الرومان المناسبة الأولى التي يسرت الانتقال والترحال عبر الصحراء ، وبذلك أصبح التبادل في السكان على مقياس واسع ممكناً . وقد أدّى تحسين طرق المواصلات وأساليبها حديثاً إلى زيادة في إمكانات التبادل ووسائله .

أما احتمالات التمازج بين دم الإفريقيين السود وسكان البحر المتوسط في آسيا وشمال إفريقيا فيمكن إهمالها ، واعتبار هذه البلاد مناطق استيطان لعناصر شبه أوروبية ، صافية البشرة مستقيمة الشعر . فقد خرجت من المناطق

الآسيوية على شاطئ البحر الأبيض موجتان على الأقل من العناصر الشبيهة بالأوروبية ، وتوغلت في واحات الجزيرة العربية ، بل وتقدمت نحو بلاد السودان . وهنا التقت بشعوب داكنة البشرة لكنها غير زنجية ، فأزاحتها عن مواطنها، إلاّ أنّ بقيّةً من هؤلاء السكان القدامى لا تزال موجودة إلى اليوم . والأولى من هاتين الموجتين ، الموجة الحامية ، انتقلت عبر البحر عند باب المندب نحو إفريقية ، وكوّنت في الجزء الشمالي الشرقي من هذا القسم من الأرض جل السكان . وأما الموجة الكبيرة الثانية ، أي السامية ، فهي التي تبعت الحاميين وطبعت الوجه العنصري للجزيرة العربية بطابعها الواضح . وقد دفعت هذه الموجة أيضاً بجماعة سامية من جنوب الجزيرة العربية نحو إفريقية وهي التي استقرت في إثيوبية التي تتشابه في المناخ مع جنوب الجزيرة . وقد توغلت عناصر حامية شبه أوروبية من آسية في شمال إفريقية عبر برزخ السويس . واختلط هؤلاء الحاميون في مناطق الأطلس مع القادمين من شبه جزيرة إسبانية من العنصر البحر – المتوسطي . ومع ذلك فقد ظلّت المكانة العليا للحاميين ، ولو في اللغة على الأقل . وقد انتقل الحاميون الغربيون من شواطئ البحر المتوسط الغربية إلى الصحراء لأول مرّة مع الإبل ، أي في العصر الروماني ، ولم يتوغلوا فيها إلاّ أثناء العصور الوسطى ، وبذلك أجبروا السكان السود المتفرقين الذين كانوا قد قدموا من الجنوب على التراجع من المنطقة بأسرها . والطوارق ، وهم الذين وصلوا أقصى ما يمكن إلى الجنوب ، لم يصلوا منعطف نهر النيجر إلاّ في القرنين الحادي عشر والثاني عشر هـ. (السابع عشر والثامن عشر م .) .

وهنا نجد أيضاً أن العرب الساميين (أو الساميين العرب) تبعوا الحاميين وأزاحوهم من هنا وهناك ، وذلك خلال سيطرة العرب في القرون الوسطى. وقد التقى الحاميون الغربيون (المصريون) الذين توغلوا مع النيل نحو الجنوب، والعرب فيما بعد ، بالشعوب السوداء والحاميين الشرقيين ؛ وقد كان الشلال

الأول عند أسوان ، منذ عصور قبل التاريخ ، ولا يزال إلى الآن ، الحد الفاصل بين الأجناس والشعوب .

إن الجزء الأكبر من سكان جزيرة العرب ينتمون ، من الناحية العنصرية ، بقدر ما يسمح بذلك البحث الذي تمّ إلى الآن ، في غالبيتهم إلى ما يسمى العنصر الأوريتاليدي (السامي) ، وهو فرع من العنصر المتوسطي ، كما نجد عناصر شبه أوروبية أخرى منتشرة حتى الجنوب . والجزيرة العربية هي على كل حال البلاد التي نجد فيها العنصر الأوريتاليدي (السامي) على أنقى ما يمكن ، حيث أتيح لنمطه أن يتطوّر على مدى طويل بطريق الاختيار الطبيعي . وهذا النمط يمتاز بقامة متوسطة ، وجسم نحيل يكاد يكون ضامراً ، وجمجمة طويلة ، ووجه ضيّق ، وأنف أقنى قليلاً ، مع ارتفاع في أصله ، وجلد داكن وكذلك عيون سوداء وشعر أسود . والحياة الصعبة في القفار والواحات الفقيرة حددت لهذا العنصر صفاته الخلقية والروحية ، منها مثابرته على تحمل الحر والبرد والجوع والعطش، وحبُّه للحرية إلى درجة تتغلب فيها الفردية على تصرفه، وطبع حاد ، وشعورٌ عميقٌ بالشرف ، يبلغ حد المبالغة غالباً، متصل بشعور طبيعي بالكرامة، وبوقار أصيل ومروءة مع شهامة،يصاحب ذلك جشع وميل إلى التفاخر . وبسبب انتشار العرب في البلاد التي فتحوها في الشرق ؛ فلا ريب أن دمهم قد امتزج بدم الشعوب التي كانت مستقرة فيها ، بحيث يجد المرء في كل مكان نماذج تمثل العنصر العربي . ولكن ، كما ذكر من قبل ، لم يكن لهذا الأمر ، عموماً ، من سعة الانتشار مثلما كان للغة العربية نفسها .

* * *

وبما أن الإنسان العربي يمثل العنصر السامي في العالم على أنقى ما يكون فإن تاريخ العالم العربي يصحّ أن يكون خير عرض لما يمثله هذا العنصر ، من الناحيتين

الإيجابية والسلبية . ويبدو أنّه ثمة شيء مشابه لذلك في المجال اللغوي بالنسبة للغة العربية . فقد تطورت العربية إلى آخر حدّ يمكن أن يصل إليه نمط اللغات السامية. فعلى سبيل المثال تطور نظام الفعل الثلاثي (ف ع ل) في العربية إلى أقصى حدّ ممكن ، مما يدلّنا على إمكانيات التجريد الكامنة في اللغات السامية . وكذلك وصلت العربية إلى درجات من قوّة التعبير وتعدّد الاشتقاقات لم نرها في اللغات السامية القديمة . وبذا تبدو اللغة العربية كأحدث اللغات الثقافية النامية على شجرة اللغات السامية وكأنها تتويج لهذا النمو ، وتدلّنا على ما لهذا الفرع من اللغات الإنسانية من المقدرة على الإنجاز .

وقد أصبحت اللغة العربية ، بسبب الإسلام ، اللغة السائدة في التعامل في منطقتي شمال إفريقية وغرب آسية . وآلت إلى أن تصبح لغة السكان ، وبذلك أزاحت من طريقها اللغات السامية القديمة ، ومنها السريانية التي كان لها ما للعربية اليوم من الشأن في غرب آسية ، والقبطية وهي آخر ما انتهت إليه اللغة المصرية القديمة . وحتى في جزيرة العرب نفسها تغلّبت اللغة العربية ، وهي التي يجب أن يشار إليها بالعربية الشمالية ، على اللغة الثقافية القديمة في جنوب الجزيرة ، وقد زالت هذه إلاّ من بقية ضئيلة في لهجة مَهْرة ، بلاد البخور ، وفي لهجة سُقَطْرى الواقعة على مقربة من شبه جزيرة الصومال . وأصبحت اللغة العربية ، باعتبارها لغة القرآن ، لغة الإسلام المقدسة ، فانتشرت بوصفها لغة الدين والعلم في رقاع العالم الإسلامي ، واحتلّت ، حتى العصر الحديث ، المكانة نفسها التي كانت للغة اللاتينية في بلاد الغرب .

واللغة العربية المدونة، على ما استقرت عليه في القرنين الثاني والثالث هـ. (الثامن والتاسع م .) ، متبعة في ذلك سنن القرآن والشعر العربي القديم ، تختلف عن اللهجات الشعبية ، وهذه بدورها ظهرت فيما بينها فروق كبيرة من قطر إلى قطر . وليست ثمة علاقة مباشرة بينها وبين اللغة العربية الكلاسيكية

المدونة (الفصحى) ، إنّما نشأت هذه اللهجات بمثابة بنات للغة العربية الدارجة القديمة ، وهي التي كانت متنوعة اللهجات أيضاً . ولم يظهر بعد ، بالنسبة لها ، لا دانتي ولا لوثر بحيث يتمكن من جعلها لغات كتابة حديثة .

ولكن الخط العربي ، وهو أحدث فرع للكتابات السامية — وهو مثلها يكتب من اليمين ، وأساسه كتابةُ الحروفِ الصامتةِ فقط — انتشر بسبب الإسلام خارج منطقة نفوذ اللغة العربية ، وقد وجد سبيله إلى كل البلاد الإسلامية تقريباً بل وتعدّى حدود هذه البلاد في بعض الأماكن . فأصبح الخطُّ العربي جزءاً هاماً من الثقافة الإسلامية . وأكثر الشعوب التي قبلت الإسلام ديناً ، أخذت الخط العربي وكتبت به لغاتها ، حتى ولو ان لغاتها الأصلية لم تكن قد تعربت كما فعل ساميو غرب آسية وسكان مصر . وخير مثال على ذلك أن الأدب الفارسي الغني ، وأبدع نتاج لثقافة روحية ظهر في قطر إسلامي ، يدوّن بخط عربي . ولم تتخلَّ بعض الشعوب الإسلامية عن استعمال الخط العربي إلا مؤخراً، فقد اقتبس الأتراك الحرف اللاتيني ، وأخذ مسلمو الاتحاد السوفيتي أنفسهم باستعمال الحرف الكيريلّي (أي الحرف الروسي) .

الفصل الثاني

بلاد العرب القديمة

إن الجزيرة العربية ، كمنطقة ذات مناخ جاف ، وأرض زراعية محدودة فقط في واحات متفرقة منتشرة في رقعة واسعة من الصحاري والقفار ، لم يكن لها تاريخ خاص بها إلاّ بقدر العلاقات التي كان سكانها يقيمونها مع البلاد الزراعية المجاورة لهم . والجزء الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة أي بلاد اليمن الجبلية ، هو الجزء الوحيد الذي يحتمل القول بأنّه ، بسبب وجود حياة حضارية فيه كان له تاريخ خاص به . وفي الحقيقة فإن النقوش والأبنية تشهد على قيام حضارة في جنوب الجزيرة تعود إلى الألف سنة الأولى قبل الميلاد . وقد كانت مراكزُ هذه الحضارة في منطقة الواحات الاستوائية على الأطراف الشرقية لمرتفعات جنوب شبه الجزيرة . هنا ، حيث كانت المياه المنحدرة من المرتفعات التي تهطل عليها الأمطار ، والتي كانت تغور بعد قليل في رمال الصحاري ، عرف العرب الجنوبيون كيف يحتجزون هذه المياه بحيث يمكنهم أن يوزّعوها على الأراضي المجاورة ، وبذلك خلقوا منطقة زراعية أصبحت بدورها أساساً لازدهار الحضارة في جنوب الجزيرة . ومن هنا أصبح من الممكن أيضاً أن تُضمّ الأودية المرتفعة في اليمن ، وهي الشبيهة بالاستوائية مناخاً ، والموانىء الواقعةُ

على شاطىء المحيط الهندي والبحر الأحمر إلى المنطقة المتحضرة من جنوب الجزيرة . وقد نقل إلينا الكتّاب القدامى أخبارَ أربعة مراكز حضارية رئيسية في جنوب الجزيرة ، بنى كل منها دولة كانت أصلاً مستقلة واحدتها عن الأخرى. وكانت هذه هي دولة مَعين وعاصمتها قرنا (قرناو) ودولة سَبَأ ومدينتاها الكبيرتان هما سِرواح وماريبا (وهي التي عرفت فيما بعد بمأرب) ودولة قطبان وعاصمتها (تمنع وهي اليوم كُهلان) وحضرَمَوت عاصمتها سَبَتا أو سبوتا (شبوة) ، وقد انضمت إليها بعد الميلاد مدينة صنعاء القائمة على مرتفعات اليمن مركزاً خامساً . أما المراكز الأربعة الأولى وهي الأماكن الرئيسية التي عثر فيها على أكثر النقوش فتقع في صف واحد في منطقة الواحات في شرق اليمن . والدولتان الجنوبيتان ، قَطبان وحَضرَمَوْت ، كانتا مرتبطتين مع الموانىء الواقعة على المحيط الهندي ارتباطاً مباشراً ، وكانت معين تتصل برّاً بطريق القوافل عبر نجران ، وهي أقصى نقطة وصلتها حضارة الجنوب شمالاً ، بأرض الرافدين وبموانىء البحر المتوسط عن طريق غزة . ورابع هذه الدول ، سبأ ، وهي المتوسطة بينها ، والتي كان فيها أكبر السدود ، وهو سد مأرب المشهور ، استطاعت أن تُفيدَ من موقعها فتسيطر على المنطقة بأجمعها سياسياً .

كان ازدهار جنوب الجزيرة ويسرها يعتمدان ، بالإضافة إلى احتجاز المياه المتحدرة ، على التجارة . وكانت أهمية هذه البلاد في العالم القديم قائمة على تصدير ما تنتجه هي (الذهب والبخور والمرّ) ، ولكنها كانت قبل كل شيء تتوقف على دور عرب الجنوب في التجارة مع الهند وشرق إفريقية ، ونقلهم منتوجات هذه الجهات إلى بلدان البحر المتوسط .

بسبب حملة الإسكندر الكبير إلى الهند اتسع أفق العالم القديم بشكل لم يعهد من قبل . فبعد ذلك التفتح اهتم خلفاءُ الإسكندر ، الذين سادوا دول البحر المتوسط في العصر الهليني ، وخاصة البطالسة حكام مصر ، بتخطي العرب

الجنوبيين والوصول إلى المتاجرة رأساً مع الهند . وقد كان الإسكندر قد خطط للإبحار حول الجزيرة العربية ولكنه لم ينفذ خطته . أما البطالسة فتابعوا المحاولة وشجعوا الملاحة في البحر الأحمر . وفي أيام بطلميوس السابع إيفرغيتس (١٤٦ — ١١٧ ق . م .) أصبحت البحارة إلى الهند أمراً عادياً واستمرت نشطة تماماً حتّى أيام الرومان . وترتب على ذلك أن قُضِيَ على تجارة القوافل بين موانىء المحيط الهندي وغزة وعبر المراكز الحضارية في جنوب الجزيرة ، والتي كان يقوم بها العرب الجنوبيون . وكأن هذا لا يكفي ، فإنه فضلاً عن ذلك قامت عائقة على طريق القوافل إلى غزة نفسها وأقفلته ، وهي دولة الأنباط في شمال غرب الجزيرة ، التي كانت حليفة لمصر البطالسة ، ثم لدولة الرومان . فأصبح جنوب الجزيرة العربية لا يشترك في التبادل التجاري العالمي إلاّ بواسطة موانئه ، وخاصة بواسطة عدن (أدنا أو أثانا على حسب رواية القدماء) ، التي بقيت مركزاً هاماً للملاحة بين البحر الأحمر والمحيط الهندي ولكن فيما عدا ذلك فقد حشر التغيّر في التجارة العالمية عرب الجنوب في زاوية مهجورة ، وأدى قطع التجارة البرية إلى فقدان مصدر هام من مصادر ثروتهم .

ونتج عن ذلك التغيّر في أساس التجارة العالمية ، بالإضافة إلى التقهقر الحضاري الذي أصاب جنوب الجزيرة ، انتقال مركز الثقل السياسي من المراكز القديمة في شرق المناطق الزراعية إلى الجهات الساحلية . فديار سبأ ، التي كانت في موقع متوسط ، خسرت موارد رزقها ووقعت فريسة سهلة لقبائل حِميَر في سنة ١١٥ ق . م . ، وهي التي كانت مستقرةً في جنوب غرب الجزيرة . وبهذه السنة تبدأ حقبة تأريخ العرب الجنوبيين ، وهذا التأريخ الزمني ظل مستعملاً حتى زوال الحضارة في جنوب الجزيرة . وقد أصبحت صنعاء فيما بعد ، في الأزمنة التي تلت ميلاد المسيح ، المدينة الرئيسية في مرتفعات

اليمن ، وظلّت كذلك إلى يومنا هذا .

بعد تعطل التجارة الداخلية بقي جنوبُ الجزيرة ، بسبب موانئه ، حلقة الوصل في التجارة بين الهند وشرق إفريقية . ومن ثم فقد رغب الرومان ، خلفاء البطالسة ، في أن يضعوا أيديهم عليها . وقد انتهت الحملة التي أرسلها أغسطس سنة ٢٤ ق . م . بقيادة أَلِيوس جَلّوس إلى فشل ذريع ولكن الرومان نجحوا بعد ذلك في الحصول على شيء من النفوذ هناك بالوسائل الدبلوماسية ، فأصبحت تلك الديارُ صديقةً لهم .

وقد أدّى سوء الأحوال هناك إلى أزمات داخلية عنيفة ، الأمر الذي أعطى الدول الأجنبية ، وخاصة إثيوبية ، الفرصة للتدخل . ومنذ ذلك الحين لا يتبع تاريخ جنوب الجزيرة خطاً خاصاً به ، بل إن البلاد أصبحت في الواقع كرةً في حلبة الدسائس السياسية التي كانت تحيكها الدولتان الكبيرتان في أواخر العصر القديم، الإمبراطورية الفارسية والإمبراطورية البيزنطية . وقد دعا أحد الفرقاء المتخاصمين الأحباش فأُتيح لهم أن يحكموا جنوب الجزيرة من سنة ٣٥٠م إلى سنة ٣٧٥م تقريباً . وبعد طرد الأحباش المسيحيين من البلاد اعتنق الحكام المناوئون لهم اليهودية . ولما كانت المسيحية فيما بين ذلك قد تأصلت وصار لها مكانة في البلاد ، عاد الأحباش إلى هناك ، وذلك ، على ما يبدو ، بأمر من الإمبراطورية البيزنطية ، في سنة ٥٢٥م وظلوا سادة البلاد إلى حوالي سنة ٥٧٠م . ولم يتخلص العرب الجنوبيون من هذه السيادة الأجنبية إلاّ بدعوة دولة أجنبية أخرى لنصرتهم . وبذلك أصبح جنوبُ الجزيرة ولايةً فارسية وظلّ على ذلك إلى سنة ٦٢٨م حين ضمه النبي (ص) إلى الدولة الإسلامية الناشئة .

نتيجة لانتقال مركز الثقل السياسي من منطقة الواحات الشرقية في أودية اليمن المرتفعة إلى صنعاء ، وكذلك بسبب ما أصاب البلاد من تأخر وما مرّ عليها

من أزمات ، انصرف السكان عن العناية بالسدود وصيانتها وهي التي كانت أساس الحياة الزراعية في الشرق . وثمّة نقشان وجدا على سد مأرب يعودان إلى سنتي ٤٥٠م و٥٤٢م يشيران إلى حدوث عطب في هذا السد الشهير بسبب المياه الغزيرة ، إلاّ أنّه أصلح في المرّتين. لكن بعد سنة ٥٧٥م حدث الانفجار الثالثُ والأخير للسد ، الذي لم يصلح السد بعده . وليس ثمّة أي نقش للإخبار عنه ؛ ومع ذلك فقد ظل ذكره حيّاً في نفوس الشعب على أنه كارثة شديدة. وقد ورد ذكره في القرآن الكريم (٣٤ : ١٦) على أنّه سيلُ العرم . ونتج عن ذلك أن تعطلت مساحات واسعة من الأراضي عن الإنتاج، وآلت إلى سهوب ، وعجزت عن إطعام السكان الموجودين . ومن المؤكد أن قبائل بأكملها وهي التي كانت إلى ذلك الوقت تعتمد الزراعة مصدراً لحياتها ، انتقلت إلى الاعتماد على الحيوان في اقتصادها ، وبذلك أرغمت على التحول إلى الحياة البدوية . ويُرْجعُ المؤلفون المسلمون السبب في انسياح قبائل جنوب الجزيرة إلى الشمال إلى خراب سد مأرب . على أنّه من المحتمل أن هذا الانسياح بدأ في وقت سابق لانفجار السد ، وذلك بسبب تردي الأحوال المستمر في جنوب الجزيرة ؛ إذ إننا نعثر على قبائل من عرب الجنوب في الشمال حتى في القرن الثاني للميلاد .

* * *

ويعود آخر نقش عربي جنوبي مؤرخ إلى سنة ٥٥٤م. ولما بدأ النبي (ص) دعوته في مكة بعد ذلك بنحو نصف قرن ، كانت الحضارة في جنوب الجزيرة قد انتهى أمرها . أثناء ذلك كان قسم كبير من نشاط عرب الجنوب قد وجد له في الشمال مجالاً للعمل، حيث حصلوا على شيء من الزعامة السياسية ، على ما سنرى . وقد يسّرت الانطلاقة التي بدأها النبي (ص) وشملت العرب

جميعاً لهذا النشاط اتجاهاً موحداً وهدفاً جديداً .

بعد أن استوطن الساميون في العصور القديمة المبكرة شمال جزيرة العرب ، قام هذا الجزء من البلاد بدور خزان بشري يعوض ما ضاع في البلدان الزراعية المجاورة من الدم السامي بسبب الاختلاط مع عناصر غريبة كانت قد انضمت إلى الساميين هناك ، وخاصة عناصر الحوريين (الصوباريين) ، وهي التي تنتسب إلى العنصر المسمى بالغرب آسيوي أو بالارمنيدي . فأرض الجزيرة العربية القاحلة ، كانت بسبب تزايد السكان العادي ، تبلغ بسرعة غاية ما تستطيع أن تقدمه لتزويد سكانها بالحاجات الحيوية . وكثيراً ما كان يترتب على ذلك قيام حالة انفجار سكاني ، مما يؤدي إلى ارتحال القبائل الضعيفة تحت ضغط القبائل الأقوى ، باحثة عن مساكن جديدة . ومن الواضح أن البلدان المتحضرة ، وما فيها من يسر الأوضاع المعاشية ، كانت تجتذبها إليها . فجوار البدو كان ، في جميع الأوقات ، مصيبةً للبلد المتحضّر ، ومصدر خطر كبير لا يقدر على دفعه إلاّ الدولة القوية ، فكثيراً ما يتعرّض مثل هذا البلد لتدفّق البدو وتغلّبهم عليه أثناء أزمنة الضعف . وتاريخ الشرق الأدنى مليء بأخبار اعتداء البدو على المناطق الحضارية ؛ فهجوم العبرانيين واستيلاؤهم على أرض الكنعانيين مثلٌ واحد من أمثلة كثيرة . هذا يصدق على أواخر العصور القديمة حيث لم يكن العرب هم الذين يعتدون على المناطق الزراعية ، بل الشعوب السامية الأخرى ، كما يصدق على العصور القديمة المتأخرة ، حيث يدخل العرب نطاق تاريخنا ، ويصدق أيضاً على العصور المتوسطة والأزمنة الحديثة ، حيث كانت قضية البدو ، بالنسبة للحكومات ، قضية شائكة ، ولا تزال كذلك إلى درجة ما . وقد وصل ضغط البدو أقصاه في القرن السابع (الأول للهجرة) أي في هذا الاندفاع العارم للعرب أجمعين إذ خرجوا تحت راية الإسلام .

إن تاريخ العرب الحقّ يبدأ في العصر الذي تلا الاسكندر الكبير ، وذلك باستقرار الأنباط العرب في أرض مـدْيَن (شمال غرب الجزيرة) وفي السهوب الواقعة بين مصر وفلسطين ، في أواخر القرن الرابع ق. م. ، ومن هناك قاموا بهجمات على الأراضي الزراعية المجاورة . وفي فترة لاحقة جذب الأنباط تجارة القوافل في المجال العربي الشمالي نحو بلادهم ، بحيث سيطروا على المنطقة الممتدة من مصر إلى شواطىء الخليج العربي ؛ وقد انتقل بعضهم إلى حياة الحضر وخضعوا للحضارة الشرقية الهيلّينية التي كانت تسود سورية وفلسطين . وقد أصبح باستطاعتنا أن نرسم صورة لهم من آثار مدينتيهم الرئيسيتين البَتْراء (وادي موسى) والحِجْر (وهي اليوم مدائن صالح) .

وقد أقام الأنباط علاقات وديّة مع البطالسة، ثم مع خلفائهم الرومان . ومع ذلك فقد انزعج الرومان من نفوذ الأنباط ، حتى أن الإمبراطور تراجان أرسل قائده كورنيليوس بالما فقضى على دولتهم سنة ١٠٦ م . وقد صار الجزء الأكبر منها ولاية رومانية سمّيت العربية ، وكانت عاصمتها بُصرى (بُصرى أسكي شام) في حوران ، وبإنشائها في ٢٢ آذار (مارس) ١٠٦ تبدأ الحِقبة المعروفة بحقبة بصرى ، وهي التي جرى حساب الزمن عليها قروناً طوالاً في سورية وشمال جزيرة العرب . والمنطقة التي كانت تحت إدارة روما بنى فيها الرومان حصوناً لحمايتها من السهوب ، كما أنشأوا فيها شبكةً من الطرق تتفرّع من بُصرى وتربط أجزاءها الواحد بالآخر . وقد عنيت الدولة الرومانية عناية خاصة بتوسيع نطاق الأراضي المزروعة على حساب السهوب ، وتوطين بعض البدو ، وضبط شؤون العرب الذين ظلّوا يعيشون حياة البدو .

وللأنباط أهمية خاصة بالنسبة إلى تاريخ العرب فيما بعد بسبب الكتابة

النّبَطيّة الّتي وصلت إلينا في عدد كبير من النقوش . والكتابة النبطية هي خط متصل الحروف متفرّع من الكتابة الآرامية القديمة ؛ كذلك استعمل الأنباط اللغة الآرامية ، الّتي كانت يومها اللغة السامية العالمية ، في نقوشهم . وحتّى بعد انهيار دولة الأنباط ، ظلّت الكتابة النبطية مستعملة بين العرب ؛ ومع الوقت تغلّبت على كتابة عرب الجنوب الّتي كانت منتشرة بين عرب الشمال أيضاً . ومنذ القرن الرابع للميلاد أخذ الناس يكتبون اللغة العربية بالخط النبطي . وهذا الخط هو الذي نشأ عنه الخط العربي الذي عرفنا أقدم عيّنات منه عن طريق نقوش ترجع إلى القرن السادس للميلاد .

وحتّى بعد أن فقدوا دولتهم ظلّ الأنباط لفترة من الزمن يمسكون بزمام التجارة في شمال الجزيرة بأيديهم . ولكن لم تلبث المدينة الواحة تدمر (بلميرا) أن جذبت التجارة إليها ، وكانت تحت سيادة الرومان ، وكان موقعها ممتازاً على مفترق عدد من طرق القوافل ، وفي منتصف الطريق بين دمشق والفرات . وقد أُتيح لها في أيام السلم بين الرومان والفرثيين الذي بدأ سنة ١٢٣م . في عهد الإمبراطور هدريان ، أن تمر بها فترة ازدهار ، فكانت مركز الاتجار بين البحر المتوسط وإيران وملتقى بين الحضارة الشرقية والهلّينية . وقد قامت في المدينة جمهوريةُ نبلاءٍ بزعامة طبقة عربية ، وكان سكانها مزيجاً من الآراميين والعرب مع عناصر يونانية . ولما توتّرت العلاقات بين روما وإيران بعد اعتلاء الساسانيين عرش الإمبراطورية الفارسية (سنة ٢٢٤ م .) ، نجح أمراء تدمر العرب بمهارتهم الدبلوماسية في جعل تدمر دولة فاصلة بين الدولتين الكبيرتين ، فلم تخضع لسيطرة روما إلاّ بقدر ضئيل . وكانت زنوبية (زينب ، والزباء بحسب الرواية العربية) ملكة تدمر قد وسعت بحروبها ملكها حتّى مصر (سنة ٢٧٠ م .) ، فلما بدت منها محاولة للاستقلال عن روما بمساعدة

الفُرس ، قاد الإمبراطور أُورليان حملةً عليها وهزمها واحتلّ تدمر (٢٧١ م .) . وقد قبض على زنوبية وهي فارّة ، وحملت إلى روما . أما تدمر فقد دُمّرت وضُمّت منطقتها إلى الإمبراطورية الرومانية من جديد .

إن تدمر ، التي يستطيع المرء أن يستمتع بمشاهدة آثارها الرائعة في طريقه بين دمشق وبغداد ، تقدم أروع مثل لمركز الحضارة الشرقية الهلّينية ومع ذلك فإن عصر تدمر الذهبي ليس إلاّ فترة قصيرة في تاريخ عرب الشمال . فإن ما قام به التدمريون لم يترك أثراً يذكر في تاريخ الحضارة العربية إذا قورن بما قام به الأنباط من دور في الحضارة الشرقية الهلّينية .

* * *

وقد حدث أثناء ذلك تبدل كبير في توزيع السكان في داخل جزيرة العرب . فبسبب سوء الأحوال السياسية الذي عرفه جنوب الجزيرة في القرون الميلادية الأولى ، حُملِتْ قبائل من الجنوب العربي على الانتقال إلى الشمال حيث أزاحوا قبائل من عرب الشمال عن مواضعها ، فأصبحت هذه بدورها مضطرّة إلى النزوح . وقد تمّ انتقالٌ في القبائل العربية بشكل خاص في القرن الثاني للميلاد ترتب عليه حلول قبائل جديدة على أطراف البلاد المتحضرة ممّا عرّضها للخطر . وقد كان سقوط الدولة النبطية في مطلع القرن الثاني للميلاد مما أفادَ هذا التنقّل . ويظهر أن هذه القبائل التي انتقلت من جنوب الجزيرة لم تتكوّن من أعداد كبيرة ، إذ يبدو أن التركيب اللغوي في شمال الجزيرة لم يتغير أو يتبدّل بسببها . ومع ذلك فإن قوّتها الحربية كانت كبيرة ؛ فتطوّرت إلى أحلاف كبيرة ، وبذلك ضمّت إليها ، ولا شكّ ، عناصر متعدّدة من عرب الشمال .

فعرب الجنوب "" ـ هاجروا إلى الشمال ، لم يلبثوا أن أقاموا لهم، في

مواطنهم الجديدة ، طبقة زعامة سياسية هي التي ضمّت إليها جُمّاعَ القبلية العربية على هيئة دول . وعلى ما نقلته الرواية العربية فقد تمّ لواحد من عرب الجنوب المسمى عمرو بن عدي من فخذ نصر من قبيلة لَخْم أن يضع نفسه على رأس جماعة من العرب أطلقت على نفسها اسم تَنُوخ ، وينشىء قوة في جوار بابل (أي جنوب العراق) . وقد ولاّه الملك شابور الأول (٢٤١ – ٢٧٢ م .) أميراً على عرب المنطقة ، وعهد إليه بأن يدفع غائلة أي هجوم من العرب على هذه الولاية الفارسية الهامة (التي عرّب العرب اسمها الفارسي أيراج فصار العراق ، كما كانوا يسمّونها بالسواد أيضاً) ، والتي كانت تقع فيها عاصمة الدولة ، وهي المدينة المزدوجة المكونة من سلوقية وكتيسيفون (والتي كان العرب يسمّونها المدائن فحسب) . ويبدو أن أحد أبناء عديّ هذا هو مَرْءُ القيس (أو امرؤ القيس) الذي توفي في ٧ كانون الأول (ديسمبر) سنة ٣٢٨ م . ودفن في النمارة ، التي تقع إلى الشرق من دمشق ، في مدفن فخم . وفي النقش العربي اللغة والنبطي الخط المحفور على قبره يسمّي نفسه « ملك العرب الذي لبس التاج » ، ويعدّد أفعاله التي تغلب بها على قبائل العرب جمعاء ، أي تلك التي تقطن المنطقة الممتدة بين الحدود السورية ونجران في جنوب الجزيرة . ويبدو أن هذا المُلْك العربي الذي أنشأه هذا الرجل لم يعش بعده ؛ وحتى ذكراه قد ماتت . ومع ذلك فإنّنا نجد فيما بعد أن اللخميّين اللاحقين يتمتّعون ، تحت السيادة الفارسية ، بملك على حدود العراق ، باعتبار أنهم حماة للحدود ضدّ عَرَبِ السّهُوب .

وحدث مثل ذلك على الحدود السورية إذ أنشأ فخذ جَفْنَة من قبيلة غسّان ، وهم من عرب الجنوب ، سيادةً هناك . وقد رغب الإمبراطور جستنيان أن يكون له هناك أعوان يوازنون اللخميّين التابعين للفرس ، فجعل

(سنة ٥٢٩م) من كبير الغساسنة ، الحارث بن جَبَلَة ، أميراً على جميع القبائل العربية في سورية ومنحه لقب فيلارك وبطريق . وقد كان على هذه الإمارة ، كما كان على اللخميين ، أن تدفع عن الأرض الزراعية أذى البدو ، بالإضافة إلى حماية حدود الدولة البيزنطية من اعتداء الفرس وأتباعهم اللخميين. والمعارك التي دارت بين اللخميين والغساسنة ، والتي كانت تخفي خلفها التنافس بين بيزنطية وإيران ، هي في الواقع سَدى التاريخ العربي في القرن السادس الميلادي ولُحمته .

وقد أخطأ المتأخرون من الأباطرة البيزنطيين وملوك الفرس خطأ كبيراً في ظنّهم أنّه بإمكانهم الاستغناء عن أتباعهم وحماة حدودهم من العرب . فإنّه لما شكّ الإمبراطور طيباريوس الثاني سنة ٥٨١م في سلوك المُنذر بن الحارث وأمر بسجنه ونقله إلى القسطنطينية، نشبت ثورة بين عرب سورية، فقضى الرومان على الثوار . وبذلك زالت الدولة العربية الدارئة التي كانت تحرس الحدود . ومن هنا يستطيع المرء أن يدرك السر في السرعة التي تمّ بها فتح سورية على أيدي خسرو الثاني برويز في ٦١٣ – ٦١٤م. ومن الجانب الآخر كان الملك خسرو الثاني المذكور قد خلع ملك اللخميّين المنذر الخامس في سنة ٦٠٢م، وجعل موظفين فارسيين يديرون أمور الحيرة منذ ذلك الوقت . ولم يمر وقت طويل حتّى قامت قبيلة بكر الضاربة خيامها على الفرات ، وهي من عرب الشمال ، بهجوم على العراق (بين سنتي ٦٠٤ و٦١٠م) وأوقعت بالفرس في ذي قار وقعة كبيرة . ولم يكن لهذه الوقعة أثر سياسي مباشر ، ولكنه كان بعيد المرمى من الناحية النفسية إذ أيقظ عند العرب شعوراً بأهميتهم .

وكما حدث في المناطق المتاخمة للبلاد الزراعية . فقد أنشأت قبيلة كندة «الملكية» ، وهي قبيلة من عرب الجنوب ، ملكاً لها في نجد في أواسط

الجزيرة . وتمت لها السيادة هناك حول سنة ٤٨٠ م . على يد حُجْرٍ (أوغادُس) آكل المُرار ، ثمّ شملت سيادتها جميعَ القبائل في داخل الجزيرة ، وفي وقت ما الحيرة أيضاً . وقد كانت هذه المحاولة شبيهة بمحاولة مَرْء القيس لإقامة دولة عربية شاملة . وثمة شبه آخر بين المحاولتين وهو أن الدولة التي أنشأها حجر لم تُعمّر بعده إلاّ قليلاً ، كما أصاب الدولة التي أنشأها مرء القيس ؛ إذ لم يتمكّن خلفاء حجر من الاحتفاظ بالسيطرة على البدو العصاة . ومع ذلك فقد نظر المتأخرون إلى الفترة القصيرة التي وجدت الدولة أثناءها على أنّها العصر الذهبي للبداوة العربية . وكان آخر الكنديين امرؤ القيس الشاعرُ المشهورُ ، قد حاول إحياء دولة الآباء . وقيل إنّه سعى للحصول على العون من الإمبراطور جستنيان فسار إلى القسطنطينية في سبيل ذلك . وقابل الإمبراطور الذي وعده بالمساعدة . وفي طريق عودته دسّ له رسل جستنيان السمّ فمات في أنقره (حول سنة ٥٣٠ م .)

وقد كان للانتقال من جنوب الجزيرة إلى شمالها أثرٌ كبيرٌ في تكتل القبائل العربية ، من حيث أنّها انقسمت إلى قسمين كبيرين – شمالية وجنوبية ، بناء على عدائها أو ولائها للقادمين من الجنوب . وقد رأى كلٌ من الفريقين نفسه على أنّه منحدر من نسب واحد ، دون أن يكون لهذا النسب صلة وثيقة بالواقع التاريخي . وعليه فلا يُفْهَم من المجموعة الجنوبية اليمنية أن جميع القبائل التي تنتمي لها ، أو كل من ينتمي للقبائل التابعة لها ، هي في واقع الأمر من أصل جنوبي . إذ إن هناك أيضاً عدداً من القبائل وقعت تحت سلطة عائلات من الجنوب ، أو ارتبطت بها بحلف ، فأصبحت لذلك تعتبر من المجموعة الجنوبية . وقد انقسمت المجموعة الشمالية إلى فرعين : مُضَر ورَبيعة ، وبذلك نجد أنّه في وقت ظهور الإسلام كان ثمة ثلاث مجموعات كبيرة من القبائل يجب أن نحسب لها حساباً وهي : اليمن ومضر وربيعة .

أما غرب الجزيرة ، أي بلاد الحجاز ، حيث كانت تقوم بضع مدن، وعدد من الواحات الخصبة ، التي عاشت حياة شبه منعزلة محاطة بالبدو الرحل ، فقد بقيت خارج نطاق النظم السياسية التي قامت وزالت في شمال الجزيرة وشرقها ووسطها . وفي الأزمنة القديمة كانت طرق القوافل التي تصل جنوب الجزيرة بالبحر المتوسط عبر الحجاز ، مسرحاً لحركة تجارية نشطة تقلّصت بعد اكتشاف الطريق البحرية من مصر عبر البحر الأحمر إلى الهند . وعلى بعدٍ قليلٍ من هذه الطريق كانت تقوم مدينة مكّة الواقعة في مكان قاحل ، حيث تنخفض جبال السراة ، وهي سلسلة جبال غرب الجزيرة ، ويتدرّج النزول من هضبة أواسط الجزيرة إلى السهل الساحلي أي تهامة . وقد أصبحت مكة التي كانت مكان عبادة لبلاد العرب جميعها موطن قبيلة قريش من عرب الشمال ومركز نفوذ جديد . والبيت الحرام ، أي الكعبة كان بناء مربعاً ، فيه الحجر الأسود الذي يرجح أن يكون بقية من نيزكٍ هبط من السماء . وهذا كان يجذب الحجاج من بلاد العرب كلّها إلى مكّة ، وهؤلاء كانوا يتبعون سلسلة من الطقوس (تسمى العُمرة) وغايتها الطواف حول الكعبة تكريماً لإله مكّة ، هُبَل . إلاّ أنّ موقع مكّة لم يكن فيه من الأسباب ما يدعو إلى الاستيطان الدائم ؛ ذلك بأنّه لم يكن في جواره لا أماكن للزرع ولا مراع صالحة للمواشي ؛ أما المدينة نفسها فلم تكن صالحة للسكنى لولا وجود بئر واحدة . هذه الأوضاع حملت أهل مكّة مضطرّين على التوجه نحو التجارة على أنّها سبيل العيش الوحيد إلى جانب الإفادة من الحجّ . وقد كيّف القرشيون أنفسهم لذلك . ومكة هذه ، التي كان حكمها أوليغاركيا يتولاّه مجلس مكوّن من رؤساء العائلات على غير نظام معين في تدرج السلطات ، ورثت إلى حدّ ما الدور الذي لعبته المراكز التجارية في جنوب الجزيرة . وكما كانت قوافل السبئيين أوّلاً ، ثمّ قوافل الأنباط والتدمريين

فيما بعد ، تخترق جزيرة العرب في جهاتها الأربع ، أصبح المرء يرى الآن قوافل أهل مكّة في كلّ مكان . وقد تركزت في مكة في القرون الأخيرة من العصور القديمة ، شرايين تجارة الجزيرة العربية بأجمعها .

لم يكن مركز مكة داخل العالم العربي قائماً على الكعبة داخل أسوارها فقط ، إنما كان يقوم كذلك على عدد من الأماكن المقدسة الصغرى في أرباضها . وأبدى أهل مكة مهارة كبيرة في ضمّها إلى منطقتهم المقدسة . وأشهر هذه الأماكن ، جبل عرفات الواقع على الطريق بين مكة والطائف ؛ كان له موسم حجّ سنويّ ، لم يكد يعرف أحدٌ له سبباً أو أصلاً . فكان القوم يلتقون سنوياً في عرفات « للوقوف » هناك ، كما كانت عادةُ الآباء ، وقلّما كانوا يسألون عن السبب . وكان ثمة ثلاثة أماكن مقدّسة تبعد عن مكّة قليلاً ، وقد اختفت قيمتها الدينية خلف أهميتها التجارية . فقد كانت تقام فيها أسواق تجارية كبيرة متصلة بالحج إلى عرفات ؛ ففي هذا الوقت كان يقدم إليها جموع كبيرة من أنحاء جزيرة العرب كلّها . مع أنّها كانت تخلو من السكان بقية أيام السنة . هذه الأسواق ، التي كان عكاظُ أشهرها ، كانت الأيام الحافلة في حياة العرب القدامى : ففيها كانت تُتَبادل منتوجات القبائل البدوية وفلاحي الواحات والمدن ، وفيها أيضاً كانت الجموع تتناقل الأخبار عن كل ما يجري في المنطقة الممتدة بين الخليج العربي والبحر الميت وبين حدود الدولة الرومانية في سوريا والربع الخالي . وكان شيوخ القبائل يبحثون مشاكلهم فيما بينهم ، وينظمون أمور قبائلهم . وكان الشعراء يلقون قصائدهم على القوم ، وكانت تقام هناك منافسات شعرية . كما كانت تقام أيضاً مسابقات للخيول .

وكانت مكة تجني أعظم الفوائد من هذا الالتقاء العربي العام ، ومن الجهة الأخرى كان الزوار أنفسهم يستفيدون من قرب مكة ومشاركة أهلها

في الأسواق . وهكذا أصبحت مكة مع مرور الوقت النقطة المتوسطة التي كانت مرتبطة بألف خيط مع كلّ جزء من جزيرة العرب . ومن هنا يتبيّن لنا ، على ما سنرى فيما بعد ، أن جهاد النبي (ص) ضد العرب كان ، أصلاً جهاداً ، للسيطرة على مكة ، فلما نجح وجد الجزيرة العربية بكاملها تحت تصرفه . ويتبيّن ذلك حين أصبحت مكة قاعدة لبناء نظام سياسي جديد للجزيرة العربية فمكّن العرب من المشاركة في إعادة تنظيم العالم القديم بكامله مشاركة فعلية ، وذلك بتجميع القوى الموجودة في هذه البقاع النائية وبتوجيه نشاطاتها نحو هدف واحد .

قدّم الشعر العربي القديم الذي كان يلقى في الأماكن المقدسة والأسواق ، المعتبرة أرضاً حيادية بالنسبة لجميع القبائل ، المادة الأساسية لتكوين اللغة العربية الفصحى . إن الشعراء كانوا يرغبون مخاطبة جمهور واسع يتجاوز دائرة قبيلتهم ، لذا أخذوا في البحث عن لغة يفهمها العرب أجمعين . وقد أدى هذا إلى نشوء لغة شعرية عربية عامة ، لم يكن أساسها لهجة معينة ، بل كانت مطعّمة من لهجات مختلفة . وبهذه الطريقة برزت من عديد الكلمات والصيغ والتعبيرات الموجودة ، نخبةٌ كوّنت الذخيرة اللغوية للشعر ، بينما ظلّ الباقي منها على مستوى اللهجات . هذه اللغة الشعرية العامة اعتبرها المتأخرون اللغة العربية بذاتها . ولما عني الناس في القرن الثاني (الثامن) بتفهم القرآن من حيث لغته وتوضيح ذلك في كتب التفسير ، رجعوا إلى الشعراء العرب القدامى يستوضحونهم الصيغ اللغوية الواردة فيه التي عز على الناس فهمُها . ونحن مدينون لهذه المحاولات بالحفاظ على الشعر العربي القديم الذي كان لا يزال يومها في متناول الأيدي . فكان اللغويون يحللون ويشرحون أعمال الشعراء ولولا الشروح التي تعود إلى ذلك الوقت لصعب علينا فهم قسم كبير منه . واستخلص من شعر القدماء قواعد لغة الكتابة ، وهكذا نشأ

ما يسمى باللغة الفصحى ، وهي التي حافظت على صلاحيتها إلى يومنا هذا .

* * *

إنّنا لا نعرف الكثير عن المعتقدات الدينية للعرب القدامى . فالشعر العربي القديم لا يعيننا على شيء في هذه الناحية . ولعلّ بعض السبب في ذلك هو أن اللغويين من المسلمين حذفوا مواضع من شعر الجاهلية أو بدلوها إن كانت تحتوي إشاراتٍ إلى معتقداتٍ دينية وثنية . إلاّ أنّ صمت الشعراء القدامى عن المسائل الدينية أصلاً قد يرجع إلى عدم اهتمامهم بها وإلى انحطاط الأديان العربية القديمة في القرون السابقة للإسلام .

يبدو أن دين العرب القدامى كان أصلاً عبادة النجوم ، ومن المحتمل أن شأنَهم في ذلك شأنُ الساميين عموماً . وعلى كلّ فقد كانت هذه صفة دينِ عربِ الجنوب القدامى ؛ إذ كان يقوم على رأس عالم الآلهة عندهم ثالوثٌ مؤلف من الأب القمر والأم الشمس والابن كوكب الزهرة (ڤينوس) . أما في البلاد العربية الشمالية فقد دخلت على دلالة الآلهة وحتّى على جنسها تغييرات ، ولعلّ ذلك كان بتأثير الساميين الشماليين . وهكذا فإن أكبر الآلهة عند القبائل العربية الشمالية ، مثل الأنباط ، هو المسمى ذو الشَّرى ، وهو الذي يحتلّ مثل مكانة ديونسيوس ، أي كان إله الخصب . أما الإلهة الأولى فكانت تسمى ببساطة « الإلهة » (الإلات ، اللات) ، وكانت تحتلّ مكانة مثل مكانة أورانيا (وأحياناً أثينا) ، فقد كانت إلهة السماء ، وأحياناً كانت لها منزلة إلهة الشمس ، وقد تسمى « الشمس » . والنجم ڤينوس تحوّل من إله ذكر إلى إلهة أنثى . كما كان الحال عند الساميين الشماليين ، وأطلق عليها اسم « العزّى » (أي الأقوى) . ومن الأعضاء المميزين لمجمع الآلهة

على ما عرفه العرب الشماليون الإلهة مَناة (تيخي باليونانية) التي تمثل القدر الأعمى .

ومن المحتمل أنّه كان أصلاً لكلّ قبيلة إلهها الخاص الذي كان بينه وبينها عهد، والذي كان يحمي شرائع التقوى التي كانت تقوم عليها حياة القبيلة . وكثيراً ما كان يتخيّل الناس وجود الإله في شيء طبيعي متميّز يجذب الأنظار كحجر أو شجرة أو ما يشبه ذلك . والحجر الأسود في الكعبة (في مكة) الذي بدا كأنّه مقرّ إله مكّة المحلي هُبَل ، هو أشهر مثلٍ على ذلك . وكذلك كان الأنباط يعبدون ذا الشَّرى في حجر أسود ، كان موضوعاً في هيكل فخم في البتراء . والمنطقة المحيطة بمثل هذا الموضع المعتبر مقرّاً للإله كانت حرماً (منطقة مقدسة) لا تُقْطَع فيه شجرة ، ولا تراق فيه دماء ولا يُقْتَنَصُ فيه حيوان ؛ كان يعتبر مكاناً حرّاً يجد فيه القاتل ملجأ . و
العبادة إما باللمس أو بالطواف أو بتقديم الضحايا . وقد كان أصلاً
العرب من هذه الأماكن المقدسة بقدر ما كان فيها من القبائل ؛ وبسبب
القبائل وترحالها أهمل الكثير من هذه الأماكن فآلت إلى أطلال . وكان ر
شهر الربيع ، هو الشهر المخصّص للأعياد في هذه الأماكن المقدسة ؛ و
كان رجب شهر العمرة ، أي يحتفل فيه بعيد الكعبة في مكّة . ومن المحتمل أن تكون الفكرة المرتبطة بهذه الأعياد المحلية هي أن يقدم الرعاة الشكر لحلول البركة على قطعانهم . وكان يحتفل بهذه الأعياد بتقديم القرابين من بواكير الحيوان .

بالإضافة إلى شهر رجب المكرّس لعيد القبيلة كان ثمة في جزيرة العرب ثلاثة أشهر أخرى احترمها الجميع على أنّها أشهر حرام ، وهي ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ، التي كانت تقع في أواخر الصيف والخريف . وفيها كانت تتمّ اللقاءات العامة في الأماكن المقدسة بجوار مكّة كما ذكر سابقاً ،

وكان الناس يقصدونها في مواسم معيّنة . وقد رأينا أن الفكرة الدينية المتصلة بهذه الأماكن المقدسة قد زالت في الغالب ؛ وعلى كل حال فإنّها تراجعت في حياة العرب القُدامى أمام الأهمية التجارية التي اكتسبتها هذه الأماكن خلال الأسواق العامة السنوية . وقد كانت هذه الشهور المقدسة هي الأشهر الحرام ، أي أنّها فترة هدنة إلهية يمتنع فيها القتال في جزيرة العرب بأكملها ، فيتمكن رجال القبائل الذين كان العداء مستحكماً بينهم ، بحيث يتجنّب الواحد منهم الآخر ، من الالتقاء على صفاء . هذا كلّه كان يجعل من هذه الأشهر الحرام الثلاثة وقتاً صالحاً لقيام تبادل تجاري وعقد أسواق للعرب أجمعين .

وكما أن الناس أطلقوا على الإلهة العليا مجرد اسم « الإلهة » ، فإنهم ملوا لكبير الآلهة بدل الأسماء الأخرى اسماً واحداً هو الإله » .

من المحتمل أن أديان التوحيد في البلاد المتحضرة وخاصة المسيحية أثرت ند ، في الزمن السابق للإسلام ، في إضعاف صورة الآلهة الذكور أمام » ، فاضمحلت شخصيتها وتحولت إلى مجرد أسماء للإله الواحد . ولما ـهر النبي (ص) في مكّة كان هُبَل قد مرّ عليه وقت طويل وهو يعتبر ممثلاً لله ، وصارت الكعبة تعتبر « بيت الله » . وعلى كلّ حال فإن النبيّ شهر حرباً ضد الآلهة وضد هُبَل . وقد تصلّب المكّيون في الحفاظ على إلاهاتهم الثلاث ، اللات والعزى ومناة ، اللواتي نظروا إليهن على أنّهن « بنات الله » . ولم تتفق هذه العقيدة مع فكرة التوحيد الخالص التي أعلنها النبي ولذلك شنّ حربه على الإلاهات الثلاث . وأخذ يجادل القرشيين ويقدّم لهم الأدلة والبراهين التي تدحض دعواهم ، وتهدم مزاعمهم مؤكداً أن الله واحد لا شريك له ، وأن هذه التي زعموا أنها

بنات الله ليست إلاّ أصناماً لا تعي شيئاً ولا تستطيع رد الأذى عن نفسها .
(قرآن ٥٣ : ١٩ وما بعدها) .

* * *

وإذا نظرنا إلى الأمر من وجوهه المختلفة ، يبدو لنا وكأن ديانة العرب القدامى قد أخذت في التردي والانهيار في القرون الأخيرة التي سبقت ظهور الإسلام . قد يرجع سبب ذلك ، بالإضافة إلى تناقص الاهتمام العام بالشؤون الدينية ، إلى أن آلهة القبائل العربية لم تكن تتنقل معها ، بل كانت تبقى في أماكنها المقدسة بعد رحيل القبيلة ، على عكس ما عرف عن يهوه الذي كان يتنقل مع القبائل اليهودية حيثما ارتحلت . ولذا فحين تنزح قبيلة ما ، راضية أم مرغمة ، باحثة عن مراع جديدة ، كان من الصعب أن تحتفظ بارتباطها بالمكان المقدس الخاص بها أصلاً ، فكانت الصلة به تنقطع ؛ وأما القبيلة الجديدة التي استقرت في المكان المهجور فلا تهتم بإلهه ، فيصبح نسياً منسياً ، ويهمل معبده ويزول . بهذه الطريقة أُتْلِفَت أماكن مقدسة كثيرة خاصة بسبب هجرات عرب الجنوب الذين تجمعوا في الشمال ، مما أدى إلى فراغ في مجمع الآلهة (البانثيون) العربي .

وقد يكون السبب الرئيسي في انهيار الديانة العربية القديمة هو انتشار المسيحية في بلاد العرب . صحيح أن المسيحية ، بصفتها ديانة حضارية لا تتناسب وأحوال جزيرة العرب البدائية إلاّ أن جاذبيتها في أواخر العصور القديمة كانت قوية لدرجة أن العرب أنفسهم لم يستطيعوا تجنبها ؛ وحيثما كانت تقوم المنافسة بين المسيحية والديانة العربية القديمة كانت هذه نصيبها الخذلان .

وقد كان أتباع المسيحية الأولين ، بطبيعة الحال ، من بين العرب الخاضعين

للدولة الرومية ، وأصبحت بصرى (أسكي شام) مركزهم ، واشتهرت كاتدرائيتها في جزيرة العرب . ولما قامت الخلافات المسيحية حول طبيعة المسيح أخذ المسيحيون العرب ، مثل ما فعل أكثر المسيحيين السوريين ، بمذهب الطبيعة الواحدة . وتمسك أمراء الغساسنة بهذا المعتقد أيضاً ، ودافعوا عنه ضدّ الأرثوذكسية البيزنطية . وقد انتشر المذهب النسطوري للمسيحية بين عرب العراق الذين كانوا تحت نفوذ الملك الفارسي . فإن عرب الحيرة المسيحيين استعاضوا عن ولائهم للقبيلة بالولاء لجماعة المعتقد ، كما فعل الإسلام فيما بعد : وبطلت الإشارة إليهم على أساس الانتماء للقبيلة ، بل إنّهم عرفوا باسم « العباد » أي عباد المسيح . ومما سهل هذا التغيير في الولاء تحول عرب الحيرة إلى الحياة المدنية وضعف وعيهم القبلي ، بعكس الحال عند البدو الذين اعتنقوا المسيحية . وقد وجدت المسيحية طريقها إلى اللخميين ؛ إلاّ أنّ ملوكهم ظلوا في منأى عنها ، ولعلّ الدافع إلى ذلك كان نوعاً من الحذر السياسي مراعاة لساداتهم ملوك فارس . ولم يعتنق المسيحية رسمياً إلاّ آخر ملوك اللخميين ، النعمان الثالث (٥٨٠ — ٦٠٢ تقريباً) ، وذلك بعد أن أصبح أكثر رعاياه مسيحيين .

وقد كان لمسيحية الحيرة تأثير واسع النطاق في جزيرة العرب وخاصة بواسطة الصفوةِ المثقفة من العرب أي الشعراء ذلك بـــأن الحيرة كانت ملتقى للشعر العربي القديم الأمر الذي كان العرب بأجمعهم يتقبلونه راضين . ومن ثم فقد عرفت جزيرة العرب العاداتِ والطقوس المسيحيةَ بواسطة نتاج شعراء الحيرة المسيحيين ومن كانت لهم صلة بها . ورغم ندرة العثور على الروحانية المسيحية في هذا النتاج ، إلاّ أنّنا لن نفتقد صوتاً للتقوى المسيحية ، وخاصة صوت رجاء السعادة الأبدية ، فيما وصفه الشعراء المسيحيون مثل عدي بن زيد الحيري . وإذا نظرنا إلى قضية نشر المسيحية في جزيرة العرب وجدنا

أنّه ثمة فئة كانت أبعد أثراً من شعراء الحيرة ، وهي المكوّنة من عدد لا يستهان به من النساك المسيحيين الذين لم يكونوا دوماً من أتباع أي من المذاهب التي كانت تتمتع بحماية الدول المجاورة . هؤلاء النساك كانوا يخرجون من البلاد الحضارية إلى أرجاء الجزيرة العربية الفسيحة حيث كانوا يبشرون بالإنجيل بين العرب . بوساطة هؤلاء قبل كل شيء ، أتيح للرهبنة المسيحية أن يعرف العرب عامة بوجودها .

لم يكن نتيجة احتكاك العرب بالمسيحية اعتناق أعداد كبيرة منهم لها . إن القبائل المجاورة للبلاد الزراعية فقط ، مثل القبائل العراقية ، هي التي قبلت المسيحية بأجمعها ، بينما لم يعتنقها في الأجزاء الداخلية من جزيرة العرب إلاّ أفراد قلائل انجذبوا إليها شخصياً . ولكن المظهر الأحرى بالاهتمام والذي يمكن اعتباره أهم نتيجة للاحتكاك المذكور ، هو ظهور جماعة من الرجال اسمهم « الحنفاء » . هؤلاء لم يجدوا في الديانة العربية القديمة ما يرضيهم، فمالوا نحو أديان البلاد الحضارية ، وخاصة المسيحية ، أو على كل مالوا نحو توحيد واضح وتقوى قائمة على الاهتمام بيوم الدين ، ولكن دون أن يعتنقوا المسيحية رسمياً ، أي أنهم لم يتعمدوا . فإذا نظر إليهم من وجهة النظر المسيحية فهم ما زالوا وثنيين ، ومن هنا كانت اللفظة الدالة عليهم (حنيفة من السريانة حنپا ، ومعناها الوثني) . ومع ذلك فبالنسبة للعربي الوثني كانوا يمثلون حالة دينية متقدمة . وقد اتصل النبي في حياته بكثير من هؤلاء الحنفاء ، الذين كانوا ينتشرون في شتى أقطار الجزيرة العربية ، ومنهم من كان يقطن مكة كورقة بن نوفل ، وعرف من خلال الوحي أنهم بقايا دين إبراهيم الخليل الذي هو أحد الأديان السماوية وهـــذا ما جعله يدعو دينه الدين الحنيف .

هكذا كانت جزيرة العرب مهيّأة لقبول المسيحية . غير أن نشوء المسيحية

عن وضع متقدم في بلاد حضارية متأثرة خاصة بالهلّينية وروحانيات هذه البلاد ، جعل من الصعب على أبناء الجزيرة العربية البسطاء أن يعوا هذه الديانة. وترتب على ذلك أن المسيحية لم تنتشر في الجزيرة العربية . من الناحية الثانية ، أصبح وضعُ الوثنيةِ العربيةِ القديمةِ مما لا يمكن الدفاع عنه وذلك بسبب احتكاك العرب بالمسيحية . ومن ثم فقد نبتت في الأرض التي كانت قد أعدت للمسيحية نبتة الإسلام العربية وذلك بعد أن قام لها داعية محرك جذاب ، هو النبي المكي . فصار الإسلام الأداة التي تمكن بها العرب من التدخل في تاريخ العالم بفعالية أعطتهم مكاناً في الصف الأول بين الشعوب الكبيرة التي تحكمت في مصير البشرية .

الفصل الثالث

العرب يدخلون التاريخ العالمي

إن العقدين الممتدين من حول ٦١٠ إلى ٦٣٠ م كانا من أكثر الفترات أثراً في تاريخ العالم القديم . فمن الجهة الواحدة غاصت دولتا ذلك الوقت الكبيرتان ، الإمبراطورية البيزنطية والدولة الساسانية ، في بحر من الدماء في أعنف حرب قامت بينهما في مدى تاريخهما الطويل . وفي الوقت ذاته ظهر في زاوية نائية من العالم القديم ، العامل الجديد الذي لم يلبث أن زجّ بنفسه فيه بقوة عاصفة فشطره شطرين وغيّر وجه غرب آسية تغييراً جذرياً ، وأقام إلى جانب الديانتين العالميتين المعروفتين إلى ذلك الوقت : المسيحية ، والبوذية ، ديناً ثالثاً هو الإسلام .

كان الفرس ، بقيادة ملكهم الكبير كسرى الثاني أبرَويز (المنصور) ، قد تمكنوا بين سنتي ٦١٠ و ٦١٦م ، من احتلال جميع الولايات الشرقية التابعة للدولة البيزنطية ، من خلقدونية ، المقابلة لعاصمتها القسطنطينية ، إلى مصر ، وحملوا سنة ٦١٤م الصليب المقدس ، أعزّ المقدسات المسيحية ، من القدس إلى المدائن (كتيسيفون) ، الأمر الذي اعتُبرَ ضربة قاصمة للعالم المسيحي أجمع . ولم يكن ينقص الفرس إلاّ أسطول ليتمكنوا بواسطته من الاستيلاء على العاصمة نفسها . وقد رانَ على العالم المسيحي بأكمله ، وعلى كل من

يتعاطف معه ، يأس قاتل . في هذه الفترة بالذات ظهر محمد بن عبد الله ابن عبد المطلب (ص) نبياً في مكة ، وقد وردت في القرآن الكريم إشارة إلى تلك الحروب العنيفة ﴿ غُلِبَتِ الرّوم في أدْنَى الأرضِ وَهُم مِن بعد غَلَبِهم سَيَغلِبون في بضع سنين ﴾ (٣٠ : ١ — ٣) .

كان من الأفكار الدينية الشائعة في الجزيرة العربية آنئذ أن عقابَ الله الشديد هو على قاب قوسين أو أدنى ، وكان ذلك ثمرة للوعظ والتبشير المسيحي في البلاد يومها ، وقد مهدت الحروبُ المخيفة المستعرة لمثل هذه الأفكار . وكان محمد (ص) قد عاش هذه التجربة ، إلى أن جاءه الوحي الإلهي بأنه مرسل إلى قومه بشيراً ونذيراً . فحذرهم من عبادة الآلهة الزائفة إلى جانب الله الأحدِ ، وأوضح لهم أنّ هذا الإشراك هو الكفرُ بعينه ، وأن ذلك معصية لا يغفر الله لمن يقول بها ، وأن الذي لا يرجع عنها لا بد أن يناله العقاب. وقد كان محمد(ص) لإيمانه بأن الله قد أرسله نبياً ورسولاً ، يرى أن رسالته لا تختلف من حيث محتواها، عما جاء به الأنبياء الذين أرسلهم الله إلى شعوب أُخرى من قبل ، وما سجل في الكتب المقدسة كالتوراة والزبور والإنجيل وغيرها ، مما لم يقرأ منها سطراً واحداً . ومن ثم فقد آمن محمد (ص) بأنه أُرسِل إلى العرب لينقل إليهم الحقيقة المتعلقة بالله الأحد ، وليعرّفهم بإرادة الله .

وقد كانت استجابة أهل مكة لدعوة محمدٍ (ص) ضئيلة . فقد استقبل قومه دعوته بمزيج من الفضول والازدراء ، لكنه لم يلبث أن تبدّل موقفهم فنظروا إليه نظرة الحقد . ذلك بأن محمداً (ص) لم يكتف بأن هاجم وثنيتهم ، بل إنه أخبرهم أن أجدادهم ، الذين ماتوا وهم على الكفر ، في جهنم خالدون . ومعنى هذا أنه باعتبار المفهوم العربي القديم ،أساء إلى قواعد التبجيل التي كان يقوم بموجبها رباط بين أبناء القبيلة الأحياء وبين المتوفين منآبائهم.

وقد تطور حقد المكيين على محمد والفئة القليلة من أتباعه إلى اضطهاد عنيف بحيث إنه لم ينقذه من عواقبه الوخيمة سوى تكتل أقاربه من بني هاشم حوله . وكان من بني هاشم أولُ من آمن برسالته ، وفي الطليعة زوجه خديجة . كانت خديجة أرملة ثرية تتكسّب من الاتجار بأموالها ، وكانت أسنّ منه . وقد يسّرت له حياةً مكّنته من مقارعة خصومه . ومن المؤمنين الأوائل عليٌّ بنُ أبي طالب ، ابن عم الرسول ، الذي ظل يدافع عن النبي طيلة حياته بشجاعته المعروفة . ومع أن عمّ النبي ، أبا طالب بن عبد المطلب، زعيم بني هاشم، يومها لم يؤمن برسالة محمد، فإنه لم يتوان قط في بسط حمايته عليه ضدّ بقيّة قريش . وكان أكثر أتباع محمد من الرقيق والعوام . ومن الأفراد القلائل المنتمين للطبقة العليا الذين آمنوا برسالته كان أبو بكر ، التاجر المكي الثري المرموق المكانة ، الذي كان واحداً من أقدم أصدقاء النبي وأخلصهم ، والذي وضع إمكاناته الوفيرة جميعها في خدمة الرسالة . وكان اعتناق عمر بن الخطاب للإسلام ، وهو من المرموقين من أهل مكة فوزاً ذا أهمية كبرى للنبي . على أن هذا كله لم يكن كافياً لتوطيد مكانة الرسول في مكة . إذ قررت قريش بعد مدة اعتبار بني هاشم ، أهل محمد ، خـــارجين عن قبيلتهم ، أي أنهم عزلوا عن المصلحة الجماعية ، الأمر الذي عرّض وضع أتباع محمد للخطر الشديد. ولما انتقلت خديجة وأبو طالب إلى رحمة الله سنة ٦١٩م (أي قبل الهجرة بثلاث سنوات) ثقل العبء عليه، فأخذ بالبحث عن قوم آخرين في بلاد العرب يتحالف معهم ، ووجد ذلك في أهل يثرب ، الذين سعوا إليه لينتقل إلى مدينتهم .

تقع يثرب في وسط الحجاز بين حرّتين وعند ملتقى عدد من الأودية في أرضٍ خصبة نسبياً . ولم تكن مدينة مغلقةً مثل مكة ، بل كانت على ما يبدو مفتوحةً مكوّنةً من أحياء سكنية متباعدة . وكان يقطنها جماعة من

اليهود وقبيلتان هما الأوس والخزرج اللتان كانتا تعتبران نفسيهما متحدرتين من عرب الجنوب ، كما أنهما كانتا تربطان نسبهما بغساسنة الشام . ولعل المدينة تعود في إنشائها إلى جالية من عرب الجنوب لأنّ يثرب كانت على طريق القوافل بين جنوب الجزيرة وغزة . وكان سكان يثرب ، عبدة الأوثان منهم ويهودهم على السواء من الفلاحين وزارعي النخيل . وكان بناء مجتمعهم يقوم على النظام الأبوي ، كما كان الأمر في مكة ، لا على تدرج في السلطات . إلا أن أهل يثرب لم يكن لهم حافز يدفع عشائرهم لتكوين وحدة جماعية ، كما دفعت المصالح التجارية المشتركة أهل مكة إلى ذلك . ولهذا فإن النزاع القبلي على ما عرفه العرب أتيح له أن يبلغ أشده في يثرب دون أن يعيقه عائق . واتخــذ أعنف الأشكال هناك لأن سكان يثرب الفلاحين لم يمكنهم وضعهم المستقر من تجنب بعضهم البعض كما كان يفعل البدو الرحل حين يشتد النزاع بينهم .

وهكذا وصلت الأمور إلى درجة لا تحتمل من انعدام الأمن ، فانتهى الأمر بالناس إلى عدم تمكن أحدهم الخروج من حمى قبيلته دون أن تتعرض حياته للخطر. ومن ثم فقد كان هناك حاجة في يثرب إلى سلطة تستطيع السيطرة على الأحزاب ؛ ولكن بسبب ما كان بين القبيلتين (الأوس والخزرج) من غيرة وتحاسد لم يكن ثمة سبيل لقيام مثل هذه السلطة من بينهما ، بل كان يجب أن تأتي من الخارج . ولما كان وثنيو يثرب ، بسبب الاختلاط مع جيرانهم اليهود ، قد تعرفوا إلى معـاني دين توحيدي فقد تهيأت عقولهم لقبول رسالة الإسلام، كما أن النبي (ص) رأى في وجود جماعة يهودية في يثرب مما يقوي مركزه . ومن ثم فقد أتاح القيام بالحج إلى مكة الفرصة لعقد اتفاق بين محمد وممثلي الأوس والخزرج، وعلى أساسه هاجر النبي وأصحابه من مكة إلى يثرب في أيلول (سبتمبر) ٦٢٢ . وسميت يثرب إثر ذلك مدينة النبي ثم أصبح اسمها

« المدينة » فقط . هذا الحدث كان ساعة مولد الكيان السياسي للإسلام الذي لم يلبث أن شمل بلاد العرب بأكملها ، ثم اتسع بحيث أصبح الدولة الإسلامية العالمية . وهذا ما يبرر اختيار سنة الهجرة (٦٢٢ م .) نقطة ابتداء للحقبة الإسلامية .

* * *

وكان أول ما فعله محمد (ص) ، بعد أن اختطّ مكاناً خاصاً أي مسجداً لإقامة الصلاة فيه ، هو أن آخى بين « المهاجرين » الذين رافقوه من مكة « والأنصار » أي سكان المدينة من الأوس والخزرج . وهكذا وحّد بين الفئات المختلفة أصلاً،وجعل منها « أمة » واحدة وكتلة متراصة قادرة على العمل المشترك . وسنّ لها شريعة، القصد منها خدمة هذا الهدف بالذات. فقد بيّن فيها أن كل قتل تمّ في الماضي قد عفي عنه ، كما أنه منع أي خصومة داخل الجماعة ، وأعلن أن كل منازعة ينظر فيها أمام الله ورسوله أي في محكمة شرعية . صحيح أنه لم يلغِ الثأر ، ولكنه حصر نطاقه على القتل عمداً ، أي حوّله إلى قصاص وحرّم استمرار الخصومات الدامية . وهكذا أعلن محمد داخل الجماعة سلماً عاماً قائماً على الشريعة الإلهية ، وطلب من الجماعة أن تقف صفاً واحداً ضد كل من يعكر صفو هذا السلم ، حتى لو كان من أقاربهم . وهذا السلم داخل الجماعة كان ضرورياً للاستعداد لسحق العدو الخارجي ، وكما أن الجماعة كان يتوجب عليها أن تكون صفاً واحداً ضد من يعكّر صفو السلم الداخلي ، كان يترتب عليها أيضاً أن تضع جميع إمكانياتها لتُستخدَم في القتال ضد العدو . وتقرير أمر الحرب والسلم كان من حق الجماعة لا الأفراد أو المجموعات المتفرقة . ومع أن محمداً لم يقضِ على النظم القبلية العربية القديمة بطريقة مباشرة ، فإنّه شلّها ، بحيث إنه مع

اتساع الجماعة انتهى الأمر إلى الإستعاضة عن الرباط الدموي برباط الأمة الإسلامية . ومن ذلك الحين لم تعد القبائل المختلفة تقف الواحدة ضد الأخرى ، بل وقف المؤمنون الذين آمنوا بالله واليوم الآخر والذين كانوا يُطيعون رسوله ، أي المسلمون ، في جهة ، وفي الجهة الأخرى كان يقف الكافرون .

من الناحية الدينية وضع محمد أمله في اليهود كأصحاب كتاب سماويّ قديم ، توقع أن يجد فيه ما كان عليه هو أن يعلّمه للعرب ، وكان يتصور أن اليهود سيكونون شهوداً على أنه رسول الله ، وأن يثبتوا ذلك بناء على ما جاء في كتابهم السماوي . وإكراماً لخاطرهم جعل بيت المقدس قبلة المصلين . إلا أنّهم خيّبوا أمله بصورة شائنة ، ولم يفكروا قط بأن يقبلوا برسالته الإلهية على أنها صنو لما كان عندهم . وقد تركت خيبة الأمل هذه في نفس محمد شوكة حادة ؛ فانقلب رضاه عنهم إلى موجدة ، ولم يهدأ له بال حتّى أجلاهم عن المدينة أوّلاً ثم عن بلاد العرب جميعها ، أو قضى عليهم . وقد أصبحت خيبة الأمل هذه عاملاً لتحول جذري في موقفه . بما أن اليهود لم يقبلوا الاعتراف بالشبه بين رسالته وبين ما دُوِّن في كتبهم السماوية ، ولأن محمداً كان مقتنعاً بأنّ رسالته ، مثل رسالة موسى وغيره من الأنبياء الأولين ، تنبع من مصدر واحد هو الله ، فقد انتهى إلى أن اليهود لا بد وأنهم زوّروا هذه الكتب . وإذا ما سلك المسيحيون مثل هذا السبيل فناصبوا رسالته العداء ، فإنّ حكم الإسلام على كتب اليهود ينطبق على كتاب أولئك ، أي الإنجيل ، أيضاً ؛ إلاّ أن محمداً ظل ، طوال حياته ، يبدي الود نحو المسيحية . ويعلن أنه إنّما أُرسل ليؤكد رسالة الأنبياء الأولين وليصححَ ما حرّفه أتباعهم من تعاليمهم . وآمن بأنّه آخر من يحمل الوحي الإلهي باعتبار أنّه « خاتم النبيين » الذي لن يعقبه نبي ، وأن رسالته موجهة للناس كافة . وبهذا ظهرت الدعوة

العالمية للإسلام ، بعد أن كان ينظر إليه وكأنّه موجه إلى العرب فقط . وعلى هذا الأساس لم يعد يرى الإسلام على أنّه مساوٍ للمسيحية أو اليهودية ، بـــل متفوّق عليهما ، وأخذ النبي يدعو إلى دينه على أساس أنه الدين العالمي الذي أمر الله أن يُتبع من قبل الناس كلهم ، وفي شتّى أقطار الأرض .

وقد احتل إبراهيم مركزاً خاصاً بالنسبة لمحمد (ص) من بين أصحاب الوحي الأولين ، إذ إنّه ظهر قبل موسى والمسيح ونزلت رسالته قبل ظهور اليهودية والمسيحية بشكليهما المتميزين . فوصف دين إبراهيم ، وبذلك دين الإسلام ، بالحنيفية ، وهكذا أقام صلة بينهما وبين الحنفاء العرب . ففي الوقت الذي ظهر فيه الإسلام ديناً عالمياً، وتحرر نهائياً من الأديان الموحى بها إلى ذلك الحين ، اتضحت علاقته بالعروبة بشكل واضح .

وقد قويت هذه العلاقة بقول محمد (ص) ان إبراهيم أول من بنى الكعبة، وبأن الطقوس المتعلقة بها كانت في الأصل عبادة لله الواحد ؛ إلاّ أن هذه الطقوس انحرفت فيما بعد إلى عبادة للأوثان ، لمّا ارتد العرب عن التوحيد . وبذلك دخلت الكعبة في نطاق الطقوس الإسلامية ، وفي الحقيقة أصبحت مركزها عندما غير النبي القبلة من القدس إلى مكة، وصار الحج إلى الكعبة واحداً من الفروض الخمسة المتوجب على المسلم الإقرار بها والقيام بها : وهي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقامة الصلاة خمس مرات في اليوم ، وصيام رمضان وإيتاء الزكاة والحج . وبذلك أوجد محمد (ص) هدفاً سياسياً ذا لون ديني ، أي فتح مكة لانتزاع الكعبة من الوثنيين وإعادتها لإقامة شعائر دين الله الخالص . وإلى جانب ذلك وجد هدفاً آخر ، هو كسب بلاد العرب جميعها للأمة الإسلامية . أما نظام هذه الأمة فمن الطبيعي أن يكون حكماً ثيوقراطياً يتزعمه النبي .

وقد برهن محمد ، في محاولته للوصول إلى الهدف الأول ، على أنّه سياسي فذّ ، قادر على الاستفادة من النكسات بأسلوب ذكي . وانتهى الأمر بأن سقطت مكة في رمضان من السنة الثامنة للهجرة (كانون الثاني ــ يناير ٦٣٠م) ثمرة ناضجة ، بحيث إنّه دخلها دون قتال ، وطهّر الكعبة من آثار الوثنية ، وفي السنة التالية (٩هـ/٦٣١م) منع النبي ، عن طريق أبي بكر ، الوثنيين من أداء الحج ،ووجّه إليهم إنذاراً بأنّه سيقاتلهم حتّى يفنيهم إن هم أبوا قبول الإسلام والخضوع للدولة الإسلامية . وفي هذه السنة ، التي تسمى سنة الوفود ، تواجد في المدينة رسل من أجزاء بلاد العرب جمعاء وأعلنوا دخول قبائلهم في دين الله وطاعة الرسول ؛ فإذا كان ثمة متّرددون ، شجعهم النبي على الإسلام بشيء من الضغط. وفي السنة العاشرة (٦٣٢م) أدى النبي فريضة الحج لآخر مرة في موكب احتفالي ، عُرف فيما بعد بحجّة الوداع . فقام بالشعائر في مكة وجبل عرفات بصيغة مطهرة من الوثنية وبذلك ضرب للأجيال التالية المثل في طريقة أداء الحج . وبالاحتفاظ به حمل معه إلى الإسلام جزءاً لا يستهان به من تقاليد العرب القدامى ، وبذلك أصبح الاستعداد لمساندة قضيته أيسر لا على المكيين فحسب ، وهم أصحاب هذه الطقوس ، بل على البقية الباقية من العرب . وفي هذه المناسبة وضع النبي أساساً ثابتاً للتقويم وهو التقويم القمري ، فتكون السنة الإسلامية (الهجرية) بموجبه أقصر من السنة الشمسية بمقدار أربعة عشر يوماً تقريباً . ولم يلبث النبي ، بعد عودته من مكة بوقت قصير أن مرض وانتقل إلى الرفيق الأعلى في ١٢ أو ١٣ (وهو المرجح) ربيع الأول سنة ١١ (في ٧ أو ٨ حزيران ــ يونيو ٦٣٢م) .وكانت وفاته في بيت عائشة بنت أبي بكر أقدم أصفياء الرسول . ولما توفي النبي كانت ثيوقراطية المدينة قد شملت الجزيرة العربية جميعها .

في السنة التي نقل فيها النبي مركزه من مكة إلى المدينة (٦٢٢م) ، قام

الإمبراطور الفارسُ هِرَقل، بعد أن هيأ لذلك بضم قوى الإمبراطورية جميعها، بشن هجوم على الفرس لطردهم من أراضي الولايات الرومية التي احتلوها . وقد كان الصراع عنيفاً فشمل حتى الآفار والترك الذين استنجد بهم كل من الفريقين وقد كان النصر هذه المرّة ، كما توقع النبي (ص) ، حليف البيزنطيين . في سنة ٦هـ/٦٢٨م ضرب هرقل خيامه أمام المدائن (كتيسيفون) عاصمة الإمبراطورية الفارسية، وقبل بالصلح مع الفرس لقاء استرداد الصليب المقدس، وسار بعدها في موكب النصر إلى القسطنطينية . وفي سنة ٨هـ/٦٢٩م قام هِرَقل بالحج إلى القدس ، وفي ١٤ ايلول (سبتمبر) أعاد الصليب إلى مكانه هناك ، العمل الذي يحيي العالم المسيحي ذكراه السنوية في العيد المسمى « رفع الصليب » ، وقد تم هذا قبل فتح النبي لمكة بنحو ربع عام . وقد بدا نظام العالم المسيحي وكأنه قد عاد إلى فتوته بعد أن مرّ به عصر الأزمات . إلاّ أنّ الواقع هو أن قوّة كل من الدولتين الكبيرتين كانت قد وهنت بسبب الحرب الضروس التي استمرت عشرين سنة . ففي بلاد الفرس قتل الملك كسرى الثاني في ٢٩ شباط (فبراير) سنة ٦٢٨م بعد أن هزمه الروم ، مما أدى إلى صراع حول العرش أضر بالإمبراطورية ، وهكذا أصبح العالم المتحضر منهوكاً لا يستطيع الدفاع عن نفسه . في ذلك الوقت كان النبي قد أتم إقامة دولته في المدينة ، وأخضع لإرادته القوى العربية المتنافرة المتفرقة ووحّدها .

* * *

كان الوضع الذي نشأ عن وفاة النبي دقيقاً للغاية، إذ لم يكن قد اتخذ أي من الموجودين للأمر عدته . ومن ثم سادت في المدينة حالة من الحيرة والاضطراب بحيث أنّ جثمان الرسول ظل أياماً دون أن يوارى التراب، وهو أمر غير مألوف في الشرق . وكان السؤال الذي يتردد على ألسنة القوم : ما هو مصير الأمة

الإسلامية ؟ فإن كان لها أن تستمر ولا ينتهي أمرها بوفاة مؤسسها ، فإنه لا بد من أن يتولى زعامتها رجل كان يتمتع بثقة النبي الراحل . ولكن محمداً لم يترك ما يُسترشدُ به في هذا السبيل . كذلك فإن وفاة الرسول كانت خاتمة للوحي الإلهي الذي كان ينقله إلى الأمة . إلاّ أنّ الكنز الذي أُثِرَ عن النبي وتلقته جماعة المؤمنين تفسيراً للوحي ، ما كان له أن يهمل شأنه . وكان مَثَلُ النبي كمؤسس لوجود جماعي شديد الفعالية منبهاً كافياً لعدم ترك الأمور تنساب دون أن تمسك يد بالزمام بقوة . وقد تمّ ذلك بفضل مبادرة عمر بن الخطاب ، أقوى شخصية بين خلصاء محمد ومستشاريه المقربين . وبتدخل عمر ظلت هذه الفئة سيدة الموقف . فبعد زوال الثيوقراطية القائمة على شخصية النبي ، نشأت ثيوقراطية جديدة من نوع آخر — ثيوقراطية بدون نبي ، إلاّ أنها مؤسسة على الوحي وسنة الرسول .

بايع عمرُ أبا بكر أقدمَ أصحاب الرسول وأكثرهم تصديقاً له والرجل الذي اختاره النبي ليؤم الناس في الصلاة أثناء مرضه الأخير خليفة لقيادة الأمة . (وقد أصبح الخليفة يسمى ، بعد مدة قصيرة ، أمير المؤمنين) فعل عمر ذلك في وجه معارضة مختلفة . فقد أبدى الأنصار ، أي أهل المدينة الذين دعوا محمداً للإقامة بينهم ، رغبة في أن يتولوا الإشراف على كيانهم بأنفسهم . وكان ثمة حزب يرى أنّ قيادة الأمة أمر خاص بأسرة الرسول ؛ ولما كان النبي لم يعقب من يخلفه ، فقد كان ، في نظرهم ، علي ، ابن عمه وزوج ابنته فاطمة ، هو مرشحهم باعتباره الأقرب إلى النبي . ولكن نفوذ عمر المنبثق من قوة شخصيته ، لا من منصب رسمي عهد إليه ، تغلب على المقاومات والصعوبات ، وانتهت زعامة الأمة إلى يد أبي بكر الذي حاول ببساطة في بادىء الأمر أن ينفذ الأوامر التي كان محمد (ص) قد أعطاها قبل وفاته .

والآن ظهرت مشكلة ثانية ، كانت أكثر القبائل العربية ترى أن

البيعة التي أدتها للنبي تنتهي بوفاته طبقاً للتقاليد القديمة . وترتب على ذلك ارتداد كثير من القبائل عن الإسلام . وادعى النبوّة عدد من الرجال في أماكن متفرقة ، وحاولوا إنشاء جماعات تتبعهم ، مقلدين محمداً في ذلك . وكان مسيلمة أبعد هؤلاء صيتاً ، وهو من بني حنيفة سكان اليمامة في أواسط جزيرة العرب . ومما يلفت النظر في هذه المحاولات أنّ أيّاً منها لم تقم باسم أي من آلهة العرب القدامى ، بل قامت كلها باسم الله ، وبان التأثير الشديد للمسيحية على هؤلاء المنافسين للنبي . وكان باستطاعة حركة الردة هذه أن تودي بالعمل الذي قام به محمد (ص) ، لو توفرت لها قيادة موحدة ؛ ذلك بأنها كانت تضم أكثرية القبائل العربية ، كما كانت تضم أكثرية الأفراد داخل القبيلة الواحدة . إلاّ أن القبائل تصرفت في القضية تصرفاً عربياً صادقاً – كل لنفسه . يضاف إلى ذلك وجود أقلية واضحة من المسلمين في كل من هذه القبائل ، تتعصب لقيادة المدينة ، وبذلك كان لهذه الفئات القليلة هدف إيجابي واحد ، بعكس ما كانت عليه الأكثرية المتفرقة أهدافاً ، والتي لم يكن يجمع بينها سوى موقفها السلبيّ من الدعوة ، وهذا الوضع يَسّر الأمور للمدينة . فقد بعث أبو بكر بما كان بين يديه من المقاتلين ضد القبائل المرتدة وأعادها إلى حظيرة الطاعة الواحدة بعد الأخرى . وهكذا فقد أُتيح لثيوقراطية المدينة أن تعيد الجزيرة العربية بأكملها إلى سلطتها في مطلع السنة ١٢هـ/ ٦٣٣م .

* * *

لم تكد الدولة تستعيد سيطرتها على النظام حتى أخذ أولو الأمر على عاتقهم تحقيق هدف اختطّه محمد نفسه حين أرسل البعوث إلى ديار الشام : أي توسيع نطاق السيادة الإسلامية خارج الجزيرة العربية. ففي سنة ١٢هـ/٦٣٣م

أُعدّت حملة للسير إلى ديار الشام، وبدىء بالقتال، وعلى مقياس أضيق على الحدود العراقية، الأمر الذي لم يلبث أن انتهى إلى فتح الحيرة، عاصمة بلاد اللخميين، أحلافِ الإمبراطورية الفارسية على يدي خالد بن الوليد. وفي السنة التالية أُرْسلت الحملةُ ضدّ ديار الشام. ومن المحتمل أن عمر كان القوة الدافعة وراء حركات التوسع هذه؛ فإنّه لما توفي أبو بكر في ٢٣ جمادى الثانية ١٣هـ (٢٢ آب – أغسطس ٦٣٤م) خلفه عمر دون معارضة. وقد كانت خلافته، التي دامت عشر سنوات، مليئة بالفتوحات الهائلة التي قام بها العرب المسلمون، وهي فتوح لم يعرف تاريخ العالم مثيلاً لها. لا شك في أنّ الرغبة في تحقيق وصية النبي كانت أحد البواعث على هذه الفتوح، لأن بعوث محمد إلى ديار الشام، وإن لم تكد تتعدى نطاق الاستعداد، إلاّ أنّها كانت كافية لجلب أنظار الرأي العام إلى هذا الهدف. لكن أمراً آخر يمكن اعتباره الباعث الحقيقي على القيام بالفتوح وهو رأب الصدع الذي عاناه الكيان الإسلامي، وذلك بواسطة توحيد العرب وتوجيههم نحو عمل جماعي واحد، وفي نفس الوقت تحويل ميل العرب للخصومات من داخل الأمة، حيث كان يجب أن يسود السلم والشريعة، إلى الخارج. ولم يكن هذا الأمر صعباً لما عرف عن العرب من رغبة في الأسلاب والغنائم.

وقد كان العرب المسلمون أفضل استعداداً من عرب الجاهلية لمثل هذه الفتوحات. ففي المرحلة التي قضاها محمد (ص) في المدينة يقود جماعته سياسياً وحربياً، فرض على كل مؤمن التضامن مع الآخرين والتعاون ضدّ العدو الخارجي وبالتالي فريضة الجهاد، أي القتال والاستشهاد في سبيل الله. فأعلن أن من يموت شهيداً إنما جزاؤه الجنة على نحو ما كان الشهداء المسيحيون الأوّلون ينتظرونها عبر ما يسمونه بمعمودية الدم. هذا

الإيمان الذي كان يعمر قلوب المسلمين نزع من نفوسهم رَهبةَ الموت ، ومنح المقاتلين منهم عزماً وطيداً على شكل لم يستطع البيزنطيون أو الفرس أن يواجهوهم بمثله . وكان هذا الإيمان على أشده بين الأنصار والمهاجرين الذين كانوا تلامذة النبي لسنوات ، والذين أصبحوا الآن نواة الجيوش العربية : فتمكنوا من جلب قبائل البدو التي كانت الغنيمة مطلبها الأول ، إلى القتال معهم ومنعهم من الهرب الذي كانوا يميلون إليه إذا ما اعترضت الصعوبات طريقهم . مما أعطى لهذه النواة قيمة حربية أكبر بكثير مما كان للبدو المتبجحة . ثم إنّ اعتياد العرب النظام ، بسبب إقامتهم الصلاة خمس مرات في اليوم ، كان مما لا يستهان به في رفع القيمة الحربية للجيش الإسلامي . وقد برز من المهاجرين والأنصار وخاصة أرستقراطية مكة ، أمراء حرب يعمل تحت إشرافهم رؤساء القبائل الذين كانوا يقودون قبائلهم أثناء قيام المعارك (وقد كانت القبائل ، في نهاية المطاف ، هي وحدات الجيش الإسلامي) . كان جهاز الجيش ضعيفاً للغاية ، ودون أجهزة الجيوش البيزنطية والفارسية . إلاّ أنّ العرب حملوا معهم إلى ميادين القتال استماتة منتزعة من قوة معنوية بعثها إيمانهم الجديد . أما الدولتان الكبيرتان اللتان كان على العرب أن يقارعوهما ، لم يكن ينقصهما مثل هذا فحسب ، بل إنّهما ، بسبب الحروب المخيفة التي كانت قد دارت رحاها بينهما إلى قبل خمس سنوات فقط من بدء اصطدامهما بالعرب (١٢هـ/ ٦٣٣م) ، لم تكونا قد استردتا قواهما بعد .

* * *

بعد الانتصار الأول للجيوش الإسلامية ضد البيزنطيين في أجنادين (جمادى الأولى أو الثانية ١٣هـ/ تموز ـ يوليو أو آب ـ أغسطس ٦٣٤م)

في شرقي الأردن ، تقدم العرب نحو دمشق التي سلّمت بعد حصار دام سنة كاملة (جمادى الآخرة ١٤/آب ـ أغسطس ٦٣٥م) . وبعد مضي سنة التقى الجيش البيزنطي الرئيسي بقيادة سكيلاريوس تيودورس بالمسلمين في اليرموك ، بعد أن كان هؤلاء قد انسحبوا إلى شرقي الأردن أمام العدد الضخم من جنوده هناك ، وفي ١٢ رجب سنة ١٥هـ (٢٠ آب ـ أغسطس ٦٣٦م) استطاع خالد بن الوليد أن يقضي على الجيش البيزنطي قضاءً تاماً . على أثر ذلك أصبحت ديار الشام بأجمعها مفتوحة أمام المسلمين ؛ فتم الاستيلاء على دمشق وحمص من جديد ، وفي السنة التالية احتُلّت حلب وأنطاكية . وفي مطلع سنة ١٧هـ/٦٣٨م احتل القائد العربي عمرو بن العاص القدس . ورغب عمر بن الخطاب أن يزور في الحال هذه المدينة المقدسة عند المسلمين كما هي عند اليهود والمسيحيين ، فدخلها وتسلمها بنفسه . وقد لفتت البساطة التي دخل بها خليفة النبي العربي، نظر سكان المدينة وقارنوا بينها وبين الموكب الفخم الذي رافق دخول هرقل المدينة حاجاً قبل ذلك بتسع سنوات فقط . بعد فتح فلسطين جاء فتح مصر على يد عمرو بن العاص الذي انتصر في هليوبوليس (رجب سنة ١٩هـ/تموز ـ يوليو ٦٤٠م) وانتقل بعدها إلى حصار حصن باب اليون . الذي وقف في وجه تقدم المسلمين في وادي النيل ، فاستولى عليه في جمادى الأولى سنة ٢٠هـ/ نيسان ـ إبريل ٦٤١م . وقد أقيمت في جوار هذا الحصن ، حيث يوجد قصر الشمع الآن ، الفسطاط كمعسكر للجيش العربي ، وهي التي أصبحت مع الوقت عاصمة جديدة لمصر ، وذلك على حساب ممفيس العاصمة القديمة التي كانت تقع على الضفة اليسرى للنيل . وقد عقدت معاهدة بين عمرو بن العاص وبطريق الإسكندرية كيروس ، تم بموجبها إخلاء المدينة من البيزنطيين ونزول المسلمين فيها سنة ٢١هـ/٦٤٢م .

وقد تابع المسلمون احتلال العراق في نفس الوقت الذي جرى فيه احتلال ديار الشام . كان النزاع على العرش في بلاد الفرس قد أودى بحياة أكثر رجال البيت المالك ، فتضايق القوم من الوضع ، ونصبوا سنة ٦٣٣ آخر رجل من هذا البيت وهو يزدجرد الثالث البالغ من العمر إحدى وعشرين سنة ، ملكاً في المدائن (كتيسيفون) . وقد تمكن من دفع عادية جنود العرب المحليين الذين كانوا يشنون الغارات على البلاد من الحيرة التي كانوا قد احتلوها واتخذوها قاعدة لعملياتهم العسكرية . إلا أنه لما التحم الفرس بالعرب في معركة البويب (١٤هـ/٦٣٥م) على مقربة من الحيرة انهزم الأولون . وعندها أخذ كل من الفريقين بالاستعداد على نطاق واسع. فجمع الفرس جيشاً كبيراً كان عليه أن يدرأ خطر العرب . وكذلك جمع العرب جيشاً كبيراً مكوّناً من جميع القبائل وقادوه إلى معسكر يقع عند ملتقى دجلة بالفرات ، حيث عمرت البصرة فيما بعد . وفيما كان الجيش الفارسي بقيادة رستم يركّز جنوده حول المدائن ، بعث الخليفة بأحد صحابة النبي ، سعد بن أبي وقاص، إلى الجبهة العراقية وعهد إليه بقيادة كافة القوى المقاتلة هناك . وفي سنة ١٦هـ/٦٣٧م وقعت بين الفريقين معركة القادسية على مقربة من الحيرة ، التي انتهت ، بعد ثلاثة أيام من القتال ، بنصر ساحق للعرب على القوى الفارسية ، وقد سقط رستم صريعاً في المعركة ووقعت الراية الفارسية المسماة درفش كاوياني بيد العرب . وبذلك انفتحت أمام العرب طريق العراق الذي لم يلبثوا أن ملكوه ، وحتى المدائن لم يتمكن الفرس من الاحتفاظ بها ، فانتقل البلاط والحكومة إلى حلوان في جبال زغروس ، وسقطت العاصمة بأيدي العرب . وعبثاً حاول يزدجرد أن يستعيد العراق بقوات جديدة فإنها انكسرت في جلُولاء . ولضمان امتلاك العراق مصّر العرب الكوفة (سنة ١٧هـ/٦٣٨م) على مقربة من الحيرة ،

واتخذوها مركزاً لحكومة الولاية المفتوحة ، وعيّن سعد أول والٍ عربي عليها. ومن العراق وديار الشام قامت الحملات لفتح بلاد ما بين النهرين ، ففتحت الموصل (٢٠هـ/٦٤١م) ووصلت إلى أرمينية وأذَرْبَيْجان . وفي الجهة الأخرى دخل العرب إيران فاجتازوا سلسلة جبال زغروس حيث استولوا على حلوان (١٩هـ/٦٤٠م) ثم ساروا إلى خوزستان (الأهواز) ، وهي عيلام القديمة ، فسقطت تُسْتَر في أيديهم (٢١هـ/٦٤٢م) . وسعى يزدجرد إلى جمع جيش من جديد ، إلاّ أن هذا الجيش هزم هزيمة منكرة في نفس السنة تقريباً ، في معركة نهاوند ، على مقربة من هَمَدان . وبذلك تقرر مصير إيران . أما الفتوح التي تلت ذلك (همدان وإصفهان ٢٣هـ/٦٤٤م وإصطخر ٢٨هـ/٦٤٩م ، وهي برسيبوليس القديمة) فقد توقف مداها على جهود القوات العربية من جانب ، والتي تضاءلت بعد مقتل عمر بن الخطاب (٢٣هـ/٦٤٤م) ، وعلى مقدار المقاومة المحلية من جانب آخر . فلم يكن ثمة في الميدان جيش فارسي فعال . وبدأ عبد الله بن عامر فتح خراسان سنة ٣٠هـ/٦٥٠م – ٦٥١م، وبوضع اليد عليها تمّ استيلاء المسلمين على كل الإمبراطورية الفارسية . وأرغم يزدجرد الثالث ، آخر الملوك العظام من آل ساسان ، على الهرب ؛ وقد اغتيل أثناء فراره سنة ٣٠هـ/٦٥١ م.

* * *

كان يتوجب على العرب ، بعد هذه الفتوح الضخمة ، أن يوجدوا تنظيماً حكومياً عملياً ، إذا هم أرادوا الإبقاء على البلاد المفتوحة . وإلى عمر بن الخطاب يعود الفضل في وضع الأسس التي بنت عليها الأجيال القادمة . وقد ظلت الدولة الإسلامية قائمة على المبادىء الثيوقراطية : فقد كان الله سيّد الدولة الحقيقي ، يحكمها نيابة عنه أمير المؤمنين ، على أنّه

خليفة رسول الله ؛ وقد استعملت لأجهزة الدولة تعابيرُ مرتبطة بالله ، فأطلق على الخزينة « مال الله » . وترتب على ذلك أن المسلمين وحدهم حملوا عبء الحكم ؛ أما غير المسلمين فقد كانوا تحت حمايتهم ، التي كانوا يضمنونها مقابل دفع الجزية . ولم يُطلب من المسلمين إلاّ أن يدفعوا « الزكاة » حسب الشريعة الإسلامية . ومن ثم فلم يجبر المسلمون أحداً من أهل البلاد المفتوحة أن يعتنق الإسلام فتركوا لهم دينهم ، ولم يتدخلوا في شؤونهم الداخلية ، واحتفظوا لهم برؤسائهم الدينيين . فظل للمسيحيين أساقفتهم ولليهود أحبارهم وللزرادشتية دهاقينهم ؛ وكان هؤلاء مسؤولين أمام الحكومة الإسلامية عن سلوك أتباعهم وولائهم ، وعن دفع الجزية في موعدها .

أما العرب فلم تترك الدولة لهم الخيار في الدين . ففي جزيرة العرب لم تسمح لغير دين محمد (ص) بالبقاء هناك . ومن ثم فقد أخرج عمر من تبقى من اليهود في شمال الجزيرة إلى ديار الشام ؛ أما يهود الجنوب فلم يخرجوا بل ظلّوا هناك إلى العصور الحديثة . وحتى مسيحيو نجران ، الذين كان النبي قد سمح لهم بحرية ممارسة طقوسهم ، أجلاهم عمر إلى العراق، حيث امتزجوا فيما بعد بالسكان المسلمين . وقد قبل النصارى من عرب الشام والعراق الإسلام بدون صعوبة ؛ ذلك بأنه لم يكد يفرقهم عنه ، من الناحية العملية ، إلاّ الطلاء المسيحي الخفيف . وكانت قبيلة تغلب الوحيدة التي حافظت على مسيحيتها لقاء دفع جزية مضاعفة . يتضح من هذه التدابير أن جيل صحابة الرسول كان يجد صعوبة في التفريق بين مفهومي الإسلام والعروبة ، وينظر إلى الإسلام على أنه دين قومي ، بالرغم من أنه كان يتجه عملياً نحو صيرورته ديناً عالمياً ، الأمر الذي كان قد بدأ في أيام محمد (ص) . ففي اعتبار هذا الجيل ، كان العرب هم المقصودون بالإسلام ، وهم المواطنون

الأصيلون للثيوقراطية . لدرجة أنّه يتوجب على غير العربي ، الذي يعتنق الإسلام ، أن يلتحق بقبيلة عربية ما كمولى لها . أما النزعة التي كانت كامنة يومها وهي أن يصبح الإسلام ديناً عالمياً ، فلم تؤخذ بعين الجد ولم يعنَ بها إلاّ في زمن لاحق .

وكانت إدارة الدولة عسكرية صرفة . فأمير الجيش كان في الوقت نفسه عاملاً على البلد الذي فتحته قوّاته . وكان إلى ذلك المسؤول عن الشؤون ، الدينية ، أي أنه كان الإمام ، الذي يَؤمُّ المسلمين في الصلاة ، ويخطب فيهم يوم الجمعة . وكان أيضاً القاضي الذي يتولى إقامة العدل في جيشه . أما تعيين رجال في مناصب الإمامة والخطبة والقضاء فقد جاء متأخراً ، بعد تمثل الأوضاع التي كانت سائدة في المناطق الحضارية من البلاد المفتوحة . وكذلك عيّن عامل إلى جانب الأمير مهمته جمع الضرائب وإدارتها ، الأمر الذي لم يكن الأمراء ينظرون إليه بعين الرضى في الغالب .

كان الأساس الذي تفرض بمقتضاه الضريبة على الناس ، والقاعدة التي يعين بموجبها مركزهم في الدولة ، هو النظام العربي القديم في تقسيم الغنائم معدلاً حسب ما جاء في القرآن . وطبقاً لذلك كان ثمة فرق بين المدن المفتوحة صلحاً أو المأخوذة عنوة . ففي الحالة الأولى كان السكان يحتفظون بحياتهم وحريتهم وأموالهم ، إلاّ أنّه كان عليهم أن يدفعوا ضريبة لقاء الإبقاء عليهم والدفاع عنهم ، ومقدار هذه الضريبة يعينه كتاب الصلح . أما في الحالة الثانية فإنهم يقعون تحت أحكام الحرب ، فيفقدون حقوقهم جميعها ، ويصبحون ، وكل ما يملكون ، غنيمة للفاتح . كان خمس ما يقع في أيدي المنتصرين فيئاً للرسول من قبل، فأصبح الآن حصّة بيت المال . أما ما تبقى فقد كان يقسم بين المحاربين الذين تم الفتح على أيديهم حسب ما جاء في القرآن ، وقد استّن عمر جديداً في هذا الأمر ، إذ فرّق بين الغنيمة من الأموال

المنقولة والأسرى ، وبين الغنيمة التي تظل في الأرض مثل السكان وأموالهم . فالأولى كانت توزع على المقاتلين كما في الماضي ، أما الثانية فلا ، بل كانت الحكومة تصادرها ، وتُبقي ملاّكها الأصليين عاملين فيها على أن يدفعوا الخراج المترتب عليها . وفي الواقع تقارب الأمر بالنسبة للمغلوبين ، سواء أكان الفتح صلحاً أم عنوة . وما كان يجنى من الأرباح من هذه الإتاوات لم يكن يوزع كله على المقاتلين ، بل إنهم ، وورثتهم من بعدهم ، قُدِّر لهم عطاء معين . وما تبقى يحتفظ به في بيت المال . وهكذا فقد وضعت الدولة نفسها بين الجيش والمغلوبين لتحفظ قدرتهم على دفع ما عليهم من ضريبة . فبالتنازل عن نظام الغنائم القديم ، خلق الفاتحون قاعدة مالية لدولتهم . ومن ثمّ فإن الذي تبدل بالنسبة للفلاحين من السكان هو السيادة فقط . وفي حالات كثيرة كانت ضغوط السيادة الحديثة أقلّ من القديمة . وكانت السلطات الدينية التقليدية ، التي تمتّعت بحماية الحكومة في ظل الدولتين البيزنطية والفارسية ، تسيطر على الفئات المحلية من المسيحيين والزرادشتية سيطرة مكروهة . وبقدوم الإسلام سقطت هذه السيطرة مما جعل تلك الفئات ترحب بالسادة الجدد .

كان للفتوح العربية الضخمة ، بالنسبة إلى جزيرة العرب وإلى العروبة نتائج تحكمت في مستقبلها . فالعرب الذين أسهموا في الفتوح ، استقروا مع أهلهم ومواشيهم في الأمصار الجديدة ، مثل الكوفة والبصرة والفسطاط ، وفي دمشق أيضاً . وهذا الانتقال إلى الأماكن التي ظهرت فيها فعالية الإسلام على أشدها كان شبيهاً بهجرة الرسول والمهاجرين من مكة إلى المدينة . حتى أن هؤلاء المقاتلين عرفوا « بالمهاجرين » أيضاً . وقد نشأ عن ذلك إخلاء الجزيرة من سكانها بشكل ملحوظ ، وما أكثر الشعراء العرب ، من أهل تلك الأيام الذين ندبوا هذا المصير ؛ فحيث كان يكتظ السكان قبلاً ، لم يعد يرى المرء

سوى عجّز ونساء وأطفال يُعنَون بما تبقى من المواشي . وهكذا فإن المجال العربي اتسع كثيراً بسبب الفتوح ، فتكون عالم عربي يجتاز حدود الجزيرة إلى البلاد المتاخمة . إلاّ أنّه في الوقت ذاته أخذ مركز ثقل العروبة ومسرح تاريخها الرئيسي يتحركان إلى خارج الجزيرة العربية الذي أخذ يطغى عليها بحر النسيان التاريخي الذي كانت تعيش فيه قبلاً ، وأصبح تاريخ العرب يصنع في خارجها . وقد بدأ هذا التطور ، على نحو ما سنرى ، في عصر صحابة الرسول .

وقد كان من نتائج استيطان المقاتلة في الأمصار أن تجمعت القبائل على نمط جديد . ظلّ التنظيم القبلي العربي على حاله في هذه الأمصار طيلة القرن الأول على الأقل لأنه كان أساس التنظيم العسكري . غير أن القبائل لم تستقر بكاملها في الأمصار بل كان يحدث أن يتواجد أفراد القبيلة الواحدة في أمصار مختلفة بصرف النظر عن الذين بقوا في موطنهم الأصلي . وفي مجال المصر الضيق وبسبب احتكاك أقسام القبائل المختلفة بعضها ببعض ، خاف أفراد القبيلة الواحدة من ضياع كيانهم فأخذوا يهتمون بتقوية الأواصر مع فئات من قبائل أخرى يربط بينها وبينهم النسب . وهكذا فقد اتخذت التكتلات القبلية ، التي كانت الأنساب تشير إليها ، دلالة عظيمة ، بعد أن لم يكن لها في الأحوال العادية في الجزيرة إلاّ وزن قليل ، وشجع هذا التطور فيما بعد على قيام العصبيات المفسدة .

يعود إلى الخليفة عمر بن الخطاب الفضل بإدخال التقويم الإسلامي الذي بدأت حقبته باليوم الأول من سنة هجرة الرسول من مكة إلى المدينة ويوافق هذا اليوم الخميس ١٥ أو الجمعة ١٦ من شهر تموز – يوليو سنة ٩٣٣ من التقويم السلّوقي أو سنة ٦٢٢ للميلاد (التقويم اليولياني) ؛ ولم يتم اتفاق حول أي اليومين هو الصحيح . (كان الأتراك العثمانيون يتخذون ١٥ تموز اليوم الأول لتقويمهم) .

* * *

في ١٦ محرم سنة ٢٤هـ/ ٢٣ تشرين الثاني – نوفمبر ٦٤٤م تقدم عبد فارسي من عمر بن الخطاب الذي كان قد رفض له شكوى ، فطعنه طعنة قاتلة . وطلب عمر وهو على فراش الموت ، من عبد الرحمن بن عوف ، أسنّ أصحاب رسول الله الأحياء ، أن يخلفه في منصبه ، لكن هذا لم يقبل تحمل مثل هذه المسؤولية . لذلك سمى عمر ستة من أفاضل الصحابة وعهد إليهم أن يختاروا خليفة من بينهم وهم : عبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب ، وسعد بن أبي وقاص بطل القادسية ، وطلحة ابن عبيد الله، والزبير بن العوام . وإذ لم يرغب هؤلاء في أن يتولى أمورهم رجل قوي مثل عمر ، اختاروا أضعفهم ، وهو عثمان بن عفان ، زوج رقية بنت الرسول . وكان من بني أمية ، أجلّ الأسر السائدة في مكة . ولم يكن لعثمان فعّالية عمر ، فخفت شدة الفتوح في عهده ، ولم تلبث أن اقتصرت على إتمام ما كان عمر قد بدأ به ، مما أدّى إلى هدوء الأحوال نسبياً .

* * *

وقد روى المؤرخون المسلمون أن عثمان جمع القرآن ودوّنه ، الأمر الذي لم يقم به النبي في حياته . ولم يكن في واقع الأمر في الأجواء التي كانت سائدة يومها ما ييسر له ذلك . ومع أن الكتابة كانت معروفة ومستعملة في مكة وغيرها من مدن الجزيرة ، ومع أن الرسول نفسه كان يستخدم كُتّاباً بانتظام في المدينة ، فإن اللجوء إلى التدوين لم يكن جزءاً من الحياة الثقافية العامة . وقد كان الشعر ينقل رواية ويحفظ في صدور الرواة فقط . وهكذا كانت آيات القرآن يحفظها الرواة ؛ ويبدو أن محمداً (ص) لم يدر بخلده أن يدون القرآن . ومع ذلك ، فقد دوّنت بعض أجزاء منه حسب ما ذكر بعض المؤرخين . لكن هذه المحاولات كانت ذات صفة خاصة وكان المقصود منها أن تعين

على التذكر ؛ ولم يكن الناس يعتبرون القطع المكتوبة على أنها وثائق .

وقد قيل إن عمر بن الخطاب كان أول من اهتم بتدوين القرآن ، وذلك في حياة أبي بكر ، فعهد إلى زيد بن ثابت ، كاتب النبي بمهمة جمع القرآن وإعداد نسخة منه . وقد تم ذلك، واحتفظ عمر بهذه النسخة في عهدته الخاصة، ثم انتقلت بعد وفاته إلى ابنته حَفْصة إحدى زوجات الرسول . ويبدو أن أفراداً آخرين كانوا يملكون مجموعات مكتوبة من القرآن على هذا المثل . وقد قيل إن عثمان أخذ على عاتقه تهيئة نسخة رسمية من القرآن ، بعد أن تعالت الشكاوى بوجود صيغ متباينة منه . الأمر الذي أثار قلق المسلمين . فعهد إلى لجنة كان من أعضائها زيد بن ثابت المذكور القيام بذلك . واتخذت اللجنة المخطوطة التي كانت تملكها حفصة أساساً للعمل . وأعدت من النسخة الجديدة خمس نسخ حفظت في الأمصار الخمسة : مكة والمدينة والكوفة والبصرة ودمشق ، واعتبرت هذه النسخ الوحيدة التي يجوز الاعتماد عليها ، وحُرقت أية نسخ أخرى متداولة . وبذلك أصبح مصحف عثمان هو المصحف المقبول والمعترف به . ويمكن القول إن هذه الروايات تحمل نواة لحقيقة تاريخية؛ فالواقع أن مصحفاً واحداً هو المقبول في ربوع العالم الإسلامي أجمع ، فيما يختص بالمحتوى وبترتيب السور وتفاصيل الآيات ، ولذا يستطيع المرء أن يتحدث عن نص واحد معترف به . فإن مصاحف عثمان، إن وجدت، لم تكن لها الأهمية من حيث المبدأ كتلك التي أعطاها المسيحيون لبعض نسخ الكتاب المقدس . فالقرآن لم يدرسه المسلمون على أساس النسخ المخطوطة . بل تناقلوه شفوياً ؛ وحتى فيما بعد لم يرجع العلماء إلى المخطوطات . بل اعتمدوا على ما كان يحفظه حفّاظ القرآن في صدورهم ، على أساس الرواية الشفوية التي كان عليهم أن يثبتوا إسنادها . وأصبحت التسمية بالحافظ لقباً يفتخر به . وبهذه الطريقة وصلنا العديد من القراءات العائدة إلى قراء من

الصحابة معترف بهم ، دون أن يؤثر ذلك على وحدة القرآن . وقد كللت جهود عثمان في توحيد نص القرآن بنجاح شبه تام .

* * *

كان عمل عثمان في جمع القرآن ، على ما تقول به الرواية التاريخية ، الشيء الوحيد الحسن الذي قام به . فيما عدا ذلك ينظر إلى عهده على أنه بدء عهد الخلاف بين الجماعة الإسلامية . وفي نظر الأتقياء من المسلمين فإنه بموت عمر انتهت فترة سيادة السلطة المستندة كلية إلى قانون الله الخالص ، وبدأ عصر الفتنة الناشئة عن المنازعات البشرية حول السلطة والسيطرة في الدولة الإسلامية التي كان يجب أن يسود فيها السلم الإلهي . وبذلك أخذت الجماعة الإسلامية المتماسكة تنقسم إلى شيع . وبالنسبة للمؤرخين الغربيين تنتهي بهذا فترة القوة الصرفة للإسلام العربي ، التي كانت تنبع من شخصيات قوية مثل النبي نفسه وعمر بن الخطاب ، والتي مكنت العرب من التدخل الفعال في تاريخ العالم . كانت نتيجة هذا كله قيام دولة عربية عالمية ضمت إليها ، بالإضافة إلى مهد العرب ، ولايات مهمة من ولايات الإمبراطورية البيزنطية مثل ديار الشام ومصر والإمبراطورية الفارسية بكاملها . هذه الدولة العربية كانت إمبراطورية شرقية عالمية لم يعرف العالم لها مثيلاً منذ أيام ملوك الفرس الأوائل والإسكندر الكبير . وبمقارنتها بإمبراطورية قورش الفارسي لم ينقص دولة العرب الجديدة إلا آسيا الصغرى التي ظلت قروناً متلاحقة ولاية بيزنطية . كان يعوض هذا النقصان سيطرتهم على جزيرة العرب أي المهد العربي نفسه . وبإنشاء هذه الإمبراطورية دخل العرب المسرح العالمي ، شعباً جديداً صانعاً للتاريخ ، وحاملاً ، في الوقت ذاته ، إيماناً دينياً جديداً أثبت ، منذ الخطوة الأولى ، خطورته التاريخية . وتلا ذلك زمن ، أتاح التاريخ فيه للعرب فرصتهم ليثبتوا مقدرتهم

في المحافظة على إدارة هذه الإمبراطورية الواسعة التي بنوها . وكانت هيمنة أسرة من أشراف مكة على مقاليد الحكم منذ تولي عثمان بن عفان الخلافة إيذاناً ببداية ذلك الزمن : بنو أمية .

الفصل الرابع

إمبراطورية الأمويين العربية

كانت خلافة عثمان ، في الحقيقة ، بداية لسيادة بني أمية على الدولة العربية . فقد كان عثمان واقعاً تحت نفوذ عشيرته ، فولّى أقاربه المناصب الكبيرة في الدولة : اتخذ ابن عمه مروان بن الحكم كاتباً له ، وولّى معاوية ابن أبي سفيان ، وهو ابن عم آخر ، ديار الشام ، وعزل عمرو بن العاص فاتح مصر الشهير ، مع أنه كان أموياً، وعين أخاه في الرضاعة، عبد الله بن أبي السرح ، والياً على مصر . وقد أثارت هذه الأعمال نقمة قوية في المدينة بين أصحاب رسول الله . ذلك أن بني أمية ، وهم من أجلّ عشائر مكة ، كان موقفهم من الإسلام ، حتى النهاية ، موقف الخصوم — باستثناء عثمان الذي كان قد اعتنق الإسلام من قبل . فإذا كان أبو سفيان والد معاوية ، قد اتخذ لنفسه مركزاً مشابهاً لمركز دوج البندقية ، أي مركز السيادة كأمر واقع وليس بصفة قانونية ، وكان رمز المقاومة المكّية ضد النبيّ ، ولم يسلم إلاّ قبل دخول النبي (ص) مكة بقليل ، إذ لم يعد له مجال للاختيار ، فكيف تتحكم الآن عشيرته في صحابة الرسول الذين أسهموا معه في جميع مراحل الجهاد في سبيل دعوته، والذين نصروه نصراً أدى إلى نجاحه ؟ أصبح محور المعارضة لعثمان وجماعته في المدينة ثلاثة من الذين كانوا قد اختاروه

خليفة : علي وطلحة والزبير ؛ أما الآخران ، فقد توفي عبد الرحمن ابن عوف قبل عثمان ، ولم يكن لسعد بن أبي وقاص مطمع سياسي شخصي، وانضم إلى خصوم عثمان عمرو بن العاص ، والي مصر المعزول. وربط هؤلاء أنفسهم بعائشة زوج الرسول وبنت أبي بكر ، التي كانت تُتْقِن فنون السياسة . وبما أنّه لم يكن من المتيسّر لكبار المحرضين أن يقوموا ضدّ عثمان وجماعته في المدينة ، كتبوا إلى الأمصار وأثاروا نقمة الجند على الخليفة . وبذلك خطوا الخطوة الأولى لتحويل مجرى التاريخ الإسلامي من داخل الجزيرة العربية إلى خارجها . وكان لهذه الدراما التاريخية أن تمثل على أرض الجزيرة أيضاً ولكن باشتراك ممثلين أتوا من الولايات المفتوحة .

كانت سياسة الخليفة في عدم توزيع الأراضي التي غنمها المسلمون قد أثارت نقمة بين الجند استفاد منها المحرضون . وكان باستطاعة شخصية قويّة مثل عمر بن الخطاب أن تتخلى عن نظام الغنيمة العربي القديم ؛ لكن القوم أخذوا بالتذمر من هذا الإجراء في عهد خلفه الضعيف .

كانت الحامية المصرية أول من استجاب إلى دعوة المحرضين الثلاثة . ففي سنة ٣٦هـ/٦٥٦م انتقل خمسمائة من عرب مصر إلى المدينة للإسهام في قتال ضدّ عدو داخلي معتبرين ذلك تنفيذاً لإرادة الله . وقد نجح عثمان بادىء الأمر في إقناعهم بالعودة إلى ديارهم . إلا أنّ تعبيراً غير موفق أبداه الخليفة في خطبة الجمعة التي تلت ذلك أحنقهم ، فعادوا أدراجهم وانضموا إلى المتذمّرين في المدينة ، وحاصروا عثمان في داره . وأخيراً اقتحموا دار الخليفة وقتلوه وهو مستغرق في الصلاة (١٦ ذو الحجّة ٣٥هـ/١٧ حزيران — يونيو ٦٥٦م) . مثل هذا العمل — أن يَقْتُلَ مسلمون الخليفة الشرعي لرسول الله ، والقائم على رأس الأمّة الإسلامية كان أمراً خطيراً

لم يسمع به . كانت نتيجته تفرق الجماعة المسلمة إلى فرق متعادية .

وقع الاختيار على علي بن أبي طالب ليتولى الخلافة على أنه أبرز صحابة رسول الله الأحياء غير منازع . إلاّ أنّ منافسيه ، طلحة ، والزبير ، سرعان ما أدارا له ظهر المجنّ وحمّلاه مسؤولية مقتل عثمان . وقد ثقل على علي أن يُحَمَّل نتيجة عمل مشؤوم مثل هذا وحده ، فإذا كان هو ملوماً فهما لا يقلاّن عنه لوماً . ولحق طلحة والزبير بعائشة التي كانت قد ذهبت إلى مكة قبل انتهاء أمر عثمان ، لتكون بعيدة عن الجو . إلاّ أن عائشة ، التي كانت خصماً عنيفاً لعثمان ، أخذت الآن تطالب بالثأر له . ولما لم تكن مكة بطاقاتها المحدودة تصلح كقاعدة لعمل الثلاثة ضدّ المدينة ، انتقلوا إلى البَصْرة ، حيث كانت لهم صلات ؛ واستولوا عليها . ورأى علي من جانبه أن لا مجال له للبقاء في المدينة فقصد الكوفة ، حيث كان أحدُ رجاله ، مالك الأشتر ، قد هيأ الجو الملائم له . ومن الكوفة خرج علي إلى خصومه ، والتقى بهم على مقربة من البصرة وكسرهم في معركة الجمل (١٧ جمادى الآخرة ٣٦هـ/ ٩ كانون الأول — ديسمبر ٦٥٦م) . فسقط طلحة والزبير قتيلين . أما عائشة ، وقد انتهى دورها ، انسحبت من الحياة السياسية العامة . وبانتقال الفريقين المتنازعين من مكة والمدينة إلى البصرة والكوفة ، تحول مسرح التاريخ العربي من جزيرة العرب إلى البلدان المتحضرة في العالم القديم التي فتحها المسلمون ، وبقي هناك منذ ذلك الوقت .

أراد علي ، بعد أن اختار الكوفة مقراً له تثبيت خلافته في بقية الولايات . ولكن معاوية ، الذي كان عثمان قد ولاه إمارة الشام ، أبى أن يخضع له . كانت ديار الشام يقطنها سكان من العرب قد اعتادوا الانتظام في الدولة والطاعة لها أيام الروم ، فمكّن معاوية لنفسه فيها ، وأنشأ جيشاً محليّاً ما كان يرغب في التخلّي عنه لعلي ، الذي يعتبره مغتصباً للخلافة

لاستفادته من مقتل عثمان . لذلك نادى هو أيضاً بالثأر لعثمان ، وكان بحكم كونه أموياً أحق بالمطالبة بدمه من الجماعة التي التفت حول عائشة .

قاد علي الآن جيشه ضدّ معاوية . والتقى الجمعان في سهل صِفّين على شاطىء الفرات الغربي على مقربة من الرَّقّة ، ودارت المعركة يومين (٧ و ٨ صفر ٣٧هـ/٢٦ و ٢٧ تموز – يوليو ٦٥٧م) . وقد كان علي على قاب قوسين أو أدنى من النصر بسبب البسالة التي أظهرها مالك الأشتر . عندها رفع الجيش الشامي المصاحف على رؤوس الرماح ، إشارة إلى أنّ القتال فيما بين المسلمين غير جائز ، وإلى أنهم يطلبون تحكيم كتاب الله . أدركت جماعة علي الإشارة وأجبروه على وقف القتال ، حين كاد النصر يتحقق له . واتفق الفريقان على توكيل لجنة تحكم بين المتخاصمين وتقرر أيهما أحق بأن يتولى الخلافة ، على أن يكون تقرير الأمر نزولاً على حكم القرآن . وقد أدّى السير في هذه الوجهة إلى انقسام في جيش علي . فاحتَجَّ فريق من أتباعه على ذلك ، متهمين إياه بأنه سلم راضياً قضية الخلافة إلى تعسف فئة من الناس ، بَدَلَ أن يكلها إلى حكم الله . وقد خرج هؤلاء على عليّ ولم يرجعوا معه إلى الكوفة ، واستقروا في موضع يقال له حَرُوراء ، على مقربة من الكوفة . وكان شعارهم «لا حكم إلا لله» . وهم الذين أطلِقَ عليهم اسم الخوارج أو الحَرُوريّة .

أطلق الخوارج بموقفهم من الخلافة عقال معضلة كامنة ، أوقع البحث عن حل لها الجماعة الإسلامية في صراعات داخلية . ذلك أن الإسلام تضمن مطلبين أساسيين يغاير أحدهما الآخر . فمن جهة كان محمد قد دعا إلى السلم الإلهي داخل الجماعة التي أنشأها – فعلى المسلمين أن يقاتلوا الكفار أعداءهم ، لكن لا قتال فيما بينهم . ومن الجهة الأخرى فلم يكن يكفي أن يتقبّل المسلم روح الإسلام فقط ، أي أن يعمل الخير ويتجنب الشر ،

بل يتوجب عليه كذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالنسبة لغيره ، بمعنى أن يمكّن للخير من تحقيق نفسه بشكل فعّال . وإذا اصطدم المطلبان كما حدث في النزاع حول الخلافة أعطى الخوارج الأفضلية لتنفيذ المطلب الثاني . وكانوا لا يتردّدون في ذلك لأنهم كانوا يساوون بين الكبيرة والكفر، ومُجتَرحُ الكبيرة كان مكانه ، في نظرهم ، خارجَ الجماعة الإسلامية ، ويجب أن يعامل كالكافر ؛ وكان الخوارج يعتبرون أنفسهم أنهم وحدهم المسلمون . وإذا رماهم الغيرُ بأنهم ، يمزقون بموقفهم الجماعة الإسلامية ، لم يكونوا يرون أن هذه التهمة تخصهم إذ إنهم وحدهم الجماعة . وفي رأيهم أن لا شيء يؤهل المرء لتولي الخلافة إلاّ المؤهل الديني، فالأتقى يصبح خليفة «ولو كان عبداً حبشياً» . وقد أعطى كل فرد منهم هذه القضيّة أهمية كبيرة في سبيل كسب الآخرة لنفسه ؛ ذلك بأنه ، حسب رأيهم ، تكون الصلاة مقبولة فقط إذا كان الإمام صالحاً ، وتكون شؤون الجماعة الإسلامية منتظمة فقط إذا كان الخليفة صالحاً حقاً . وهكذا يتوقف خير الدنيا والآخرة على أن يتولى الخلافة الرجل المناسب . (وفي هذا ثمة شبه بما كانت عليه بعض الفرق المسيحية المتزمتة التي ظهرت في العصور الأولى ، إذ إنها لم تعتبر القربان صالحاً إلاّ إذا كان الذين يقومون به هم أنفسهم صالحين) . وعليه فإن الخوارج كانوا يعتبرون أبا بكر وعمر بن الخطاب فقط خليفتين بحق ؛ وقد قتل عثمان بحقّ لأنه انحرف في سياسته عن الطريق السوي . وكانوا يحاربون علياً للسبب نفسه ، واختاروا خليفة جديداً هو عبد الله بن وهب الراسبي .

حاول علي أن يقنع الخوارج بالعودة إلى الحظيرة . وقد نجح في ذلك نجاحاً مؤقتاً ، ولكن إذ وجدوه قد خيب آمالهم مرة أخرى انصرفوا عنه ثانية وأعدّوا أنفسهم لقتاله . والتقى الفريقان في النهروان (٨ صفر ٣٨هـ/

١٧ تموز – يوليو ٦٥٨م) وانتهت المعركة بانتصار علي ؛ وقد فني جند الخوارج ولم يبق منهم إلا ثمانية رجال . وهكذا فإن هذا الخطر ، بالنسبة لعلي ، قضي عليه لفترة ما . أما الخوارج فلم يكن لهذه المعركة المضنية أي تأثير على عزيمتهم . فهنا ، كما في المستقبل ، لم يكن قتالهم سعياً وراء نصر ، بل رغبة في كسب الآخرة ، ولم يكونوا يجاهدون في سبيل الغلبة ، بل للاستشهاد في سبيل الله . ولذلك فقد كانت جماعتهم المقاتلة صغيرة دوماً ، لكنها كانت تزج بنفسها باستمرار في معارك مهلكة مثل معركة النَّهْرَوَان . ومع ذلك فكثيراً ما نجحوا ، وهم الفئة القليلة ، في أن ينتصروا على فئات أكبر ، وأن يُلْقُوا الرعب في العالم الإسلامي ، ولكنهم لم ينجحوا في إقامة دول ذات أهمية كبيرة . وظلّت جماعة منهم ، عُرفت بالإباضية ، محتفظة بعقيدتها بصورة معتدلة ، في عُمان وزنجبار وفي أجزاء متفرقة من المغرب العربي .

قبل أن يقضي علي على الخوارج ، كان التحكيم قد تمّ بأذْرح في أدوم (جنوب بلاد الشام) وذلك في محرم ٣٨هـ/حزيران– يونيو ٦٥٨م. وقد عُزِلَ المُطالِبان أي عليّ ومعاوية ؛ إلاّ أنّه في واقع الأمر لم يصب هذا القرار إلاّ علياً لأن معاوية لم يكن قد أبدى إلى ذلك الحين أيّ مطالبة بالخلافة ، ولذلك فقد كان من اليسير عليه أن يقبل بالحكم . لكنّ علياً لم يقبل به وهكذا وضع نفسه في موضع المخطىء. وعندها أصبح معاوية يملك حريّة التصرّف . فاستولى على مِصر ، وأخرج الولاة الذين كان عليّ قد عيّنهم ، وأعاد عمرو بن العاص، الذي كان عوناً له في صِفّين وفي أذرح بسبب دهائه، وعقد مع البيزنطيين هدنة لقاء مال يدفعه لهم، وبذلك حمى معاوية ظهره . ثم ذهب إلى القدس حيث بويع بالخلافة (ربيع أول ٤٠هـ/تموز–يوليو ٦٦٠م). وأمّا عليّ فهيأ في العراق جيشاً كبيراً، إلاّ أنّه اغتيل قبل أن يُلقيَ به في ساحة

الوغى في معركة حاسمة ؛ اغتاله خارجي اسمه ابن مُلْجَم في ١٧ رمضان ٤٠هـ/٢٤ كانون الثاني – يناير ٦٦١م ، وتوفي متأثراً بجراحه بعد ذلك بيومين .

وعندها دخل معاوية بجيشه العراق . وكان الحسن ، أكبر أبناء عليّ قد بويع بالخلافة هناك . فدارت بين الرجلين مفاوضات انتهت بتنازل الحسن عن الخلافة إلى معاوية (٤١هـ/٦٦١م) ، وعاد إلى المدينة حيث انصرف إلى حياة الدعة وتوفي سنة ٤٩هـ/٦٦٩م وهكذا أصبح معاوية أمير المؤمنين غير المنازع

وبوفاة عليّ انتهى دور الفئة الأولى من الخلفاء ، ويسميهم المؤرخون « الخلفاء الراشدين » وبمعاوية بدأ حكم بني أمية ؛ ومع تولّيه انتقل مركز الخلافة من العراق إلى ديار الشام ، وهو الأمر الذي لم يغفره العراقيون للأمويين قط .

* * *

لم يعنِ مقتلُ عليّ وتنازل الحسن أنّ شيعة عليّ قد انتهى دورهم . ذلك بأن نظريّتهم هي أن خليفةَ رسول الله ، أي الإمام الذي يتولى شؤون الجماعة الدينية والسياسية ، يجب أن يكون من آل البيت ، يقصدون عليّاً ، وبعد عليّ يجب أن يكون خليفته من نسل عليّ وزوجه فاطمة ، بنت الرسول. وقد اعتبروا الخلفاء الثلاثة الأول – أبا بكر وعمر وعثمان – مغتصبين ومثل ذلك كانوا يرون معاوية وبقيّة الأسرة الأمويّة . وحتّى إذا كان هؤلاء يتمتّعون بالسلطة الفعليّة ، فإنّهم لم يكونوا ، في نظر الشيعة ، قادة شرعيين للجماعة أي أئمة ؛ فالأئمة هم علي وبنوه حتّى ولو لم يكن لهم سلطان . فبعد الحسن علّقوا آمالهم على أخيه الحسين الذي كان قد انسحب إلى المدينة معه ، والذي أصبح ، بعد وفاة الحسن ، رأس الأسرة العلوية .

وقد قاوم الحسين ، في حياة معاوية ، ضغوط مؤيّديه للمطالبة بالخلافة . وعلى كل فلم يكن من اليسير عليه أن يفعل ذلك ، لأن معاوية كان يحكم له بيد قوية ، في العراق ، حيث كان للشيعة المركز الرئيسي ، والٍ قدير صارم، هو زياد بن أبيه (٤٥هـ/٦٦٥م — ٥٣هـ/٦٧٣م الذي كان والياً على البصرة فقط ، ثم أضيفت الكوفة لإمرته سنة ٥٠هـ/٦٧٠م وبذلك أصبح يحكم النصف الشرقي من الإمبراطورية . وفي المدينة أيضاً كان عدد من أبناء الصحابة يتطلّع إلى الخلافة ، إلاّ أن أحداً منهم لم يحرّك ساكناً في حياة معاوية .

ورغبة منه في تجنّب الشقاق الذي سيعقب موته ، وحرصاً على ضمان انتقال الخلافة إلى ابنه يَزيد ، عمل معاوية في حياته على إتمام المبايعة لابنه . ونجح في سوريا إلاّ أن رغبته لم تتحقق في الأقطار الأخرى بنفس الدرجة . لأن مثل هذا الأمر لم يكن من تقاليد عرب الجزيرة ، وأهل الشام فقط كانوا قد ألفوا نظام الوراثة في أسرة حاكمة . وبعد وفاة معاوية (١٢ رجب ٦٠هـ/ ١٨ نيسان — إبريل ٦٨٠م انفجر الوضع ضدّ الحكم الأموي . لقد ظلت المدينة في يد الوالي الأموي لفترة ؛ ولكن المطالبين الرئيسيين بالخلافة ، الحسين بن عليّ وعبد الله بن الزبير ، هربا من المدينة إلى مكة . أما الحسين فقد لبّى دعوة أتباعه في العراق وقصد الكوفة ، إلاّ أنّ والي الكوفة الأمويّ عبيد الله بن زياد بن أبيه ، عمل فوراً ؛ فأخمد الحركة المؤيدة للحسين هناك ، وأرسل جنداً للقبض عليه في الطريق . وفي ١٠ محرم سنة ٦١هـ (١٠ تشرين الأول — أكتوبر ٦٨٠م) حُصِرَ الحسين وأتباعه في كربلاء ، على مقربة من الفرات . وبما أنّه رفض أن يسلّم نفسه ، فقد قتل هو وأتباعه ، وأرسل رأسه إلى يزيد في دمشق . وقد تأسف يزيد لهذه المأساة واحتضن بعدها من تبقّى من آل عليّ فبعث بهم إلى المدينة وعني بحاجاتهم . وقد ووري جثمان الحسين التراب في كربلاء ، حيث غدا قبره المحجّة الرئيسيّة

للشيعة . وصار اليوم الذي استشهد فيه ، وهو العاشر من محرم ، المعروف باسم عاشوراء ، يوم ذكرى أليمة للشيعة ، الذين يحتفلون بها سنوياً متذكرين استشهاده . وأصبحت كربلاء الرمز الذي يثير في الشيعة ، مهما شطّ بهم المزار ، حميتهم وعزمهم ليعوّضوا عن الوهن الذي أصابهم بسبب فشل الحسين في محاولته في كربلاء .

والمطالبون بحق بيت علي بالخلافة ، الذين كان الشيعة يقدمونهم بين حين وآخر ، هم ، باستثناء فرع واحد (الزيديين) ، من أبناء الحسين بن عليّ ؛ على أن ذلك لم يمنع أن يقوم مطالبون من نسل الحسن بن عليّ في الوقت ذاته ؛ إلاّ أن مطالب هؤلاء السياسية لم تعتمد على مقولات الشيعة . ذلك أنه بسبب تنازل الحسن لم يتمكنوا من تبرير شرعية مطالبهم . ولم تعتمد هذه المطالب إلاّ على منزلتهم على أنهم من نسل عليّ ومن ثم من نسل الرسول . فمن أعقاب الحسن ، مثلاً ، أشرافُ مكة الذين كانوا يحكمون هذه المدينة الإسلامية المقدسة بين حوالي سنة ٣٤٩هـ/ ٩٦٠م وسنة ١٣٤٣هـ/١٩٢٤م ، وكان ذلك غالباً تحت سيادة دولة إسلامية كبرى . وقد أصبح العلويون عامة ، الذين انتشروا في بلاد الإسلام جمعاء ، فئة محترمة باعتبارهم منحدرين من نسل الرسول ، ويعتمد أكثر أفرادها على كرم المؤمنين ، دون أن يثيروا أيّة مطالب سياسية . وهؤلاء ينتسبون أيضاً إما إلى الحسن أو إلى الحسين ؛ ويغلب أن يلقب الحسني بالشريف أمّا الحسيني فينعت بالسيّد .

* * *

وقد كان أبعد خطراً من محاولة الحسين الفاشلة ، الحركة التي أثارها عبد الله بن الزبير ، الذي كان والده واحداً من الستة الذين عهد إليهم عمر باختيار خلفه من بينهم ، والذي نافس بعد ذلك علياً في طلب الخلافة . لم يكن

له حزب يدعمه كما كانت الحال مع الحسين ؛ إلاّ أن الارستقراطية الإسلامية في المدينة كانت تعطف على حركته ، وكان هو قد اختار مكة المكرمة مركزاً له . ففي سنة ٦٣هـ/٦٨٢م — ٦٨٣م قامت انتفاضة في المدينة لصالحه أخرج خلالها الأمويون منها . ففروا إلى ديار الشام بقيادة مروان بن الحكم ، كاتب عثمان بن عفان الذي كان يومها والي المدينة، وكان قد بلغ من الكبر عتياً ، إلاّ أن يزيد أرسل جنداً بقيادة مسلم بن عقبة المري ، فالتقوا بالمدنيين عند حرة المدينة . وانتهت المعركة بانتصار مُسلِم ، الذي أجبرهم على مبايعة يزيد (ليس ثمة في التاريخ ما يؤيّد ما قيل من أنه أباح المدينة للنهب ثلاثة أيّام) . وبعد ذلك قاد مُسلِم قواته نحو مكة؛ إلاّ أنه توفي في الطريق فوقع أمر حصار مكة على عاتق خلفه الحصين بن نمير . وقد رفع الحصار فيما بعد بسبب وصول الخبر عن وفاة يزيد المبكرة (١٥ رجب ٦٤هـ/ ١١ تشرين الثاني — نوفمبر ٦٨٣م) .

هذه الحادثة هزّت أركان السيادة الأموية في أعماقها ، خاصة وأن معاوية الثاني ، خليفة يزيد ، توفي بعد والده بوقت قصير . وبذلك امتدت حركة عبد الله بن الزبير إلى ديار الشام . وحتى الضحّاك بن قيس ، الذي ولاّه معاوية الثاني أمر الوصاية ، وهو واحد من معتمدي معاوية (الأول) بن أبي سفيان ، وزعيم قبيلة قيس الشماليّة التي كانت تضرب خيامها على الفرات ، انضم إليها بعد تردّد . وكان حسان بن مالك بن بجدل ، زعيم قبيلة كَلْب من عرب الجنوب ، الذي كان معاوية الأول قد أصْهَرَ إليه ، الوحيد الذي انضم مع قبيلته إلى بني أمية . وكان مروان بن الحكم ، بوصفه أسنّ رجال بني أمية قد تقدّم مطالباً بالخلافة . وكان لا بدّ من أن يكون للسلاح القول الفصل . وفي المعركة الرهيبة التي دامت عشرين يوماً في مَرْج راهط قرب دمشق، انتهى الأمر بانتصار الأمويّين وبني كلب على القيسيّين الذين كانوا يفوقونهم بأعداد كبيرة؛

وقد قتل فيها الضحّاك نفسه (٦٤هـ/٦٨٤م) . وبويع مروان عندها خليفة ، إلاّ أنّه توفي بعد وقت قصير (٢٦ رمضان ٦٥هـ / ٧ أيار – مايو ٦٨٥م) وترك الحكم لابنه عبد الملك . غير أنّ معركة مرج راهط التي قررت استمرار الأسرة الأمويّة ، كانت بدء خصومة طويلة بين القبيلتين قيس وكلب، وهي الخصومة التي اتسعت بحيث أصبحت خصومةً بين عرب الشمال وعرب الجنوب، والتي قسّمت العرب في الإمبراطوريّة كلها إلى قسمين ، وبذلك قوّضت أركان الدولة الأمويّة .

بدت هذه الدولة الأمويّة الجديدة وكأنّها اقتصرت بصفة عامة على ديار الشام ومصر . ففي العراق كان الموظفون المشرفون على الأمور زبيريين كما قامت انتفاضة شيعيّة في الكوفة، التي كان واليها الأمويّ قد فرّ منها من قبل . وكان قائد الانتفاضة ، رجل من أصل عربي عريق، هو المختار بن أبي عُبَيْد . وظهرت في دعوته لأول مرة مظاهر أصبحت فيما بعد خاصة بالشيعة وهي التي حوّلتها من حزب سياسي إلى مذهب ديني . وطبقاً لقول المختار لم يعد عليّ الخليفة الحق لرسول الله فحسب ، باعتباره أقرب أقربائه ، بل إن الجوهر النبويّ انتقل إليه ، فتتوارثه سلالته . وهكذا فبالإضافة إلى الوحي المنزل (القرآن) وسنّة الرسول أصبح للشيعة سلطة تعليميّة حية كانت تتمثل في سلسلة الأئمة المتحدرين من النبي ، وهؤلاء ، مثل النبي ، معصومون . وليس من اليسير توضيح أصل هذه الآراء دون إثارة اعتراض ؛ فهذه الآراء لم تصدر عن المختار ، لأنها قَطْعاً غير عربية . وكثيراً ما تعزى إلى عبد الله بن سبأ كأول مناد بها . وهو يهودي يمني يكتنف شخصيته الغموض من نواحٍ كثيرة . وكان قد ظهر على المسرح في حياة عليّ نفسه ؛ إلاّ أن هذا القول غير معتمد ، إذ إن آراء المختار ليست يهودية بأيّ شكل من الأشكال . وأبسط تفسير لها هو الربط بينها وبين آراء فارسية تتعلق بتوارث الجلالة التي أنعم بها

الله على الملك . ومما يدل على ذلك أن المختار آمن برسالة الإسلام الموجهة للبشر أجمع ، متخطياً بذلك حدود الجنس العربي ، أي لم يكن المختار يعتمد على العرب فقط ، وإن كان منهم ، بل على المجموعات الضخمة من الذين اعتنقوا الإسلام من غير العرب واضطروا إلى الالتحاق بقبيلة عربية كموالي ليصبحوا أعضاء في الأمة الإسلامية دون أن يحصلوا على حقوق مماثلة للعرب الأصلاء . ففي العراق ، حيث ظهر المختار ، وهو البلد الذي كان المركز الأكبر للتشيع ، كان هؤلاء الموالي يكادون يكونون جميعاً من أصل فارسي ، ومن ثم فمن اليسير أن يقبل المرءُ أنهم المسؤولون عن تغلغل مثل هذه الأفكار بين الشيعة ، وهي الأفكار التي كان المختار أوّلَ من قال بها . ومن ثم فإننا نجد في حركة المختار الإشارة الأولى إلى أن الإسلام أخذ يتجاوز الحدود العربيّة القومية كي يصبح ديناً عالميّاً بالمعنى الصحيح ، وبذلك انفتح على أفكار كانت غريبة عنه طيلة انحصاره في البيئة العربية .

واستولى المختار على الكوفة ومنها نشر سلطانه على العراق بكامله ، وجزء من جزيرة ابن عمر وإيران أيضاً . وظلت البصرة ، وهي التي انتقلت إليها طبقة القبائل العربية الأرستقراطية من الكوفة ، في حوزة الزبيريين . فكان ثمة يومها ثلاثة يتنازعون السلطة في الدولة الإسلامية. وكان عبد الملك بن مروان الأموي أول من خرج إلى الساحة ؛ فقد هزم قائده عُبيد الله بن زياد جند المختار (٦٦هـ/ ٦٨٦م) ، لكن بعد شهر انتصر هؤلاء ، بقيادة إبراهيم بن الأشتر ، نجل بطل صفين ، على الجند الأموي على شاطىء نهر الخازر حيث لقي عبيد الله والحصين بن نمير حتفهما . وعندها أرسل عبد الله بن الزبير أخاه مصعباً إلى البصرة ليقاتل المختار ، وقد نجح في تطويقه بالكوفة . فقتل المختار في محاولة لخرق الحصار واحتلت الكوفة ، وقُضِيَ على الحركة الشيعيّة التي بدأها وغرقت في بحرٍ من الدماء (رمضان ٦٧هـ/ نيسان ـــ إبريل

٦٨٧م) . وبذلك أزيل الخطر الشيعي مؤقتاً ، إلاّ أنّ الحركة عادت فعملت ونمت كحركة سريّة وانتظرت الفرصة المؤاتية لتخرج ثانية إلى النور .

وأخذ عبد الملك يعد نفسه للمعركة الفاصلة مع الخليفة الآخر (عبد الله بن الزبير) . وقد ظل بضع سنوات يحاول التغلغل في أراضي خصومه ، واستطاع أن يستولي على جزيرة ابن عمر شيئاً فشيئاً . وأخيراً في سنة ٧٢هـ/ ٦٩١م جاءت المعركة الحاسمة عند دير الجاثليق قرب تكريت على دجلة . فانتصر عبد الملك وخرّ مصعب أخو عبد الله صريعاً . وسار الأمويّ بجيشه إلى الكوفة حيث بايعته القبائل الموجودة هناك بالخلافة . وبعث بقائده ، الحجاج بن يوسف ، إلى مكة . فحاصرها ستة شهور ورماها بالمنجنيق . وأخذ العديد من أتباع عبد الله بن الزبير يصالحون القائد الشامي . ولما وجد عبد الله أنّه قد تخلى عنه كل أتباعه تقريباً ، تقدم إلى القتال ولقي حتفه (أول جمادى الأولى ٧٣هـ/١٨ أيلول – سبتمبر ٦٩٢م) . وبذلك انتهى النزاع الداخلي على الخلافة وعادت إلى الأمة وحدتّها . وقد ضمن عبد الملك هذه الوحدة بأن عيّن الحجاج بن يوسف ، أقدر رجال دولته ، والياً على العراق . ومعنى هذا أنه أصبح والياً على النصف الشرقيّ من الإمبراطورية (٧٥هـ/٦٩٤م – ٩٥هـ/٧١٤م) وبقي في هذا المركز أيضاً أيام الوليد بن عبد الملك (٨٦هـ/٧٠٥م – ٩٦هـ/٧١٥م). وعين عبد الملك إلى جانب الحجاج المُهلّب بن أبي صُفْرَة أقدر قواده ، الذي أدى خدمة كبيرة للدولة بقضائه على خطر الخوارج الذين ظهروا من جديد . وفي سبيل توطيد السيادة الأموية نهائياً في العراق الثائر، بنى الحجاج حصن واسط (سنة ٨٣هـ أو ٨٤هـ/٧٠٢م أو ٧٠٣م) في وسط البلاد واتخذها مركزاً للحامية الشامية .

إن ثورة الخليفة الخصم أي الثورة الزبيريّة كانت المحاولة الأخيرة ،

لإرجاع تاريخ العرب والإسلام إلى مسرحه الأصلي أي إلى جزيرة العرب . وقد فشلت ، وحتى المعركة الفاصلة لم تدر على هذا المسرح . وعادت الجزيرة بعد ذلك نهائياً إلى دور الولاية الثانوية . والمدينة المنورة التي كانت مبعث الإمبراطورية ، أصبحت ملجأ لمن لا يقوم بدور سياسي ولمن اعتزل السياسة ، أي مأوى للساخطين . وقد أصبح تاريخ العالم العربي والإسلامي يمثل دوره خارج الجزيرة بالكلية — أي في بلاد الحضارة القديمة في الشرق الأدنى .

* * *

كانت نتيجة الصراع على السيادة في الإمبراطورية الإسلامية . الذي استمر أربعين سنة ، أن انقسمت الأمة الإسلامية إلى ثلاث فئات انقساماً لم يعد ثمة سبيل إلى التئامه . فالقسم الأكبر من هذه الأمة شعر بأنه كتلة متماسكة صاحبة الإيمان الحق فسمت نفسها بأهل السنّة والجماعة ، تأكيداً على أنها تتبع السبيلَ السويَّ الذي استنّه الرسول ، وأنها جعلت وحدة الأمة هدفها الأول . ولكن جماعتين وقفتا قبالتها ، لا يسع المرء إنكار وقوفهما في حظيرة الإسلام ، وهما الشيعة والخوارج . وكانت رئاسة الأمة ، أي الإمامة هي القضية الأساسية التي اختلفت حولها الجماعات الثلاث . فأهل السنّة الذين كانوا حريصين على وحدة الأمة الإسلامية تساهلوا في شروط الإمامة ، بينما لم تر الفرقتان الأخريان ما يمنعهما من تمزيق هذه الوحدة في سبيل تحقيق شروطهما . وقد أصر الخوارج على تقديم أتقى المسلمين للإمامة وتشدّدوا في ذلك فأخضعوا الإمام المختار لفحص مستمر بحيث لم تستقر الرئاسة لديهم أبداً . وأما الشيعة ، فقد أصروا على حصر الإمامة في أعقاب الرسول الذين كانوا حسب اعتقادهم حملة

علم باطني موروث . وهذان الموقفان ما كان لهما أن يوضعا موضع التنفيذ في جماعة كبيرة . وفي مقابل ذلك لم يطلب أهل السنّة من الإمام إلا أن يكون من قريش . ومع تطور الزمن ، تخلوا حتّى عن هذا الشرط كما تبين حوادث أواخر العصور الوسطى . وكان أساس موقف أهل السنّة هذا ، الفكرة الواقعية أن قريشاً ، وهي قبيلة النبي ، كسبت بذلك مركزاً مرموقاً جعلها فوق بقيّة القبائل العربيّة ، وأبقاها خارج المنازعات القبليّة . والحقّ يقال إن أهل المدينة القدامى ، أي الأنصار ، كانوا أيضاً في مثل هذا المركز . ولكن تجارب السيادة في الماضي أكسبت قريشاً قدراً من الصفات المؤهلة للحكم رفعتها فوق فلاحي المدينة بدرجات . وهكذا لم تكن ثمة محاولة لحصر الإمامة في الأنصار .

لم يكن الشرط الأدنى الذي اشترطه أهل السنّة في الإمامة يعني أنهم كانوا جميعاً متحزبين لبني أمية . فقد ارتبطت بالأمويين ، في أذهان الكثيرين ، صفة الاغتصاب المَقيتة . وفي واقع الأمر فإن الأمويين ما كانوا يستطيعون الحفاظ على سيادتهم إلاّ عن طريق القوة . ومع هذا فقد تحمل السنيون ذلك في سبيل وحدة الأمة التي كانوا يولونها أكبر اهتمامهم وفي مقابل هذا كانوا يعتبرون شخصية الخليفة أمراً ثانوياً . على أن ذلك لم يمنع قيام فئة من السنّة ، وخاصة من نبلاء المسلمين أي أبناء صحابة الرسول ، وهي فئة ربما كانت لها الأغلبية ، توجّه النقد العنيف إلى الحكم الأموي من مركزها في المدينة . ولم يكن لها أي أثر في توجيه الأمور أي في السياسة الفعلية ؛ إلاّ أنها كانت تعنى بتصوّر الشكل الذي أراده الله لهذه الأمور أن تتخذه ، بانية ذلك على ما جاء في القرآن والسنّة . وكانت هذه الفئة تقيس أفعال السياسيين العاملين بمقياس متطلبات الدين النظرية . ومن هذا النقد الذي أجراه أهل المدينة الأتقياء تطورت فيما بعد الشريعة والفقه .

ويترتب على أصلها هذا أن أحكامها لم تطبق أبداً بكاملها . والذين عنوا بها كوّنوا فيما بعد طبقة من العلماء ، كان القضاة يُختارون منها .

هذه الصفة المثالية للفقه والشريعة في الإسلام ، والفشل في تنفيذها واقعياً لم يعد مبعث إزعاج لهذه الفئة. ذلك بأنه منذ أيام الأمويين ، حيث تعودت هذه الفئة معارضة الحكم ، أَلِفت اتخاذ موقف متشائم من « الحاضر » وهو الذي ظلّ الأساس الذي قامت عليه التقوى بين الكثير من المسلمين : فالعالم فاسد ، وقد نجح الشرُّ في التغلب على الخير ، ولذلك قلما تحظى الشريعة بالاهتمام . وسبب التباعد بين الشرع الإلهي والحياة الواقعية يرجع إلى عجز البشرية خلقياً في الوصول إلى الكمال ، لا إلى أي قصور في الأحكام التي استخرجها العلماء من القرآن والسنّة . يقابل هذا التشاؤم بالنسبة للحاضر لمحة عزاء بالنسبة للمستقبل . ففي نهاية الأزمنة ، بعد أن ينتصر الشر للمرة الأخيرة بظهور « الدجّال » ، يأتي « المهدي » ؛ وسيكون من سلالة النبي واسمه مثل اسم النبي نفسه ، محمّد بن عبد الله ؛ وسوف يبدأ على يديه العصر الذهبي للإسلام ؛ وعندها تنفذ أحكام الإسلام وشريعته بالتمام . وفكرة المهدي المنتظر ، التي تذكر بفكرة قدوم المسيح عند اليهود والمسيحيين ظهرت لأول مرة في الإسلام بين الشيعة ، ومنهم تغلغلت عند بعض أهل السنّة .

هكذا قبل العلماء فكرة تأجيل تنفيذ الأحكام الإلهية إلى آخر الزمان ، وبذلك برروا استسلامهم للواقع المخالف لهذه الأحكام . وترتب على ذلك ، في نهاية المطاف ، قيام نوع من الاتفاق الضمني (غير المعلن عنه) بين أولئك الذين يتمتّعون بالسلطة الشرعيّة الحقيقيّة وممثلي التقوى والعلم الديني . وهكذا تغلب عند أهل السنّة مبدأ الطاعة للسلطان المسلم الشرعي ، لأجل الحفاظ على وحدة الأمة ، ما دام السلطان يعترف بالأحكام

الإلهية . وإذا وفى بهذا الشرط تساهل أهل السنّة عن إهمال السلطان لأحكام الشرع عملياً، إذ عليه أن يتحمل مسؤولية تصرفاته أمام الله تعالى . وفقط في حالة تنكر السلطان للشريعة كمبدإ ، اعتبروه كافراً ، لا تجب الطاعة له ، إنما الجهاد ضده . وهكذا حصل العلماء على حرية النقد النظري وإن خضعوا للسلطة عملياً .

* * *

كان ثمّة باعث خاص لتذمّر أهل التقوى في المدينة وهو الحجاج والي العراق، بسبب سياسته في الضرائب . كان عمر بن الخطاب قد أقام الدولة الإسلاميّة على أنها دولة للمسلمين العرب يحكمون فيها غير العرب الذين لم يعتنقوا الإسلام . وقد كان من المستحب أن يعتنق الإسلام أفرادٌ من غير العرب إذ بهم تتقوى الطبقة الحاكمة ؛ إلاّ أنّ أحداً لم يحسب حساب دخول الناس في الإسلام أفواجاً ، وأنّ ذلك قد يؤدي إلى تغيير جذري في نظام السيادة . لكن اتجاه الإسلام نحو صيرورته ديناً عالمياً والإجراءات التي عُمل بها كانت تشجّع الإقبال الجماعي عليه . ولما كانت الجزية والخراج في الأصل مفروضة فقط على غير المسلمين ، فقد كان في ذلك ما يدفع على اعتناق الإسلام . وكان الإقبال على الإسلام يتزايد خاصة في ديار الإمبراطورية الفارسية السابقة ، لأن الزرادشتية كانت قد تجمدت مع الزمن في طقوس فقدت معناها ، ولم تعد ترضي حاجات الناس الروحية ، وترتب على اعتناق الكثيرين للإسلام أن أصاب خزينة الدولة أذى ملحوظ بسبب خسارة الضرائب الكثيرة . ولما أخذ العرب المسلمون يمتلكون الأراضي المفروض عليها الخراج ، أصاب الخزينةَ مثل ذلك من الخسارة ، لأن هذه الأرض لمّا انتقلت ملكيتها إليهم أصبحت معفاة من الضريبة

المفروضة عليها . يضاف إلى ذلك هجرةُ الذين اعتنقــوا الإسلام إلى المصرين الكبيرين البصْرة والكوفة . أراد الحجاج أن يعالجَ هذه الأوضاعَ السيّئة فلم يُعفِ العرب الذين تملكوا أرضاً خراجية من الضريبة ، كما أنّه أعاد هذه الضريبة على الذين اعتنقوا الإسلام حديثاً إذا هم ظلوا في الريف واحتفظوا بحقولهم . وقد منع هؤلاء من الهجرة إلى مراكز الإسلام والعزب الرئيسيّة ؛ وفي الواقع فقد أرغمهم على العودة إلى منازلهم الأصلية بالقوة . ولا عجب أن يرتفع صوت التذمّر من قبل أولئك الذين طالتهم هذه الإجراءات ؛ وأن تستغل المعارضة من أهل التقوى في المدينة هذه الأمور لإثارة الشعور ضدّ السيادة الأمويّة .

وقد لقيت مطالب أهل التقوى في المدينة مؤيداً لها بين الأمويين في عمر بن عبد العزيز ، وهو ابن عم سلفيه ، الوليد بن عبد الملك وسليمان أخيه ، وقد تولى الخلافة سنة ٩٨هـ/٧١٧م . والخليفة الجديد ولد في المدينة ونشأ فيها وتأثر بروح الفئة التقية التي كانت تسود المدينة . فلما تولى الحكم بذل جهده في سبيل تطبيق الشريعة الإسلامية . وحاول أيضاً إزالة الأضرار التي رافقت اعتناق الأفواج الكبيرة للإسلام ، دين السادة العرب ، والتي نزلت بالخزينة ؛ إلاّ أنه جرّب وسائل تختلف عن وسائل الحجاج ، ولم تكن تتعارض مع الوعي الشرعي في الإسلام . فأصر على أن المسلم ، عربياً كان أم غير عربي ، لا يجب عليه أن يدفع جزية أو خراجاً ، وهذا ضد ما كان يفعله الحجاج . إلاّ أنّه رسم بأنّ أرض الخراج بأجمعها تكون ملكاً جماعياً للمسلمين ، ويتركون استغلالها لغير المسلمين . وبناءً على ذلك منع بيع مثل هذه الأرض الخراجية إلى أفراد من المسلمين كي لا تصبح ملكاً خاصاً معفى من الضريبة . وقد فرض أنه إذا اعتنق الإسلام فردٌ كان يملك أرضاً تُدفع عنها ضريبة ، فإنّ أملاكه تعود لجماعة القرية التي ينتمي

إليها ، وهو يستطيع عندها أن يستأجر الأرض من الجماعة – فالأجر (الكراء) ليس ضريبة . وبذلك أرضى الخليفة الضمير الإسلامي وفتح أمام انتشار الإسلام الطريق الواسع ومن الجهة الأخرى فإنّ الخزينة العامة ، أي بيتَ المال ، لم تخسر كثيراً بسبب دخول الناس في الإسلام ؛ فقد ظلت الأرضُ الخراجيّةُ أرضاً خراجيّةً ، حتى وإن اعتنق صاحبها الإسلام . أما الأرض التي كان يمتلكها العرب قديماً فلم يفرض عليها إلاّ العشر كما كان الأمر من قبل ، والعشر هو أقل من الخراج بكثير ، وفرض على أنه زكاة . وقد أزال عمر بن عبد العزيز مساوىء متعدّدة ، في سبيل تحقيق ما يطلبه الضمير الإسلامي . فحكمه حقق مرحلة هامة في تطبيق الروح الإسلامية في الحياة العامة ، كملها بعد ذلك العباسيون . ولأجل ذلك فهو الخليفة الأموي الوحيد الذي قدره العباسيون ومؤرخوهم . فقد كان ، ولا ريب ، حاكماً صالحاً ، وكان من سوء حظ الدولة الأمويّة أنّه توفي بعد حكم دام سنتين ونصف السنة فقط ، وهو في سن التاسعة والثلاثين (٢٣ رجب ١٠١هـ/ ٩ شباط – فبراير ٧٢٠م) .

إنّ إصلاحات عمر في الضريبة لم تنجح . فقد عاد المسؤولون إلى أساليب الحجاج ، ولكن مع فرق هام . فقد أخذوا يفرّقون بين الجزْية (ضريبة الرؤوس) والخراج (ضريبة الأرض) ، الأمر الذي لم يكن متبعاً من قبل . فقد كانت الأولى تفرض على الأشخاص وتعتبر أمراً زرياً ، وكانت تسقط عن المرء متى اعتنق الإسلام . أما الخراج فكان يجبى عن الأرض ، ولا يمسّ الشخص بزراية . وتستمر جبايته إذا صارت الأرض ملكاً لأفراد مسلمين . فلم يقم مانع لتغيير ملكية الأرض أو تغيير الدين (إلى الإسلام) فحفظت بذلك مصلحة الخزينة ، ومصلحة الدين في آن واحد .

* * *

إذا اعتبر عمر بن عبد العزيز الخليفة الذي مكّن للإسلام السير بقوة في الحياة العامة ، فإنه كان ، من ناحية ثانية ، دون غيره من خلفاء بني أميّة : فلم يشجع على الجهاد . ذلك لأنه أدرك بأن الدافع إليه غالباً ما كان في سبيل الغنيمة وليس في سبيل الله . أما بقيّة الخلفاء الأمويين فقد كان الجهاد محبباً إلى نفوسهم ، وكانت الأيّامُ الخاليةُ من الأزمات الداخليّة في خلافة معاوية بن أبي سفيان وعبد الملك والوليد وسليمان ، وثم في خلافة هشام (١٠٥هـ/٧٢٤م – ١٢٥هـ/٧٤٣م) أيّاماً عزّزت فيها الفتوح وزادت قوة الدولة .

كانت أهم الحملات الأمويّة هي التي وجهت لفتح شمال إفريقية وإسبانية ، التي عرفت فيما بعد باسم المغرب ، وكانت كسباً ضخماً ضم إلى المنطقة الإسلامية الرئيسية ، وتمتعت دوماً بمركز خاص . خرجت البعوثُ الأولى من مصر في أيام عمر بن الخطاب متجهة إلى برقة وطرابلس . وقد كان عقبةُ بن نافع ، ابنُ أخي عمرو بن العاص ، فاتح مصر ، هو الذي فتح ولاية إفريقية الروميّة (تونس حالياً) ، حيث مصر القيروان (٥٠هـ/٦٧٠م) متّخذاً إياها قاعدة للسيادة العربية . ويُروى أن عقبة قاد جيشه إلى شواطىء المحيط الأطلسيّ . إلاّ أنّ مقاومة البربر لم تمكّنه من الاحتفاظ بالأرض التي احتلها ، وقُتل في معاركه مع البربر سنة ٦٣هـ/٦٨٣م . وكادت السيادة العربية تزول عن هذه الأصقاع أثناء الحرب الأهلية مع عبد الله بن الزبير ، لكنها استعيدت في أيام عبد الملك بن مروان على يد حسّان بن النُّعمان . فاحتلال قرطاجة (٧٩هـ/٦٩٨م) ، ثم القضاء على عصيان بربريٍّ كانت تتزعمه «نبية» سماها العرب «الكاهنة» (٨٤هـ/٧٠٣م) ، مكّنهم من امتلاك المنطقة نهائياً . وبعد ذلك خرج موسى بن نصير منها لفتح المغرب الأقصى . وفي رجب ٩٢هـ/نيسان – أيار (إبريل

– مايو) ٧١١م ، اجتاز طارق بن زياد ، مولى موسى ، البحر إلى إسبانيا ، على مقربة من جبل طارق ، وفي شهر تموز (يوليو) تغلّب على رودريك (لذريق) ملك القوط الغربيين في معركة وقعت قرب شريش ، على مصب وادي بكّة (نهر بارباط) ، وفيها سقط رودريك قتيلاً . ولحق موسى بطارق إلى إسبانية وأتمّ الاستيلاء على دولة القوط الغربيين في سنوات ٩٢هـ – ٩٥هـ/٧١١م – ٧١٤م . وفي خلافة هشام اجتاز عبد الرحمن الغافقي الوالي العربي على إسبانية ، جبال البرانيز سنة ٧٣٠م موغلاً في جنوب فرنسا . إلاّ أنّ شارل مارتل هزمه في معركة بلاط الشهداء ، بين تور وبواتيه ، سنة ١١٤هـ/٧٣٢م . وقد قضي على القسم الأكبر من جيش العرب ، وسقط الغافقي في المعركة ، وانسحب العرب بعدها من الميدان . وهكذا تم للفرنجة أن يوقفوا الزحف العربي على مقربة من المكان الذي أوقفوا فيه قوى الهون من قبل . وبذلك أنقذوا أوروبة من الوقوع تحت حكم العرب المسلمين .

كان الخلفاء الأمويون ينظرون إلى الحرب مع بيزنطية على أنها واجب نبيل ، يقومون به سنة بعد سنة في أزمنة الهدوء الداخلي . وقد كان جهادهم موجهاً ، قبل كل شيء ، نحو الاستيلاء على العاصمة القابعة على شاطىء البوسفور ، وجهّزوا أسطولاً لهذا الغرض . فوجّه كل من معاوية بن أبي سفيان وعبد الملك والوليد وهشام حملات منتظمة ضد بيزنطية ، بعضها بحراً من طرابلس على الساحل الفينيقي ، وبعضها برّاً من معسكر دابق شمال سورية ، وأخرى بالبحر والبر معاً . وقد حُوصرت القسطنطينية ، من البحر والبر ، سبع سنوات في خلافة معاوية ، حوالي سنة ٥٤ – ٥٦هـ/٦٧٤م – ٦٨٠م (وهناك اختلاف كبير في تعيين السنين بين مؤرخي العرب والبيزنطيين) . وقد رفع الحصار عنها بسبب النزاع الداخلي الذي تلا موت معاوية . ولما تولّى سليمان بن

عبد الملك الخلافة سنة ٩٦ / ٧١٥ أرسل حملة برية بحرية ضخمة ضد القسطنطينية بقيادة أخيه مسلمة . وقد بدأ الحصار في أول محرم ٩٨هـ/ ٢٥ آب ـ أغسطس ٧١٦م ولكنه رُفعَ بعد سنة وانتصر البيزنطيون بفضل تفوقهم الفني الذي لم تتغلب عليه شجاعة المهاجمين وإيمانهم . وقد كانت حملات المسلمين في الجهاد أقوى هنا منها في أيّ مكان آخر . ومما تفخر به بيزنطية أنها صدّت هجماتهم قروناً طويلة . وفي سنة ٦٠١ هـ/١٢٠٤م استطاع فرسان صليبيون من الفرنجة ، كانوا في خدمة البندقية (الحملة الصليبية الرابعة) ، أن يحتلوا المدينة ويهدموا حصون هذا الدرع الأوروبي الأوّل ، وبذلك تيسَّر للأتراك الاستيلاء عليها سنة ١٤٥٣م .

وكانت الجبهة الثالثة للعرب المسلمين ضد عالم غير مسلم في المشرق . وكان ينظم الحملات هناك ولاة العراق ، الذين كانوا في الواقع ولاة المشرق بكامله ، ويقودها حكام خراسان . هكذا فتح قتيبة بن مسلم ، الذي كان حاكم خراسان ٨٥ هـ/٧٠٤م ـ ٩٦هـ/٧١٥م ، ما وراء النهر نيابة عن الحجاج حاكم البصرة . وبذلك أصبح العرب جيراناً للأتراك الغربيّين الذين كانوا تحت السيادة الصينيّة . وثمة قائد آخر ، هو محمد بن القاسم ، الذي أرسله الحجاج سنة ٩٢هـ/٧١١م لاحتلال وادي نهر هندوس ، أي السند ، وقد ظلت منطقة الملتان في البنجاب لقرون عديدة أقصى نقطة وصل إليها الإسلام هناك .

* * *

إن الإمبراطورية الأموية ، التي امتدت ، نتيجة لتلك الفتوحات ، من ضفاف السند وسيحون إلى شواطىء المحيط الأطلسي ، كانت متباعدة الأطراف بحيث لم تكن لها وحدة ثقافية ، لا عربية ولا إسلامية . ذلك بأنه

لم تكن قد نشأت فيها بعد ثقافة عربية تتجاوز نطاق جزيرة العرب . واستمرت الطبقة العربية الحاكمة تعتني بالحياة الثقافية المحدودة المعروفة قبل الإسلام، والممثلة في الشعر . وكان الخلفاء الأمويون أصدقاء للشعراء وحماة لهم ، الأمر الذي أوغر صدور المتزمتين من أهل المدينة عليهم . والجديد في تلك الفترة هو دراسة مناهل الدين ، أي القرآن والسنّة ، الذي كانت المدينة مركزه الرئيسي . ولكن هذا كله ، لم يتعدَّ فئة العرب المسلمين التي كانت ضئيلة بالنسبة لجماهير المسلمين الجدد غير العربية . ولم تنخرط هذه الجماهير في المجتمع الإسلامي إلاّ تدريجياً ، غير أنها تمكنت من انتزاع الزعامة في هذه الميادين جمعاء من أيدي العرب ، كما سنرى فيما بعد . أما الجمهور غير المسلم الذي ظلّ ، بالرغم من اعتناق الأعداد الكبيرة للإسلام ، يشكل الأكثرية من السكان أيام الأمويّين ، فلم يكن له في هذه الحياة الثقافية العربية الإسلامية أي دور .

وبالمقابل فإن أصحاب السيادة من العرب المسلمين لم يشتركوا في الحياة الثقافية في البلاد التي خضعت لهم ؛ واستمر سير هذه الحياة في الطرق القديمة للحضارة الهلّينية والإيرانية . لا شك أن الحروب قد أحدثت بعض الدمار ، لكن العرب لم يكونوا ، كالمغول فيما بعد، مخربين بشكل همجي؛ ولما تمت لهم السيادة على هذه البلاد المتحضّرة ، اتخذوا من نظمها وترتيباتها ما لم يكن لديهم ما يمكن أن يحل محله . فاحتفظوا بإدارة البلاد المفتوحة على النحو الذي وجدوه عليها ، واستعانوا بالموظفين المدربين ، الذين كانوا من اليونان والسوريين والأقباط في الولايات الرومية ، ومن الفرس في الإمبراطورية الفارسية . وقد ظلت الدواوين في الدولة الأمويّة في بادىء الأمر تستعمل لغات الدواوين القديمة أي اللغة اليونانية في ديار الشام وجزيرة ابن عمر ، والقبطية في مصر ، والفارسية في العراق وإيران . ولم تدخل اللغة

العربية في هذه الدواوين إلاّ في أيام عبد الملك وابنه الوليد . أما التدابير الإدارية فقد استمرت على ما كانت عليه قبلاً . ومثل ذلك يقال في النقود . فقد كان النقد الذهبي البيزنطي والنقد الفضي الفارسي يستعملان بادىء ذي بدء ، وأحياناً كانت تستعمل النقود الفضية من جنوب الجزيرة . وفي هذا المجال أيضاً تحرر عبد الملك من النظام القديم : فأخذ سنة ٧٤هـ/٦٩٣م بسك الدنانير الذهبية والدراهم الفضية في دمشق بكتابة عربية، كما فعل الحجاج في الكوفة في السنة التالية . وقد ظلّت الوحدة النقدية طيلة العصور الوسطى الدينارَ للذهب والدرهمَ للفضة .

وتبين موقف السادة العرب في أيام الأمويين من الحضارة الهلينية أوضحَ ما يكون في مجال الفن ، فقام المسلمون بدور صاحب العمل ؛ أما الأعمال التي أنجزت بأمرهم فلم تختلف في شيء قط عما كان متداولاً في الفن الهليني . ويبدو أنّ عبد الملك بن مروان أراد أن يصرفَ الناس عن زيارة الحجاز حُجّاجاً لأن المدن المقدّسة هناك كانت تحت سيطرة الخليفة المنافس عبد الله بن الزبير ، ورغب في أن يُشَجِّع الحجّاج على زيارة بيت المقدس لذلك عمَّر منطقة الحرم الشريف . ومع أن الأبنية التي أقامها تعرّضت لتغيرات كثيرة بحيث أنها لا تبدو اليوم أموية الخصائص تماماً ، إلا أنّه عند الدراسة الدقيقة تتكشف لنا هذه الخصائص . فقبة الصخرة في القدس ، التي تم بناؤها بين سنتي ٦٥هـ/٦٨٥م و ٧٣هـ/٦٩٢م تقريباً ، والتي تقوم فوق الصخرة التي عَرَجَ منها محمد (ص) إلى السماء ، هي في واقع الأمر من حيث مخطّطها وعمارتها ، كنيسة مستديرةٌ على غرار الكنيسة العربية في بُصرى أو كنيسة القيامة في القدس ذاتها . والمسجد الأقصى ، الذي يقوم على مقربة منها ، وانتهى بناؤه سنة ٨٣هـ/٧٠٢م ، يشابه كنيسة باسيليكا مع توجيه القبلة نحو مكة ، بدل توجيهها إلى الشرق شأن الكنائس . والجامع

الأموي في دمشق هو أصلاً كنيسة القديس يوحنا ، المبنيّة على اسم يوحنا المعمدان ، حوّلها الوليد سنة ٨٦هـ/٧٠٥م إلى جامع ؛ وهي باسيليكا مزدوجة وجدارها الجنوبي الطويل في اتجاه القبلة . والزخرف الفسيفسائي الذي زيّن المباني الأموية الدينية في القدس ودمشق ، كان من الممكن أن يزين أيّ بناء مسيحي قديم أو بيزنطي مبكر في القسطنطينية أو أنطاكية ، غير أن المباني الأموية لا توجد عليها صورٌ للأجسام البشرية .

كان الخلفاء الأمويّون مُغرَمين ببناء قصور للمتعة والرفاهية في سهوب سورية وفلسطين وشرق الأردن ، وفي هذه الأخيرة ما زالت آثار عدد منها موجوداً حتى اليوم . ومن القصور التي تَلْفتُ الانتباه قُصَير عَمْرَة الذي بناه الوليد بن عبد الملك بعد سنة ٩٢هـ/٧١١م ؛ للاستجمام وهذا القصر مزخرف داخله بالصور البشريّة ، التي تعكس إعجاب العصور القديمة بالأجسام الجميلة . وفي الواجهة الفخمة غير التامة البناء لقصر المُشَتّى ، (لعل بانيه هو الوليد بن يزيد في سنة ١٢٥هـ — ١٢٦هـ/٧٤٣م — ٧٤٤م) والتي يمكن مشاهدة الجزء الأكبر منها في جناح الفن الإسلامي لمتحف برلين ، يتبين دخول الروح الإسلامي في الفنّ . فالنصف الأيسر من الواجهة تبدو فيه زخارف هلينية خالصة من غصون النباتات مع صور لحيوانات أسطورية ولأسود وأنواع من الطيور وصور بشر ، بحيث أن علماء الآثار ظنوا لأول وهلة أن هذه الأعمال تعود إلى ما قبل الإسلام . أما النصف الأيمن فزخرفه نباتي خالص، دون أيّ شكل لجسم بحيث إنّ المرء يمكن أن يفترض أن النفور الإسلامي من تصوير الكائنات الحية أصبح نافذ المفعول هناك . ونرى من هذه الأمثلة أن التداخل بين نمطي الحياة العربي الإسلامي من جهة: والكلاسيكي المتأخر غير الإسلامي الموجود في بلاد الحضارات القديمة من جهة ثانية ما زال في أول مراحله . ذلك بأنه لم تكن قد نشأت بعد حضارة إسلامية ،

فهذه تطورت فيما بعد على قدر ما تم من تداخل بين هذين النمطين ، وبعبارة أخرى عندما اعتنق أصحاب الحضارات القديمة الإسلام ، وأصبحت الزعامة الحضارية في العالم الإسلامي لهم . وهذا لم يتم إلاّ في الفترة التاريخية التي تلي الأمويّين ، أي في زمن العباسيين . إلاّ أنّ الأحوال التي سادت في العالم العربي أيّام الأمويين هيّأت لأصحاب الحضارات القديمة العودة لتولي تلك الزعامة فيما بعد .

* * *

كانت الأحوال في الدولة الأمويّة تزداد عسراً يوماً بعد يوم . وإذا اعتبرنا أن رجال الدولة الأمويين استطاعوا أن يضعوا حداً للفئات الثائرة من الخوارج والشيعة ، ويوقفوا خطرها الظاهر ، فإنهم لم يستطيعوا ، مع الوقت ، التغلب على الصعوبات القائمة في بيتهم بالذات . ولعل أصعب ما واجههم هو النزاع القائم بين القبائل العربية نفسها . فالسلم الإلهي في داخل الأمة الذي أمر به الإسلام ، أوقف النزاع القبلي وحوّل نشاط القبائل مؤقتاً إلى الخارج تحت مظلة السيادة القرشية المحايدة ، إلاّ أنّه بقي متوهجاً تحت الرماد ما يلبث أن يشتعل من جديد كلما شبّ قتال داخلي ، وسلّ العربي سيفه ضد العربي . فمعركة مرج راهط (٦٤هـ/٦٨٤م) الدامية كانت نقطة حاسمة في عملية التمزق الداخلي بين العرب . في أواخر عهد الأمويين؛ إذ فاقت أحداثها كل ما روي عن خصومات العرب في أيام الجاهلية . ففي هذه المعركة بالذات لم يتواجه جيشا الخليفتين المتنازعين فقط ، المؤلفان من مختلف القبائل ، إنما تواجهت كتلتان قبليتان : قبيلة كلب الجنوبية وقبيلة قيس التي تنتمي إلى مجموعة مُضر الشمالية، فكما لو أن محمداً (ص) لم يكن قد جاء برسالته ، جرّبت قيس المغلوبة على أمرها أن تثأر لدماء قتلاها الكثر.

ولم يمر وقت طويل على ذلك حتّى قامت في العراق (في البصرة) وفي خُراسان أيضاً معارك بين القبائل المختلفة (هنا كانت تميم الشمالية ضد الأزد الجنوبية)، وبذلك انتشرت ثارات الدماء انتشار النار في الهشيم، كما كان عليه الحال بين العرب في الجاهلية. ولما كانت هذه الخصومات لا تقوم في صحاري بلاد العرب وسهوبها بل في بلاد الحضارات، فقد كانت أشدّ خطراً؛ يضاف إلى ذلك أنّ هذه الخصومات أثارت ضروباً من الوحشية عرفها الشرق القديم على نحوٍ لم يكن معروفاً في شبه الجزيرة العربية. وبسبب سهولة المواصلات في أصقاع الدولة الإسلامية الواسعة انتشر النزاع وتفاقم بتأثير الخصومات المحلية إلى درجة وجد العرب أنفسهم، عبر الإمبراطورية بأجمعها، منقسمين إلى جماعتين متعاديتين: فأصبحت كلب تعبيراً عن العرب الجنوبيين، وقيس تُعَبّر عن عرب الشمال وخاصة قبائل مُضر، بينما كانت قبائل ربيعة تنحاز مرة هنا ومرة هناك. وقد نجح كبار خلفاء بني أمية أي عبد الملك وابنه الوليد وهشام أيضاً، وكذلك خيرة رجال السياسة في أيامهم كالحجاج، في تجنب التحزبية وإخضاع الأحزاب للسلطة. على أنه مع الزمن تسربت النزعات الحزبية إلى الجهاز الوظيفي للدولة، وشملت كبار الموظفين حتّى أن كل واحد منهم صار يرى أنه يمثل أحد الحزبين، ويعين أتباعه من حزبه فقط. وأخيراً نفذت السياسة الحزبية إلى داخل البيت الأموي نفسه، وفرّقت بين أفراده الذين كانوا يتجاوبون مع جماعة دون الأخرى حسب القرابة من جهة الأم لدرجة أن أثرت الحزبية العربية على اختيار الخليفة بالذات. فتاريخ العقود الأخيرة من السيادة الأموية كان طابعها المميز المنازعات الحزبية.

وقد شلت هذه الارتباطات، بطبيعة الحال، القدرة الحربية للمقاتلين العرب الذين كانوا يقيمون في المعسكرات، والذين لم يتحمسوا لقتال إلاّ في

مصلحة قبيلتهم ، ولم يعودوا يقومون بحملات طويلة الأمد إلى ديار الأعداء ، يطول فيها اغترابهم عن منازلهم وأسرهم . وهكذا زعزعت القبيلة العربية القواعد التي قامت عليها إمبراطورية الأمويين العالمية . وحين أدرك ذلك مروان بن محمد ، آخر الخلفاء الأمويين ، الذي ولي الخلافة في ٢٥ صفر ١٢٧هـ/٧ كانون الأول ــ ديسمبر ٧٤٤م، جرّب إدخال نظام حربي جديد ، وبموجبه استعاض عن الكادر القديم الذي كان أساسه القبائل العربية ، بفرق من المرتزقة . وقد نجح بمساعدتها ، بعد بضع سنوات من القتال العنيف ، في فرض هدوء نسبي في مرجل الفتن ، الذي كان يشمل العراق وجزيرة ابن عمر والولاية الأموية الخاصة أي ديار الشام ، حيث كانت قيس وكلب والخوارج والشيعة وعددٌ من المطالبين بالخلافة يقتتلون ويختلفون على هواهم ؛ إلاّ أن هذا النجاح لم يفد مروان نفسه ، بل أفاد قوة جديدة متمثلة بأبي مسلم الخراساني ، زعيم الدعوة العباسية ، الذي انقض عليه بعد مدة قصيرة .

* * *

كان مما غذّى هذه الدعوة استياء المسلمين المحدثين من غير العرب . هؤلاء هم الموالي الذين كان عليهم أن يلتحقوا بقبيلة عربية، فيقاتلوا في صفوفها، إلاّ أنهم ، بسبب كونهم غير عرب ، ما كانوا يدوّنون في ديوان المقاتلة العرب ، الذين كانوا ينالون العطاء بموجب هذا القيد . وقد كان هؤلاء الموالي مواطنين من الدرجة الثانية في الدولة العربية الإسلامية . وبصرف النظر عن الناحية المادية ، كان الوضع الاجتماعي الذي جعل هذه الطبقة المنتمية لشعوب حضارية قديمة ، خاضعة للعرب القادمين من البادية ، مثيراً للتذمر بين أعضائها ، وخاصة الشريحة المثقفة منها . يضاف إلى ذلك إدراكها

أن هذا الوضع لا يتفق وروح الإسلام . وقد كانت هذه المشكلة حادة بشكل خاص في العراق وإيران . إذ إنّه هنا ، في منطقة الزرادشتية ، كان الإقبال على الإسلام قوياً ؛ بينما تمسك المسيحيون في الولايات الرومية السابقة بعقيدتهم . إلاّ أنّه من الجهة الثانية فإن الفرس كانوا يشعرون بأنهم أصحاب ماضٍ سياسي حافل ، مزّقه العرب بهجومهم الصاعق ؛ أما بالنسبة لسكان الشام ومصر فإن الفتح العربي ، كان مجرد استبدال سيادة بسيادة . ومن ثم فقد كانت قضية الموالي ، من حيث جوهرها ، قضية إيرانية ، واتضحت حدّتها في المنطقة الإيرانية .

فلم يكن من الغرابة بمكان ، في هذه الأحوال، أن تجد الحركات الثورية في ديار الإسلام أتباعاً كثراً لها بين الموالي . وقد استفاد الخوارج من هذه الحالة لأنهم كانوا يؤيدون النزعة القائلة بأن لا قومية ولا تمييز في الإسلام . وقد عرف الشيعة ، بشكل خاص ، كيف يجذبون الموالي إلى جانبهم . إن مبدأ الشرعيّة ، الذي كان الشيعة يقولون به ، أقنع رعايا الدولة الساسانية السابقين ؛ ومن المحتمل أنهم هم السبب في نقل الفكرة الإيرانية القديمة بتوارث الجلالة الملكية في الأسرة الحاكمة إلى الشيعة ، حيث بعثت من جديد على هيئة توارث النبوة في أعقاب محمد (ص) . وكان ترابط الموالي بالشيعة واضحاً في ثورة المختار ، الذي كان أكثر أتباعه ، من الموالي ، مستهدفاً إسقاط الأرستقراطية العربية . وبعد قمع الثورة سنة ٦٧هـ/ ٦٨٧م، أخذت الحركة تعمل في الخفاء على أيدي الموالي من الفرس ، وأخيراً استقرت في شمال شرق إيران ، في خُراسان ، حيث قام مركز شيعي ثان ، بالإضافة إلى العراق .

كان هشام خليفة نشيطاً فعّالاً ، إلاّ أنّه كان مكروهاً بسبب روحه التجاري . وفي زمنه في ١ صفر ١٢٢ هـ/٦ كانون الثاني – يناير ٧٤٠م قامت

ثورة شيعيّة صغيرة في الكوفة بقيادة أحد العلويين وهو زَيْدُ بنُ علي ، أحد أحفاد الحسين . وقد غُلِبَ الثّوار في اليوم التالي وقُتِلَ زيد . فهرب ابنه يحيى ، وكان حدثاً ، إلى خراسان ، حيث لاقى مصرعه بعد سنين من القتال ضدّ مضطهديه . فاتخذ العباسيون من وفاته هذه ، بعد وقت قصير من حدوثها ، نقطة انطلاق للدعوة ضدّ الأمويين .

وأعانت المعارضة التقية من مركزها في المدينة كل هذه التيارات الموجهة ضدّ النظام الأموي ، وإن كانت لا تتفق معها أبداً في الاتجاهات الثورية التي تنادي بها . إلاّ أنها بمرور الزمن ، قوّت المبدأ القائل بأنّ معاملة الموالي بهذا الأسلوب مخالفة لجوهر الإسلام .

***

هذه التيارات المتفرقة والموجهة ضدّ النظام الأمويّ كان باستطاعة العباسيين الآن أن يؤلّفوا بينها ببراعة بحيث تُصبح تياراً واحداً ضخماً ، وأن يُفيدوا منه في السير بقضيتّهم إلى النصر . فالعباسيون ، كالعلويّين ، كانوا فخذاً هاشمياً متحدراً من العبّاس بن عبد المطلب ، عمّ النبي ، الذي ظلّ مبتعداً عن دعوة ابن أخيه الدينيّة مدّة طويلة ، ولعلّه قاتل في معركة بدر سنة ٣هـ/٦٢٤م ضد محمد (ص) إلى جانب المكّيين ، ولم يعتنق الإسلام إلاّ في اللحظة الأخيرة ، لما أدرك أنّه لا مناص من ذلك . وكان ابنه عبد الله من أنصار عليّ بن أبي طالب ؛ ولما قُتِلَ عليّ (سنة ٤١هـ/ ٦٦١م) وسار معاوية إلى العراق ، أسرع عبد الله إلى مصالحة السيد الجديد وتخلّى عن الحسن وريث عليّ . وقد اشتهر عبد الله بن العباس برواية الحديث ، إلاّ أنّ الأحاديث الكثيرة جداً التي رويت عنه ، لا تقبل كلّها على علاّتها . وقد استقرّ ابنه عليّ بن عبد الله في الحُمَيْمة على مقربة من

أذرح على طريق الحج من الشام، وهو المكان الذي ظلّ مقرّ العباسيين حتى ظهورهم على المسرح . وقد كان محمد بن عليّ بن عبد الله أول من طالب بالإمامة ، وبدأ بالدعوة العباسيّة السرّيّة في العراق وخراسان . وقد توفي سنة ١٢٥هـ/٧٤٣م ، وورث عنه ابنه إبراهيم مطالبه ودفع بالدعوة إلى الأمام .

وقد هيّأت الدعوة العباسية سلسلة من الأكاذيب والخيانات والخدع. قلما عرف التاريخ تجميعاً مماثلاً لها . وكان أساس مطالبتهم بالإمامة ضعيفاً من الناحية الشرعية ، لذلك استغنوا عن استعمالها شعاراً لحركتهم واستتروا خلف الدعوة العلوية . صحيح أنهم أبدوا قليلاً من الصدق . إذ لم يقنعوا مطالبهم بمطالب العلويين مباشرة ، بل أعطوها معنى أوسع ، أي إنهم ادعوا القتال للهاشميين عامة بحيث أمكن تفسيره على أنه في صالح كلا الأسرتين . وصيغة العهد الذي تعهدوا به أمام أتباعهم لم تُشِر إلى إمام معيّن باسمه ، بل إلى ذلك الذي سوف يُرضى عنه (الرضا من آل محمد). وفي واقع الأمر ، فإن الشيعة الذين انضموا إلى الحركة الهاشميّة صدّقوا أنها كانت تطالب بإمام من العلويين . ولمّا ظهر أبو مسلم ، كبير دعاة العباسيين ، في خراسان ، طالب بالثأر ليحيى بن زيد . وزيد هو العلوي الذي قُتِلَ في ثورة سنة ١٢٢ هـ/٧٤٠م .

كان المركز الأصلي للدعوة العبّاسيّة الكوفة والعراق ، حيث كانت تتمركز النقمة على الأمويين ، التي تجمع بين الأماني الشيعيّة وسخط الموالي الفرس من وضعهم ونفور عرب العراق من سيادة مواطنيهم السوريين الذين كانوا يعتبرونهم أجانب . ومن العراق حاولت الدعوة العباسيّة أن تجد لها موطىء قدم في خُراسان . وبعد محاولات فاشلة أرسل الإمام العبّاسيّ إبراهيم بن محمد في سنة ١٢٨هـ/٧٤٥ — ٧٤٦م إلى خراسان أقدر من كان عنده من الدعاة، أبا مسلم، وهو مولى من أصل فارسي . وقد كان نجاحه كبيراً فضم

تحت لوائه كل المتذمرين ضدّ الأمويّين . وكان العنصر الرئيسي من أنصاره من الموالي الفرس ، كما تبعته فئات من العرب . وقد كان لدعوته فضل كبير في انتشار الإسلام في طبقة الدهاقين ، أصحاب الأراضي ، الإيرانيين في خراسان ، الذين كانوا إلى ذلك الوقت متمسكين بالزرادشتية .

في ٢٤ رمضان ١٢٩هـ/ ٩ حزيران - يونيو ٧٤٧م خرجت الحركة إلى النور إذ رُفعت الرايات السود التي بَعَثَ بها الإمام (كان السواد شعار العباسيين) وعَقِبَ ذلك طرْدُ الوالي نصرُ بن سيّار من مَرْو عاصمة خُراسان . وبعد هزيمته قرب طوس تخلى عن نيسابور (أواخر شوال ١٣٠هـ/حزيران - يونيو٧٤٨م) فدخلها أبو مسلم واتخذها مقرّاً له ؛ وأصبحت خُراسان بأجمعها في قبضة يده . وقد عهد أبو مسلم إلى نائبه ، قحطَبَة ابن شبيب ، القائد العربي ، بمتابعة الجنود الأمويّين المهزومين . وبعد أن سقطت نهاونْد ، آخر قاعدة للأمويين في إيران (ذو القعدة ١٣١هـ/ حزيران - يونيو - تموز - يوليو ٧٤٩م) ظهر قحْطَبَةُ في العراق . وبعد الانتصار الذي أحرزه الخراسانيّون قرب الأنبار على نهر الفرات ، والذي سقط فيه قَحْطَبَةُ قتيلاً في ظروف غامضة ، دخل ابنهُ حسنُ الكوفةَ دون قتال (١٣ محرم ١٣٢ / ٢ أيلول - سبتمبر ٧٤٩م) . وهنا خرجت حكومة العباسيين إلى العلن بقيادة وزيرها أبي سَلَمَة ، وانتقل العبّاسيون من مخبأهم في الحُمَيْمَة إلى الكوفة . وقد ألقى الخليفةُ مروان بن محمد القبض على الإمام إبراهيم ، وتوفي هذا في سجنه في حرّان ، أو لعلّه قُتِلَ . وخلَفه أخوه أبو العباس الذي تقبّل البيعة في مسجد الكوفة الجامع في ١٢ ربيع الثاني ١٣٢هـ/ ٢٨ تشرين الثاني - نوفمبر ٧٤٩م. وهكذا أظهر العباسيّون هدفهم الحقيقي وبدأوا ، وقد أصبحوا أصحاب السلطان ، بالتخلص من العلويين .

بعد سقوط نهاوَنْد كان قَحْطَبَةُ قد أرسلَ الجند إلى جزيرة ابن عمر لقتال الخليفة مروان ، وأمدهم بالعون بعد الاستيلاء على الكوفة . وقد وقعت على الضفة اليسرى للزاب الأكبر معركة استمرت من ٢ — ١١ جمادى الثانية ١٣٢هـ (١٦ — ٢٥ كانون الثاني — يناير ٧٥٠م) وانتهت بانتصار الخراسانيين بقيادة عبد الله بن عليّ العباسي وانكسار ساحق لمروان . واضطرّ الخليفة الأموي إلى الهرب ، ولحق به الخراسانيّون ، الذين دخلوا دمشق ١٤ رمضان ١٣٢هـ/٢٦ نيسان — إبريل ٧٥٠م . وفرّ مروان إلى مصر ؛ وقد حاصره مطاردوه في بوصير في صعيد مصر وهناك خرّ صريعاً ، بعد قتال عنيف . في ٢٧ ذي الحجّة ١٣٢هـ/ ٥ آب — أغسطس ٧٥٠م .

لقي بقيةُ البيتِ الأمويّ حتفهم على أيدي عبد الله بن عليّ في أبي فُطْرُس (أنتيباتْريس) في فلسطين (١٥ ذو القعدة ١٣٢هـ/ ٢٥ حزيران — يونيو ٧٥٠م) . ولم ينج من هذه المذبحة سوى رجل واحد هو عبد الرحمن ابن معاوية ، أحد أحفاد الخليفة هشام ؛ وقد نجح ، بعد سفر طويل مضنٍ ، في الوصول إلى إسبانيا حيث أسّس إمارة أموية فيها .

كان ثمة فصل آخر تلا سقوط الدولة الأموية هو ثورة العرب في الشام ضدّ العبّاسيّين . فقد بايع أهل الشام رجلاً من سلالة البيت الأموي الأول أي البيت السُّفياني ، هو أبو محمد . إلاّ أنّ الثورة قضي عليها (أوائل محرم ١٣٤هـ / أواخر تموز — يوليو ٧٥١م) ففرّ السّفياني ثم قبض عليه فيما بعد وقُتِل . وهو الذي يظهر اسمه « السُّفيانيّ » في الأسطورة الإسلاميّة المتعلّقة باليوم الآخر ؛ حيث يَسْبِقُ ظهورُه ظهور الدجّال .

* * *

لقد انهارت السيادة الأمويّة في الإمبراطورية العربية في بحر من

الدماء ؛ وبذبح الأمويين أزال العباسيون أي خطر قد يتهددهم من هذه السلالة . وهناك سببان رئيسيان لسقوط الدولة الأموية المريع . الأول ، هو نظر العربي إلى كل تجمع سياسي من زاوية ارتباطه بالقبيلة ، وهذا خطأ عربي موروث يتمثل في عصبية قبلية كان العربي يضعها فوق جميع الاعتبارات الأخرى . وبسبب سكنى العرب قروناً ، بل ألوفاً من السنين ، في أصقاع الجزيرة العربية الواسعة ، حيث لم يكن ثمة دافع لقيام تنظيم سياسي متماسك ، أصبحت هذه الخاصية القبلية طبيعة ثانية بالنسبة لهم ، فكانت تحول دوماً دون بناء دولة كبيرة . وقد أتيح لشخصيتين عبقريتين فقط ، النبي وخليفته الثاني عمر بن الخطاب ، لا أن يوحدا العرب لفترة قصيرة فحسب ، بل أن يدفعا بهذه الوحدة ليكون لها أثر في التاريخ العالميّ . ولكن كلما تقادم العهد على الدولة العربية التي أسسها هذان الرجلان ، اشتدت فاعلية الخطأ العربي المتوارث ؛ وقد برهن هذا على أنّه من المستحيل تحويل شعب يتكون من وحدات صغيرة متفرقة في السهوب ، وفي مدة لا تتجاوز بضعة أجيال إلى شعب موحد متماسك يحمل أعباء دولة عالمية . فالخلفاء الأمويّون المتأخرون لم يعجزوا عن ضبط العداء القائم بين القبائل العربيّة فحسب ، بل إنهم تورطوا فيه . وهكذا أدئ التمزق في الشعب العربي إلى نسف القواعد التي كانت الدولة ترتكز عليها . وبذلك أفلتَ العربُ الفرصةَ في أن يكونوا حملة إمبراطوريّة عالمية على النحو الذي أسّسها عمر . إن الإمبراطورية نفسها استمرت حتّى بعد سقوط الأمويّين ، إلاّ أن العرب لم يعودوا الحملة الوحيدين للعبء بسبب الاتجاه الذي اتجهه العباسيون ، بل أصبحوا عنصراً يضاف إلى عناصر أُخرى كثيرة ، تكوّنت منها الدولة الجديدة .

والسبب الثاني لسقوط السيادة الأمويّة يجده المرء في خطأ فادح في

بناء الدولة ، أهمل الأمويون إصلاحه أو لم يعوا أبعاده وعياً صحيحاً . والمقصود هنا هو التشادّ القائم بين التصميم الذي رسمه مؤسس الدولة وبـــين الفكرة التي على أساسها كان يجب أن يقوم بناؤها . فقد أقامها عمر بن الخطاب كما ذكر قبلاً على أنها دولة تحكم فيها فئة العرب المسلمين فئة غير المسلمين . وهذا التطور ساعد على نقل مركز ثقل أوروبا من الجنوب إلى الشمال ، من سواحل البحر المتوسط إلى ضفاف السين والراين والدانوب ، وإن كان سببه الأول هجرات القبائل الجرمانية . وما نتج عن ذلك ، وخاصة تأسيس دولة الفرنجة . وإذن فقد ساهم قيام الإمبراطورية العربية مساهمة جوهرية في خـــلق وتثبيت وضع سياسي عالمي أصبح ذا أهمية كأساس لتاريخ بلاد الغرب كذلك ، في العصور الوسطى

الفصل الخامس

إمبراطورية العباسيين الإسلامية

كان أبو العباس عبد الله الملقب بالسفاح أول خلفاء بني العباس . وكان تصرفه مطابقاً للقبه ، فقضى على كل مقاومة ظهرت ضد العباسيين . وقد توفي مبكراً (ذو القعدة ١٣٦هـ/حزيران — يونيو ٧٥٤م) وترك مكانه لأخيه أبي جعفر عبد الله المنصور (١٣٦هـ/٧٥٤م — ١٥٨هـ/٧٧٥م)؛ وصار من عادة العباسيّين أن يتخذوا ألقاباً لها صبغة دينية . كان المنصور المؤسس الحقيقي للسيادة العباسيّة ، وقد وطد أركانها بنفس أساليب الخداع ونكث العهود التي طبعت وصولَ هذه الأسرة إلى السلطان بطابعها . وكان همّه الأول أن يتجرّر من جميع العناصر الثورية التي كان العباسيّون مدينين لها في وصولهم إلى السلطة . بدأ بأبي مسلم الخراساني الذي استطاع أن يوجد لنفسه مركزاً قوياً في خراسان باتباع سياسة دينية شيعية متطرفة، ساعياً إلى ضم عناصر من مذاهب قديمة إلى حركته السياسية ، والتي لم يعد العباسيون بحاجة إليها بعد تولّيهم السلطان . فاستدرجه المنصور إلى العراق حيث قتله غدراً (رجب ١٣٧هـ/كانون الثاني — يناير ٧٥٥م) . وقد عاشت ذكرى أبي مسلم بين الفرس والترك إلى درجة ما حتّى الآن على أنّه بطلٌ قوميٌّ .

كان من المنتظر أن لا يسكت العلويّون عن تنحية العباسيين لهم . وقد قامت ثورة علويّة بالفعل بعد تولي المنصور الخلافة بمدّة قصيرة ، إلاّ أنها سرعان ما أُخمدت (١٤٥هـ/٧٦٢م) . بعـــد ذلك وقف الشيعة ، الذين بثّ العباسيون دعوتهم تحت لوائهم، يعارضون هؤلاء كما كانوا من قبل يعارضون الأمويين . وكانت تَظْهَرُ بين الحـــين والحين ثورات محلية تأييداً لمدعٍ علوي ، إلاّ أنها كانت دوماً فاشلة . ولم ينجح العلويون في انتزاع السلطة لأنفسهم إلاّ في أطراف الإمبراطورية ، في الجبال القريبة من بحر قزوين ، وكذلك في المغرب الأقصى .

ومنذ البداية لم تمارس دولة العباسيين السلطة الكاملة في الولايات القاصية في الغرب . فعبد الرحمن بن معاوية ، الذي نجا من حمام الدم في أبي فطرس ، استقر سلطانه في إسبانيا سنة ١٣٨هـ/٧٥٦م، ورفض الخضوع للعباسيين . وقد ترك له المنصور الحبلَ على غاربه ، ولم يتمكن الآخرون من خلفاء بني العباس من اتخاذ أيّ إجراء ضدّ الأمويين العصاة في إسبانيا . وهكذا ظلت الإمارة التي أنشأها عبد الرحمن ، والتي جعـــل قُرطُبَةَ عاصمتها ، مستقلة عن الخلافة العبّاسيّة . وفيما بعد اتخذ عبدُ الرحمن الناصر (٣١٧هـ/٩٢٩م) لنفسه لقب «الخليفة» .

كانت ثورة بربرية كبيرة قد قامت في شمال إفريقية في أواخر العهد الأمويّ (١٢٢هـ/٧٤٠م) . إن الأسباب التي حملت الموالي الفرس على الارتماء في أحضان الشيعة، هي نفسها التي كانت تعمل هناك أيضاً : فعند البربر، كان الخوارج هم الذين أفادوا من سخط المسلمين المُحدثين من غير العرب . وكان الاضطراب الذي حدث في المشرق وأدى إلى سقوط السلطة الأموية وقيام العباسيّين قد حال دون تدخل الحكومة يومها . ففي سنة ١٥٥هـ/٧٧٢م نجح المنصور في إعادة القيروان وولاية إفريقية إلى السيادة

العربية . إلاّ أنّ المغرب الأوسط والمغرب الأقصى ظلاّ تحت سلطان البربر وقد أنشأ إدريس بن عبد الله ، وهو علوي من نسل الحسن ، دولة في المغرب الأقصى (١٧٣هـ/٧٨٩م) . وابنه إدريس الثاني هو الذي أنشأ مدينة فاس (١٩٢هـ/٨٠٩م) ، التي صارت فيما بعد عاصمة للمغرب . ومنذ إنشاء دولة الأدارسة خرج المغرب الأقصى عن نطاق الخلافة في المشرق .

***

وبظهور العباسيين انتقل مركز الثقل السياسي من ديار الشام إلى العراق . وقد بنى المنصور سنة ١٤٥هـ/٧٦٢م مدينة بغداد على دجلة ، حيث يقترب هذا النهر أكثر ما يكون إلى الفرات ، وعلى مقربة من كتيسيفُون (المدائن) عاصمة الإمبراطورية الساسانيّة قبلاً . وقد كان القصد من إنشاء المدينة أن تكون معسكراً للخليفة وحرسه الخاصّ من الخراسانيين ، إلاّ أنّ بغداد تطوّرت بسرعة ، وأصبحت مدينة عالمية على حساب المدينة القديمة كتيسيفون والمِصْرين العربيّين الحيرة والكوفة . أما البصرة فقد حافظت على مكانتها بسبب موقعها عند مُلْتقى دِجْلَة والفرات وعلى مقربة من مصبّهما في الخليج العربي ، وازدهرت باعتبارها ميناء بغداد .

كان موقع بغداد على الحدود الفاصلة بين المنطقة المأهولة بالعرب والناطقة بالعربية من جهة ، والمنطقة المأهولة بالفرس والناطقة بالفارسية من جهة أخرى رمزاً للتكوين السياسي للخلافة العباسية وللروح التي كانت تسودها . إن دور العروبة كعنصر أساسي للسيادة أصبح في حكم المنتهي فقد وصل العباسيون إلى ما وصلوا إليه من منزلة بمساعدة الإيرانيين ؛ إلاّ أنّ هؤلاء لم يحلوا محل العرب كقاعدة للدولة . إن الأساس الذي كانت ترتكز عليه السيادة العباسية لم يكن شعباً معيناً ، بل كان الدين الإسلامي ؛ فباسم الإسلام لا باسم

القومية الإيرانية ، قامت الحركة العباسية . وقد كان هدفها إزالة السيطرة العربية عن الإسلام وإقامة ثيوقراطية إسلامية بالمعنى الحقيقي ، لا تأسيس سيادة إيرانية قومية . ومن ثم فقد تراجع العرب من مركز الصدارة ، وأصبحوا يقفون في صف واحد مع الإيرانيين وغيرهم من الشعوب الإسلامية ، وكوّن هؤلاء جميعاً طبقة عريضة جداً من المواطنين المتمتعين بحقوق متساوية،بينما تقلّصت طبقة أهل الذمة من غير المسلمين .

ومما يَرمز أيضاً إلى روح الدولة العباسية،قرب العاصمة بغداد من كتيسيفون (المدائن) . إذ يستطيع المرء أن يؤكد بأن بغداد وريثة عاصمة الإمبراطورية الساسانية السابقة . وهذا يمكن أن يقال أيضاً عن أسلوب الحياة الذي كانت تسير عليه هذه المدينة ، وخاصة بلاط الخليفة ؛ ذلك بأن تطور الدولة الإسلامية انحرف ، في الخلافة العباسية ، نحو الاتجاه الذي كان يسيطر على الحياة الرسمية في الدول الشرقية القديمة ومؤخراً في الدولة الساسانية . فبينما كان موقف الخليفة الأموي هو موقف السيد الكبير الذي كـــان يسوس الجماعة الموضوعة تحت رعايته بوسائل غير كافية وإنما بحكم منزلته المحترمة ، فقد كان موقف الخليفة العباسي موقف الملك الكبير ، على غرار ما عرفه الشرق القديم ، إذ كان يقوم بين يديه جيش لجب من الموظفين يأتمر بأمره ، وكان يتصرف بحياة رعاياه وأملاكهم تصرفاً مطلقاً . وبينما كان الخلفاء الأمويون يعتمدون على الحامية الشامية أولاً ، ثم فيما بعد ، ولسوء حظ الدولة ، على تكتلات قبلية معينة ، فإن الخلفاء العباسيين اعتمدوا على الحرس الخاص من المرتزقة الخراسانيين بادىء ذي بدء ، ثم من الرقيق التركي الأصل فيما بعد ، الـذين لم يكن لهم صلات تربطهم بالمواطنين ، ويعتمدون على صاحب السلطان اعتماداً مطلقاً . وبينما كانت السلطات الدينية والمدنية والعسكرية مجتمعة في يد واحـــدة ، في عهد

الأمويين، بحيث إن أكثر الولاة كانوا في الوقت ذاته أئمة وقواداً للجند، فقد قام في الدولة العباسية فصل تام بين السلطات الثلاث . فإلى جانب الموظفين المدنيين أي أصحاب القلم ، كان يقوم أصحاب السيوف وأصحاب العلم . وكان يقوم على رأس الحكم — على نحو ما كان في الدولة الساسانية وخلافاً لما كان في الدولة الأموية — الوزير، وهو ممثل الذات السلطانية التي نادراً ما كانت تُرى . وكان يرافق السلطان بالإضافة إلى الوزير ، الجلاّد الذي كان يحضر مجلس سيده بكامل معداته استعداداً لتلبية أوامره .

ومن المنشآت المميزة للدولة العباسية البريد، الذي كان على غرار البريد الروماني ، يقوم بنقل الأخبار الرسمية لا الأخبار الخاصة ، ويُعنى على وجه الخصوص بمراقبة الولايات والولاة . وقد كان صاحبُ البريد من أبعد الشخصيات نفوذاً في بلاط الخليفة ، إذ كان عين الخليفة وأذنه . وقد وجدت عادات الشرق القديمة ترحيباً فيما سمح به الإسلام للمسلمين من التسري بما ملكت أيمانهم، بالإضافة إلى الزوجات الأربع، على أن يكون لأبناء السراري ما لأبناء الزوجات حقاً ومكانة . فبينما كان الأمويّون ينظرون إلى هذه القضية نظرة أرستقراطية وكانوا يتزوجون عربيّات رفيعات النسب (حتى أن مَسلمة ابن عبد الملك ، الذي قاد الحملة ضد القسطنطينية في خلافة سليمان ، حُرِمَ من تولّي الخلافة لأن أمّه كانت أمَة) ذهب العباسيون في الاستمتاع بما حلله الإسلام إلى حدّ بعيد . الأمر الذي أعطى للحريم قوة متزايدة في الدولة كما كان الحال في البلاط الساساني وقبل ذلك في الشرق القديم . وبينما كان العباسيون الأوّل يراعون التقاليد الأصيلة في الزواج ، آثر المتأخرون منهم طَرْحَ هذا الأمر جانباً ، واحتلت الإماء ، من أي أصل كان ، مكان الحرائر صاحبات النسب، في القصور . والعباسيون المتأخرون بأجمعهم كانت أمهاتهم من الجواري . وقد أدّى هذا إلى تزايـــد الدماء الأجنبية في

الأسرة : الدم الفارسي أولاً ثم التركي .

لا ريب في أنّ الكثير من تقاليد الساسانيين في الحكم دَخَل في بناء الدولة العباسية، وهي التقاليد التي ظلت حيّة عند نبلاء الفرس، وانتقلت إليه مع العديد من أصحاب المناصب العليا في الدولة الذين كانوا من أصل فارسي . وقد اشتهرت من الفرس أسرة البرامكة ، التي جاءت من بَلْخ (بكترا القديمة) في شرق إيران ، والتي زوّدت الدولة بثلاثة أجيال من كبار الموظفين والمستشارين في عهد الخلفاء المنصور ، ومحمد المهدي (١٥٨هـ/٧٧٥م — ١٦٨هـ/٧٨٥م) ، وموسى الهادي (١٦٨هـ/٧٨٥م—١٦٩هـ/٧٨٦م) ، وهارون الرشيد (١٦٩هـ/٧٨٦م — ١٩٣هـ/٨٠٩م) ، وكان لها دور رئيسي في بناء الدولة . فتح البرامكة الطريق لعدد كبير من رجال الدولة الإيرانيّي الأصل الذين وقفوا بجانب الحكام العرب أولاً ، ثم الأتراك والمغول فيما بعد ، وفي أحيان كثيرة استقلوا بإدارة الدولة . وفي سنة ١٨٧هـ/٨٠٣م قضى الرشيد على البرامكة، لسبب لا ندريه .

وفي الشؤون المتعلقة بالدين الإسلامي ، نحا العباسيون منحى الساسانيين في موقفهم من الزرادشتية . ففي الوقت الذي كان الأمويون ينظرون إلى الإسلام، على أنه مطابق لما عليه الجماعة ، أو بعبارة أخرى لما عليه دولتهم، كاد الإسلام في زمن العباسيين ، أن يتخذ شكل «الكنيسة الرسمية» والمؤلفة من سلّم وظائفي يرأسه قاضي قضاة العاصمة ويليه القضاة ورجال الدين . وكما أعطى الملوك الساسانيون أهمية للدين الصحيح ، وكما كان الملوك الساسانيّون يتشدّدون في الحفاظ على الدين القويم ، كذلك أعطى العباسيون أهمية للسنّة الصحيحة على أنهم حماتها ، إلاّ أنهم كانوا، في الوقت ذاته، سادتها . أما المعارضة التقية التي كانت قد تمركزت ، أيام الأمويين ، في زاوية نائية ، هي المدينة المنورة ، فقد روّضها العباسيون بالرفع من شأن

أفرادها ونقلهم إلى البلاط. وقد أصبحت المسائل الدينية ذات صفة سياسية، كثيراً ما تقررها الدولة باستخدام سلطتها. وكان يقام في بغداد محكمة لامتحان رجال الدين لمعرفة آرائهم. ومعاقبة الخارجين (الهراطقة) بالقتل كان أمراً مألوفاً .

بقيام الدولة الإسلامية التي وضع أسسها النبي محمد (ص) ، والتي حققها عمر بن الخطاب بالفتوحات العربية ، ثم أتمها وثبّتها الأمويون ، نشأ وضع سياسي عالمي وقفت فيه منطقة سيادة إسلامية شرقية مقابل منطقة سيادة مسيحية غربية . إلاّ أن المنطقة الإسلامية كان لا يزال ينقصها بناءٌ ثقافي موحد . ففئة السادة من العرب المسلمين ، وفئة المحكومين من غير المسلمين غير العرب كانتا تعيشان في دائرتين منفصلة واحدتهما عن الأخرى، ويكاد يقتصر الاتصال بينهما على كون الفئة الثانية تعمل من أجل الأولى . وفيما بينهما كانت تقف فئة المسلمين من غير العرب ، وهي الفئة التي كانت تزداد عدداً باستمرار ، ولم ينجح نظام الدولة الأموي في امتصاص سخطها ، وكانت إحدى المشاكل الصعبة التي تحطمت الدولة بسببها . أما وقد سقطت الحواجز في أيام العباسيين بين العرب وغير العرب ، وأصبحت العناصر المختلفة مواطنين كاملين في الدولة ، فقد أمكن التوفيق بين حضارة الشرق الأدنى القديمة ، التي كان وسطاؤها في هذه الحقبة الجديدة أولئك الذين اعتنقوا الإسلام من غير العرب، وبين روح الإسلام الجديدة، التي أتى بها العرب . ومن هذا قامت ثقافة إسلامية موحدة ، عمت الدولة في أبعادها . وترتّب على ذلك أنه حتّى بعد أن انقسمت الإمبراطورية إلى دويلات منفصلة ، وبعد أن قامت في البلاد الإسلامية ثقافات محلية مرتبطة بالشعوب والمناطق المختلفة فقد ظلت هذه الثقافات تجمعها سمات موحدة إلى حد بعيد، ولم تتنكر لأصلها النابع من الثقافة الإسلامية العامة في العصر العباسي . وبخلق هذه الثقافة العامة للإمبراطورية نالت خلافة بني العباس أهميتها في تاريخ العالم .

إن الحضارة الإسلامية ، على نحو ما نعرفها في صيغتها النهائية في أواسط العصور الوسطى ، تبدو وكأنها ذات أصالة متميزة ، بحيث إن الذي ينظر إليها نظرة سطحية يرى فيها خَلقاً منفرداً لا يمت إلى الشرائح الثقافية الأخرى بصلة . ومع ذلك فهي في الواقع خَلْق معقد التركيب ، دخل في تكوينه العديد من العناصر الثقافية . وأهم هذه العناصر كان بطبيعة الحال ، الدين الإسلامي نفسه الذي يقع بالنسبة للمسلم في قمة القيم، ويزوده بالمقياس الذي يقيس به كلّ القيم الأخرى التي يقابلها في الحياة . وهكذا زال تفوق العنصر العربي بمفهومه القومي، وحلت محله العربية بمفهومها اللغوي . وكان لهذا الأمر تأثير بالغ على من يقف خارج نطاقه لدرجة أنه كان يتصور أن الثقافة الإسلامية ثقافة عربية . إلاّ أنّه تصور خاطىء، كما لو أن المرء سمى الثقافة الغربية في العصور الوسطى ثقافة لاتينية . ومعنى هذا أن العروبة ليست بالمميز الأكثر أهمية لبنية الثقافة الإسلامية، وإنما هي مجموعة العناصر المختلفة العائدة لثقافة العالم المتحضر القديم في الشرق الأدنى ، التي كانت موجودة حين استقر الإسلام في هذه المنطقة . وعن عملية الجدل والمناقشة بين هذه العناصر التي لم يمكن تجنبها ، وبين الإسلام ، نتجت الثقافة الإسلامية .

* * *

إن ما أضاعه العرب من سيطرة سياسية عوضوه إلى درجة ما بسيادة اللغة العربية القائمة على الإسلام والقرآن الكريم . ولم تصل العربية إلى هذا المركز إلاّ بعد أن أصبح المسلمون من غير العرب مواطنين كاملين في الدولة . وأضفى القرآن ، وهو كلمة الله ، القداسة على اللغة العربية لأنه أُوحيَ بها . ومن الواضح أن القرآن كان يُتلى بالصيغة التي أُوحي بها فقط، أي باللغة العربية ، ولم يكن ثمة مجالٌ للبحث في أمر ترجمته قط . فكان يتحتّم

على المسلمين من غير العرب أن يتعلموا العربية كي يفهموا القرآن . وقد أدت هذه الضرورة إلى الاهتمام بعلوم اللغة العربية. ولم يكن من قبيل المصادفة أن يقوم على خدمة هذه العلوم جماعةٌ من غير العرب بصورة خاصة . وكان أبو هذه الدراسات رجلاً فارسياً اسمه سيبويه . (توفي سنة ١٧٧هـ/٧٩٣م أو ١٨٠هـ/٧٩٦م). وبعض هذه العلوم كان يدور حول فقه اللغة ، مما أدى إلى العناية بالشعر القديم والبحث عنه وصيانته ، إذ إن شواهده كانت تعتبر أصح نماذج العربية، ومن ثم كان يستعان بها على فهم ما غمض يومها من التعابير القرآنية . وكان من ثمار هذه العناية تثبيت قواعد اللغة المكتوبة .

ومما لا يحتاج إلى توضيح هو أن الموضوعات الدينية المبنية على القرآن والسنّة وكل ما يخص الشريعة كذلك ، كانت جميعها يعبر عنها باللغة العربية . ومن ثم فقد أصبحت اللغة العربية لغة الفقهاء في العالم الإسلامي بأجمعه ، بغض النظر عن لغتهم الأصلية، وكذلك لغة العلم بشكل عام . وهذا التطور قوّى مقدرتها على التعبير بحيث إن اللغة العربية أصبحت في عداد لغات العالم ، مثل اللغة اللاتينيّة، التي يسهل بها الإفصاح عن المفاهيم بصيغ دقيقة . وكذلك كانت اللغة العربيّة لغة الدواوين في العاصمة وفي الولايات ؛ وكانت هي اللغة الوحيدة التي تستعمل في المراسلات الرسمية . وكانت أيضاً لغة التعامل في المنطقة الممتدة من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب .

وقد بدت نزعة عامة هي انتشار اللغة العربية خارج مجال الشعب العربي كلغة شعبية، وذلك بواسطة الإسلام . وهنا ثمّة فرق يجب توضيحه . فالذين اعتنقوا الإسلام من الآراميّين والمصريين كان نجاح العربية كلغة شعبية بينهم تاماً؛ ذلك بأنهم حين اعتنقوا الإسلام تعرّبوا لغةً . وقد نجحت العربية في أن تَنْتَشر حتى بين الذين ظلّوا مسيحيين منهم ، فأزاحت الآرامية الغربية والسريانية والقبطية عن مجال التعامل الحياتي ، وذلك في عملية امتدت بطبيعة الحال

قروناً . وهذا مظهر آخر من مظاهر تطور اللغة العربية إلى لغة عالمية ، ويترتب على وجود عناصر قومية مختلفة بين المتكلمين بالعربية ، نشأةُ اللهجات العامية المتباينة ، التي كانت تبتعد أكثر فأكثر عن اللغة الفصحى . مقابل ذلك نجد أن الإيرانيين وبعض البربر لم يتعرّبوا مع اعتناقهم الإسلام، بل حافظوا على لغاتهم ؛ فالإيرانيون طوّروا ، مع الزمن ، لغتهم الفارسية من جديد إلى لغة كتابةٍ وأدبٍ ، وصلت فيما بعد إلى أهمية لا تقل عن أهمية اللغة العربية بل فاقتها في مجال الشعر والأدب . أما الخط العربي فقد انتشر في العالم الإسلامي انتشاراً تاماً . حتى الشعوب الإسلامية غير العربية ، مثل الفرس والأتراك فيما بعد ، كتبت لغاتها بحرف عربي . وقبول الخط العربي كان مرتبطاً باعتناق الإسلام ، ومن ثم فقد انتشر الأولُ مع الثاني من ضفاف الفولغا إلى مدغشقر ومن سواحل المحيط الأطلسي إلى سور الصين .

إن الشعار الذي حمله العباسيون في دعايتهم ضد الأمويين كان الإسلام . ومن ثمّ فإن الفئات المعارضة للنظام الأموي باسم الإسلام كانت الحليف الطبيعي للعباسيين . وقد نشأت من هذه الفئات ، في حماية الحكومة العباسية ، مجموعة من علماء الدين تغلغلت خلال جميع طبقات الشعب وسيطرت على الرأي العام في العالم الإسلامي سيطرة مطلقة . وقد حدث هذا دون أن يكون ثمّة جهازٌ خاص لمجموعة العلماء هؤلاء ، وإنما بفعل الثقافة الدينية المشتركة بين أعضائها، والموحّدة إلى حد كبير بفضل الارتباط الشديد بالتقاليد، الارتباط الذي لم تكن تستغني عنه كل العلوم الدينية المعترف بها . وهذا الاهتمام بمصادر الدين أي القرآن والسنّة ، الهادف إلى استقصاء الإرادة الإلهية في الحياة الخاصة والعامة ، كانت ثمرته صياغة الأحكام المفصلة للشريعة . وبالطبع لم يصل العلماء إلى اتفاق تام فيما يختص بالأصول والفروع . فقبل كل شيء ظلّ ثمّة أمرٌ مُتنازَعٌ فيه وهو المدى المسموح به للرأي الشخصي في استنباط

الأحكام. والخلاف حول هذه المسألة تأرجح كثيراً من جهة إلى جهة . وانتهى الأمر بأن قُبلت المذاهب الأربعة السنية المنسوبة إلى الأئمة الأربعة وهم : أبو حنيفة (توفي ١٥٠هـ/٧٦٧م) ومالك بن أنس (توفي ١٧٩هـ/٧٩٥م) والشافعي (توفي ٢٠٤هـ/٨٢٠م) وأحمد بن حنبل (توفي ٢٤١هـ/٨٥٥م) . وقد تُرك للمسلم الحرية في اختيار المذهب الذي يرغب في اتباعه . إلاّ أنّ بعضاً من هذه المذاهب سادت في مناطق معيّنة. ففي عاصمة الدولة سادَ المذهب الحنفيّ أولاً ثم تغلّب المذهب الشافعيّ. وفي هذا العصر الكلاسيكي للفقه الإسلامي ظهر مبدأ هام في استنباط الأحكام وهو « الإجماع » الذي يقول بأن الصحيح والحق هو ما أجمع عليه في وقت ما العلماء، الذين هم ممثلو الجماعة الإسلامية الشرعيون. فقد روي عن النبي قوله « لا تجتمع أمّتي على ضلالة » . وهكذا نُقلت عِصمة النبي ، التي منحها بوصفه حامل الوحي الإلهي ، إلى الجماعة — الأمة . وعلى أساس الإجماع اختار العلماء ما يمكن اعتباره صحيحاً من العدد الضخم من الأحاديث المنسوبة إلى النبي . وقد جمعت الأحاديث الصحيحة على كثرتها في كتب الحديث ، وأشهرها اثنان : صحيح البخاري (توفي ٢٥٦هـ/٨٧٠م) وصحيح مسلم (توفي ٢٦١هـ/٨٧٥م). وعن طريق الإجماع أُتيح للأمة بلسان ممثليها الشرعيين (العلماء) قبول أو رفض مقولات أو عادة ما. وبذلك حصل الإسلام أخيراً على الوسيلة التي مكنته من الجدل المثمر مع الحضارة التي وجدها لدى قدومه .

إن دخول العدد الكبير من غير العرب في الإسلام، ومساواة أوضاعهم بأوضاع العرب ، فتح باب المناقشة والجدل مع القوى الفكرية التي كانت فعّالة في العالم الثقافي في أواخر العصور القديمة، أي الإيرانية والهلّينيّة والمسيحيّة والمانويّة . وقد التقينا بالعناصر الإيرانية من قبل لدى تكوين الفكر الشيعي في العصر الأمويّ كما قابلناها في بناء الدولة العبّاسية . وقد كانت

فاعليتها ، أيام العباسيين ، تشمل مختلف المجالات بحيث تم لها أن تكون ، إلى جانب العربية ، وبغض النظر عن الدين الإسلامي نفسه ، العنصر الأساسي للثقافة الإسلامية . هذه الثقافة التي قد تبدو للغريب عنها وكأنها عربية بسبب ثوبها اللغوي . إلاّ أنّه مما لا شك فيه أنها في جزء كبير من محتواها إيرانية . ونقدّم على سبيل المثال ابن المقفّع (توفي ١٤٠هـ/٧٥٧م) الفارسي الذي كتب بالعربيّة ، والذي لم ينتقل من الزرادشتية إلى الإسلام إلاّ في أوائل العصر العبّاسي . فقد نقل إلى العربية كتاب القصص المعروف باسم « كليلة ودمنة »،الذي تمّت ترجمته إلى الفارسية المتوسطة (البَهْلَوية) في أيام كسرى الأول ، وهو منقول عن كتاب هندي اسمه « پانشتانترا »؛ كما أنه ترجم كتاباً فارسي الأصل هو (خُداي نامه) أو « كتاب الملوك » الذي كان يحتوي التقاليد التاريخيّة للإيرانيّين . وبكليلة ودمنة أدخل ابن المقفع حيوية جديدة في النثر العربي،وبدأ فيه غرضاً خاصاً ازدهر فيما بعد ولمدة طويلة وعرف باسم أدب الملوك ، ويتضمّن هذا النوع من الأدب نصائح ووصايا للأمراء . وبكتاب الملوك أدخل في الصورة التاريخية الإسلامية التقاليد التاريخية الإيرانية . وبذلك أنعش التأليف التاريخيّ بالعربيّة. أما الديانة الإيرانية أي الزرادشتية فبالمقارنة ، لم يكن لها في بناء الثقافة الإسلامية إلاّ أثر ضئيل . ذلك بأنها ، لما جاء الإسلام ، كانت قد استنفدت حيويتها ولم تلعب دوراً سوى نوع من المغازلة الرومنطيقية مع التقاليد الإيرانية القديمة .

ولم تكن الهلينية ، بالنسبة لبناء الثقافة الإسلامية ، أقل أهمية من الإيرانية ، فقد كانت الأوساط المسيحيّة المثقّفة مراكز لرعايتها وخاصة في الولايات الواقعة على سواحل البحر المتوسط ، ديار الشام ومصر ؛ إلاّ أنّ الهلّينية كانت قد أنشأت لنفسها مكانة قويّة في العراق أيضاً ، وحتّى

في إيران نفسها ، بسبب دعوة العلماء والفنانين من الإمبراطورية الرومانية إلى ذينك البلدين ، في أيّام الساسانيين : ومثلما كانت أنطاكية والإسكندريّة بالنسبة إلى الغرب ، كانت جنديسابور في خوزستان بالنسبة إلى المشرق الساساني . وكان للهلّينية مركز آخر في حرّان في ما بين النهرين التي ظلّت تقطنُها جماعةٌ وثنية حتى في أيام الإسلام ، مدعية أنها الصابئةُ الذين منحهم القرآن الامتيازات نفسها التي مُنحت للمسيحيين واليهود . وازداد تأثير الهلّينية على الإسلام بازدياد عدد النصارى الذين اعتنقوا الإسلام .

ازدهرت الإيرانية وكذلك الهلّينية في أيام الخليفة عبد الله المأمون (١٩٧هـ/٨١٣م — ٢١٨هـ/٨٣٣م) الابن الثاني لهارون الرشيد . كانت أمّ المأمون فارسية الأصل ولذلك كان يشعر بارتباطه بالإيرانيين ؛ وكان والياً على خراسان سنوات طويلة ، حيث ألِفَ الطبيعة الإيرانية ، وانفتح على جميع التيّارات الفكرية القادرة على إغناء الثقافة الإسلامية متخطية الحدود العربية،فأنشأ في بغداد مؤسسة علميّة عُرفت باسم «بيت الحكمة» سارت على منوال جنديسابور ، واهتمت ، قبل كل شيء ، بترجمة الكتب الكلاسيكية اليونانية إلى العربية . وقد نُقل بعضها عن ترجمات سُريانية متوفرة ، وبعضها الآخر عن اليونانية رأساً . وكان المترجمون هنا أيضاً من المسيحيين مثل حُنَين بن إسحاق وهو عربي مسيحي من الحيرة (توفي ٢٥٩هـ/٨٧٣م) وابنه إسحاق (توفي ٢٩٧هـ أو ٢٩٨هـ/٩١٠م أو ٩١١م) ، وقُسطا بن لوقا البعلبَكيّ ، وهو يونانيٌّ أصلاً (توفي حوالي ٢٩٩هـ/٩١٢م) وثابت بن قُرّة الحرّانيّ (توفي ٢٨٨هـ/٩٠١م) . لم يكن الاهتمام بالأعمال الكلاسيكية اليونانية صادراً عن دافع إنساني من أجل المعرفة ؛ بل إن الحافز إلى العناية بالترجمة كان ذا غاية نفعية، أي الإفادة من معارف القدماء استفادة عملية . ولم يلتفت العباسيون إلى هومر ، أو كتّاب

التراجيديا الكبار من أهل أتيكا ، أو حتى إلى هيرودوتس أو ثوقيديدس المؤرخين ، كما لم يهتم بهم الساسانيون من قبل ، وإنما عنوا بالأطباء مثل أبقراط وجالينوس ، وبالرياضيين مثل إقليدس ، وبالجغرافيين والفلكيين مثل كلوديوس بطليموس ؛ ولكنهم عنوا أيضاً ، وبشكل بارز ، بالفلاسفة وخاصة أرسطو ، كما ترجموا بعض محاورات أفلاطون . وعن طريق هذه التآليف انتقلت صورة الكون التي عرفها العالم القديم ، وعلوم اليونان التطبيقية ، إلى العالم الإسلامي في العصور الوسطى ، وانتقلت معها صُوَرٌ لأشباه العلوم منتزعةٌ من الهلّينية (مثل التنجيم والسحر) ، وقد لاقت رواجاً في العالم الإسلامي كما في عالم العصور الوسطى في الغرب أيضاً .

* * *

أمّا أن المسيحية ، التي كانت ذات صلة بالإسلام في دور نشوئه ، قد أثّرت في تطوّره فيما بعد أيضاً ، فأمر لا يدعو إلى الغرابة ، إذ إنّ المسيحيين الذين كانوا ينتقلون من المسيحية إلى الإسلام كانوا في تزايد مستمر . وقد نبّهت بعض أقوال الرسول الناس إلى درس الكتاب المقدس رغبة منهم في العثور على مواضع فيه قد تنبىء عن ظهور محمد (ص) . وما بحثوا عنه وجدوه . فعثروا في الكتاب المقدس وكذلك في الهجّادة اليهودية على ما يفصل الأخبار المقتضبة التي وردت في القرآن عن الأنبياء الذين جاءوا من قبل . وبذلك صارت هذه الأخبار ، على قدر ما تتفق مع ما جاء في القرآن ، أمراً مقبولاً في الإسلام . والذي كان أكبر أثراً من ذلك هو تأثير التقوى المسيحية على الإسلام . فقد نتج التصوف الإسلامي عن هذا التأثير ، بالإضافة إلى غيره من المؤثرات خاصة البوذية التي كان جزء من شرق إيران مسرحاً للتبشير بها . وتتضح صلة التصوف بالتنسك

المسيحي في التشابه بين زي الرهبان وزي المتصوفين المسلمين الأوائل ، أي في خرقة الصوف الذي اشتق منه اسم التصوف . وكان أول ما ازدهر التصوف في القرن التاسع الميلادي/ الثالث الهجري ، وظهرت فيما بعد الطرق الصوفية المختلفة . وفي أواخر العصور الوسطى دخلت فيه آراء من الأفلاطونية الحديثة (نيوپلاطونية) ، وهي التي دفعت به ، مع الزمن إلى اتجاه غلبت عليه تصورات مشابهة للغنوسية ، أي لمذهب العرفان كما عرفته الهلّينية والمسيحية .

وقد كان للمانَويـّة دور خاص في بناء الثقافة الفكرية في الإسلام . فالمانويّة هي نظام ديني يسعى إلى التأليف بين أديان مختلفة على أساس غنوسي ؛ وكان يداخلها عناصر من الفلسفة الهلّينية الشعبية ، خاصة آراء الأفلاطونيّة الجديدة ، وكانت المانوية قد أخمدت في الإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية الساسانية على السواء ، ولكنها عاشت رغم ذلك خفية في الإمبراطوريتين ، مستترة إلى حد ما تحت قناع من العقلانية . وأصبحت في أواخر الأزمنة القديمة الدين الشائع في الأوساط المثقفة ، التي لم تجد ما يرضيها في الزرادشتية أو في المسيحية ، الدينين التقليديين السائدين وقتذاك . وعندما اعتنقت هذه الأوساط الإسلام ، واصلت المانوية عملها فيه ، وترتب على ذلك نشوء اضطراب غير قليل في العالم الإسلامي ؛ ذلك بأن فئة معينة من الفئات الإسلامية المثقفة الجديدة اتبعت مذهباً كان في الحقيقة مانويّة مقنعة . فابن المقفع الذي نقل بعض التّراث الإيراني إلى الثقافة الإسلامية (كما سبق ذكره) يقال إنه وضع مؤلفات تتضمن تعاليم ثنوية (مانويّة) منافية للإسلام . وقد أعدم سنة ١٤٠هـ/٧٥٧م بسبب خلافٍ شخصيٍّ مزعوم مع الخليفة المنصور ، غير أن الوقائع تشير إلى أن إعدامه كان مرتبطاً بموقفه الديني . وكان موقفه هذا قائماً على تعاليم الدين المانوي أو التعاليم المشابهة للمانويّة كما كانت شائعة كثيراً يومها بين

المثقفين . وعلى كل حال فإن ابن المقفّع كان أحدَ النقلة الكبار لمثل هذه التعاليم إلى ميدان التأليف الإسلامي ، التي برزت بعد ذلك في تيارات منحرفة ، وخاصة عند غلاة الشيعة . وهؤلاء الذين كانوا يمثلون هذه الآراء المشابهة للمانوية ، كانوا يُعرفون بالزنادقة ، والكلمة مأخوذة من مصطلح إداريّ ساساني ، وتابعتهم المحاكم الدينية بشدة ، خاصة في أيام المهدي بين سنتي ١٦٦هـ/٧٨٣م و١٦٩هـ/٧٨٦م . وهذه الاتجاهات المانوية ذات أهمية كبرى بالنسبة للتطور التاريخيّ الفكريّ في العالم الإسلامي . فقد أثارت في فئات المسلمين نشاطاً فكرياً قوياً وحملت المفكرين على الجدل حول هذه الأمور ، بحيث نتج عن ذلك تنظيم العقائد الإسلامية على قواعد ثابتة .

وعمليّة الجدل والمناقشة بين الإسلام والثقافات القديمة في بلاد الشرق الأدنى حدث ذو أهمية كبرى في التاريخ الديني . وبما أن الإسلام هو إحدى الديانات العالميّة على وجه البسيطة ، فان لها دلالة هامة في التاريخ عامة . ولا يمكن عرض هذه العملية هنا بكاملها . فقد كانت نتيجتها قبول المناسب ورفض غير المناسب . وقد اقتبست العلوم الدينية الإسلامية مع الزمن عن الفلسفة اليونانية أساليبها الفكرية لدعم التعاليم القرآنية ، ونما ، تبعاً لذلك ، علم الكلام الإسلامي الذي كان ممثلاه البارزان الأشعري (توفي ٣٢٣هـ/٩٣٥م) والماتُريدي (توفي ٣٣٢هـ/٩٤٤م) وكل منهما أسّس بدوره مدرسةً كلاميةً خاصةً به . وبالرغم من وجود خلاف بينهما في قضايا جزئيّة ، إلا أنهما مقبولتان من أهل السنّة . وكذلك حصل أخيراً توفيق بين السنّة والتصوّف ، الذي كثيراً ما ظهر في أول الأمر وكأنّه منحرف . وقد تم هذا التوفيق على يد أكبر علماء الإسلام الذين عرفتهم العصور الوسطى وهو أبو حامد محمد الغزالي الخراساني

(٤٥٠هـ/١٠٥٨م–٥٠٥هـ/١١١١م). وبهذا فتح الغزالي الينابيع التي استقى منها أتقياء أهل السنّة لقرون عديدة من بعده .

* * *

وبعد أن أنزل الحكم العباسي العرب من مركز الصدارة إلى مركز وقفوا فيه في صف واحد مع الإيرانيين ، رجحت كفة هؤلاء مع الزمن لأنهم جلبوا معهم إمكانيات أكبر لبناء الدولة . وانتهى الأمر بأن استولى الإيرانيُّون على السلطة في الخلافة العباسيّة ، وإن كان ذلك لوقت قصير ، إذ إنّ شعباً آخر دخَلَ الشرقَ الأدنى ، وانتزع السيادة لنفسه ، وظلّ محتفظاً بها بشكل عام حتى العصور الحديثة – هؤلاء هم الأتراك .

بعد وفاة أشهر خليفة عباسي ، هارون الرشيد (٣ جمادى الأولى ١٩٣هـ/٢٤ آذار – مارس ٨٠٩م) الذي ألهبت فخامةُ بلاطه خيال الأجيال اللاحقة ، تكررت لعبة القوى كما كان عليه الحال حين استولى العبّاسيون على السلطة ، وكانت نتيجتها هـــذه المرة زيادة جديدة للنفوذ الإيراني . ذلك بأن ابني الرشيد اللذين كان قد استخلفهما على العرش وهما محمد الأمين وعبد الله المأمون ، كان أولهما ابن زبيدة ، ابنة عم الرشيد ، يعتمد على القوى العربية ويساعده في ذلك وزيره الفضل بن الربيع وهو من العرب ؛ بينما كان المأمون من أم فارسية ، يعتمد على القوى الإيرانية التي يثق بها ويؤيده في ذلك وزيره الفضل بن سهل . وقد أجج الوزيران الصراع بين الأخوين عقب وفاة الرشيد ، ونجح المأمون آخر الأمر ، بمساعدة القوى المحاربة من خراسان، التي كان والياً عليها في أن يُقصي الأمين (محرم ١٩٨هـ/ أيلول – سبتمبر ٨١٣م) ويتولى الخلافة . وقد كان هذا ، للمرة الثانية ، انتصاراً حاسماً للإيرانيين على العرب ، وترتب على ذلك

ازدياد نفوذهم في البلاط .

وقد خطا محمد المُعتَصم بالله (٢١٨هـ/٨٣٣م – ٢٢٧هـ/٨٤٢م) ، أخو المأمون وخلفه ، خطوة مشؤومة حين اتخذ حرساً جديداً من المماليك الأتراك والبربر بدل الحرس الخراساني الموجود الذي لم يعجبه . فصار هؤلاء وباء على سكان العاصمة الذين حقدوا عـلى الخليفة فآثر أن يترك بغداد ، وأن يبني له مركزاً جديداً للإقامة في سامرّاء ، الواقعة إلى الشمال من العاصمة ، وانتقل إلى هناك مع جنده (٢٢١هـ/٨٣٦م) . وهذه المدينة عني بها خلفه جَعْفَرُ المتوكل على الله (٢٣٢هـ/٨٤٧م – ٢٤٧هـ/٨٦١م) فوسّعها ، وازدهرت في أيّامه . ولكن الخلفاء بانفصالهم عن بغداد وَضَعوا أنفسَهم في قبضة قواد الحرس. وبعد أن ظَلّت سامرّاء مركزاً نيفاً وخمسين سنة، هجرَها المعتمدُ على الله سنة ٢٧٩هـ/٨٩٢م . إلاّ أنّ الخلفاء لم يتمكنوا ، حتى في بغداد ، من رَدْع حماتهم الجُدُد ، وقد تقلّص نفوذهم السياسي لدرجة أنّه لم يتعدّ ضَرْبَ زُعَماء الحرس واحدهم بالآخر ، ومحاولة تسيير سفينة سياستهم الضيقة خلال تضارب مطالب هؤلاء الزعماء، وهو دور مؤسف لمن كان قبلاً «أمير المؤمنين» الجبار القوي وخليفة النبي .

ولم يبقَ لنا من مقر سامراء القصير الأمد إلاّ الأنقاض التي كانت حقل بحث بعثة ألمانيّة بقيادة فريدرك ساره ، وذلك قبل الحرب العالميّة الأولى . وبما أنه لم يبقَ لنا من بغداد القديمة سوى محراب صغير ، فإنّ سامرّاء تقدم لنا بديلاً ذا قيمة . فنستطيع أن نَدْرُس هنا ، في مجال الفن تكوين الحضارة الإسلامية . فإنه جدير بالملاحظة بدء الإخراج إلى حيّز التنفيذ إحساس خاص بالشكل،علامته المميّزة في الزخرفة ــ إذا ما قورن بالطابع الكلاسيكي المتأخر للأبنية الأموية ــ غياب العناصر الجسدية

وازدياد مستمر في تجريــد العناصر النباتية من طبيعتها . ومن ثمّ فقد كانت زخارف سامراء خطوة تمهيديّة للزخرف الهندسي (أرابسك) في الفن الإسلامي في أواسط العصور الوسطى ،والتي أصبحت فيها زخرفة ورق الشجر السابقة خطوطاً تجريدية أو سطوحاً متداخلة لا تكاد تشير عناصرها إلى أصلها المنحدر من لولبيات نباتية . كذلك تحولت في المجال الإسلامي الزخرفة الشريطية الخاصة بالأزمنة الكلاسيكية المتأخرة ، إلى شكل هندسي ينسحب على السطح بأكمله والتي تملأ الآن فراغاته السداسية زخارف نباتية أرابسكية . ووجود الفن السامرائي في الولايات يعدّ هاماً كوثائق دالّة على مدى انتشار حضارة عاصمة الخلافة . وكمثل على ذلك يمكن ذكر جامع أحمد بن طولون (بني بين سنتي ٢٦٢هـ/٨٧٦م و ٢٦٥هـ/ ٨٧٩م) في القاهرة الذي نجد أنّه في هندسته ، في الجزء الأعلى اللولبي من المئذنة مثلاً ، وفي زخرفته متأثر بسامراء وكذلك مسجد سيدي عُقبة في القيروان (في تونس) الذي نجد أن مِنْبرَه الخشبي الرائع والبلاط المزخرف عند المحراب استُوردا من بغداد سنة ٢٤٨هـ/٨٦٢م . وكما كان الأمر هنا في مجال الفنون التشكيلية قريباً للعيان ، هكذا كان في جميع مجالات الثقافة : ففي عاصمة الدولة ، سواء في بغداد أم سامراء ، كان يتمركز النتاج الثقافي ؛ وكانت العاصمة هي التي تضع المقاييس في كل المجالات فينسحب أثرها عــلى الولايات حيث تقيم في كل منها الأساس لحياةٍ ثقافيةٍ ذات طابع إسلامي متشابه .

في هذا الزمن الذي بدأ فيه الوهنُ يدب في الخلفاء ، بدأ أيضاً تفكك الدولة وتجزؤها إلى دويلات حيث امتنع الولاة خاصة في الولايات النائية ، عن إرسال الواردات من الضرائب إلى الخزينة المركزية في بغداد ، واحتفظوا بها لأنفسهم ولم يرسلوا منها إلاّ إتاوة معيّنة إلى بغداد . كان

مركز هؤلاء الولاة ، الذين تسلقوا إلى منزلة الأمراء والذين بقي لقبهم (أمير) كما كان في السابق ، قوياً لدرجة أنهم استطاعوا توريث إمارتهم لأعقابهم . وهكذا تكوّنت في بعض الولايات أسرٌ كانت لا تزال تخضع للخليفة اسمياً ، إلاّ أنها في الواقع تمارس السيادة مستقلة في منطقة نفوذها . وقد بدأ هذا التطور منذ زمن الرشيد حيث أُرْغِمَ ، بعد قيام ثورة في ولاية إفريقية (تونس) ، على أن يمنح (سنة ١٨٤هـ/٨٠٠م) واليه هناك ،إبراهيم ابن الأغلب ، حكم تلك الولاية ولخلفه من بعده،لقاء إتاوة محدّدة . وقد حكم الأغالبةُ البلادَ نحو مئة عام (إلى سنة ٩٠٩م) ، قام قراصنتهم فيها بحملات بحرية – جهاداً في سبيل الله – ضد شواطىء بلاد البحر المتوسط المسيحية . وفي سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م احتلوا صقلّية التي ظلت منطقةَ سيادةٍ إسلاميّة وثقافةٍ إسلاميّة إلى أن فتحها النورمان بين سنتي ٤٥٣هـ/١٠٦١م و ٤٨٤هـ/١٠٩١م . وفي سنة ٢٠٤هـ/٨١٩م حمل المأمون بن الرشيد عامله في خراسان على نقل السلطة في ما وراء النهر إلى أربعة إخوة من آل سامان ، من نبلاء شرق إيران والذين خدموه بإخلاص في نزاعه مع أخيه الأمين . وقد حكم السامانيون هنا إلى سنة ٣٨٩هـ/٩٩٩م . وفي مناطق نفوذهم تطورت الثقافة الوطنية الفارسيّة الجديدة ، وكانوا هم المشجعين لها . وفي سنة ٢٠٥هـ/٨٢٠م منح المأمون قائده طاهر بن الحسين ، وأصله مثل السامانيين من شرق إيران ، ولاية خراسان وجعلها وراثية في أسرته . وفي أيام المعتزّ حصل أحمدُ بنُ طولون أحد قواد الحرس الأتراك ، على مصر ، ولاية وراثية في سنة ٢٥٤هـ/٨٦٨م ؛ وقد احتفظ بها الطولونيون إلى سنة ٢٩٢هـ/٩٠٥م . وفي جزيرة ابن عمر وشمال سورية (حلب) أنشأ بنو حمدان ، وهم أسرة عربية من قبيلة تغلب ، ولاية مستقلة في الواقع وذلك في القرن الرابع / العاشر . وكان أشهر رجال الحمدانيين سيف الدولة

(٣٣٢هـ/٩٤٤م - ٣٥٦هـ/٩٦٧م) الذي اشتهر بحروبه ضدّ البيزنطيين من ناحية، وبتشجيعه ورعايته الشعراء والأدباء والفلاسفة من ناحية أخرى كالمتنبي (٣٠٣هـ/٩١٥م - ٣٤٤هـ/٩٥٥م) . الذي يعتبره العرب أكبر شعرائهم ، والفيلسوف الكبير الفارابي (توفي ٣٣٩هـ/٩٥٠م) . وهكذا عمل كل من الأمراء العرب والفرس والأتراك بأساليب متشابهة على تكوين سيادات إقليمية مستفيدين من ضعف السلطة المركزية للدولة، الناتجة عن السياسة الاقتصادية المتقلبة التي كان يتبعها قواد الحرس . وقد ظلّت وحدة الدولة قائمة نظرياً ، بطبيعة الحال ، طالما كان أمراء الدولة يتركون الخليفة يغدق عليهم ، بل يعطون لهذه المنحة الصادرة من أعلى سلطة في الدولة قيمة كبيرة، ويستعملونها كوسيلة دبلوماسية في نزاعاتهم فيما بينهم أو في نزاعاتهم حتى في أسرهم نفسها .

عند منقلب القرن الثالث / التاسع إلى القرن الرابع / العاشر أصابت العالم الإسلامي هزّة عنيفة من موجة الحركة الشيعية التي كان قد قوي شأنها أثناء الفترة السابقة. وقد انقسم الشيعة إلى ثلاث اتجاهات تختلف اختلافاً كبيراً في طبيعتها ، وذلك إثر خروجهم من الحركة العباسية صفر اليدين وإزاحتهم جانباً من قبل العباسيين بعد أن ساهموا بنصيب وافر في ظهورهم . ويعود أكثر الاتجاهات اعتدالاً إلى زيد بن عليّ الذي كان قد قتل في المحاولة الفاشلة للقيام بانقلاب شيعي في الكوفة سنة ١٢٢هـ/٧٤٠م ؛ وسُمّي هذا الاتجاه بالزيدية ، نسبة له . والزيدية هي الفرقة التي اتسمت بالسياسة الواقعية بين الشيعة والتي لا تقبل بتعاليم بقية الشيعة الخيالية، والقائلة بأن المعرفة الإلهية تحل بالوراثة في جسد كل من أعقاب عليّ ، إنما تقدم السياسة الواقعية بأن الإمامة يتوارثها نسل عليّ عامة . ولا يفرّقُ الزيدية بين حَسَنيّ وحُسينيّ أي لا يقولون بانتقال الإمامة وراثياً في فرع دون الآخر ، وغاية ما يطلبونه من

الإمام، المهارة الحربية والمعرفة الدينيّة الأساسية ، وبذلك لا تختلف الزيدية في الواقع عن السنّة إلاّ فيما يتعلق بحصر الإمامة وتصعيد واجبات الإمام . ويعود وضع أُسُس التعاليم الزيدية إلى القاسم الرسي بن إبراهيم طباطبا الحسَنيّ (توفي سنة ٢٤٦هـ/٨٦٠م) . وقد أسّس حفيده الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين ، سنة ٨٩٧م دولة في اليمن جعل عاصمتها صَعْدة ، طبق فيها النظريات الشرعية الزيدية . وهذه الدولة الزيدية التي أنشأها ، والتي كان يتولى أمرها دوماً إمام علَوي لم يكن بالضرورة ينتسب إلى نفس الفرع من آل عليّ ، عمرت أكثر من بقية كل الدول التي قامت في اليمن .

ومنذ أن انسحب الأتراك من اليمن سنة ١٩١٨ عاد الإمام إلى تولّي السيادة كاملة . وفي سنة ١٩٦٢ بعد الإطاحة بالإمام المنصور ، الإمام الثامن والعشرين والخليفة التاسع والتسعين لمؤسس الدولة الهادي يحيى ، أصبحت اليمن جمهورية . وهكذا فإن الزيدية كانوا الوحيدين بين فرق الشيعة الذين نجحوا ، ولو في منطَقة صغيرة ، في أن يطبقوا نظريتَّهم على الواقع وأن يقيموا بناء سياسياً استمر إلى ما قبل الحاضر بقليل . ولم يكن هذا ممكناً إلاّ بسبب نظريتهم المتعلقة بالإمامة والواسعة الأفق نسبياً ، التي كان انطباقها على مُعطيات الواقع القاسية أسهل من نظرية بقية الشيعة الضيقة الشديدة التمسك بالشرعية .

وقد حصل اضطراب في صفوف السواد الأعظم من الشيعة والتي تعتقد بأن الإمامة تنتقل من الأب إلى الابن وذلك في سلالة الحسين فقط من أعقاب عليّ ، حين توفي سنة ٥٢هـ/٦٧٢م إسماعيل الابن الأكبر للإمام السادس جعفر الصادق ابن محمد بن عليّ أحد أحفاد أحفاد الحسين ، قبل والده . فبينما حوّلت الأكثرية منهم الوراثة إلى ابن آخر لجعفر هو موسى الكاظم وسلسلت الإمامة

في عقبه ، ظلت أقليةٌ مخلصةً لإسماعيل ، وأنكرت وفاته قبل أبيه ، واعتبرته خاتم الأئمة أي الإمام السابع ، ومنهم فئة صغيرة ختمت بابنه محمد التام على أنّه الإمام السابع ،ولذلك سميت بالسبعية أو « الإسماعيلية » . هؤلاء قالوا بأن إسماعيل دخل الغيبة وأنّه سيظهر في آخر الزمان على أنه المهدي ، ويفتتح عندئذٍ العصر الذهبي للإسلام . وقد كان السبعية أو الإسماعيلية هم أول من تعب من اصطحاب الإمامة الميئوس منها في الواقع عبر التاريخ الفعلي ، ولم يعنِ هذا التنازلَ عن الأهداف السياسية . بل إن المحافظة على هذه الأهداف زادت بواسطة رجال ظهروا كرسل الإمام المختفي ، كدعاة إلى الإيمان الصحيح ، وبينهم من يقول بأن إسماعيل سيعود بشخصه محيياً للإمامة . وقد أصبحت الإسماعيلية تمثّل في الإسلام الاتجاه الذي تشبع أكثر ما يمكن بالتأملات الغنوسطية على ما عرفتها الأفلاطونية الحديثة (نيوپلاطونية) أو الهرمسية ، بحيث أنها تطوّرت أحياناً إلى غنوسطية إسلامية عربية . وقد تبنت الإسماعيلية تعليماً يقوم فيه تصور نزول الوحي بشكل دوري على نحو ما ظهر للمرة الأولى في القرن الثاني للميلاد في المؤلفات المنسوبة إلى إقليمندس كنهج أ.اسي . وقد أحكموا المحافظة على سرّية تعاليمهم ،ونظموا أتباعهم نظام التسلسل الهرمي في درجات عدة وأهلوهم لكل منها تدريجياً . ومن ثم فقد كان الإسماعيليون يسمون أيضاً « التعليمية » . ومن الواضح أنّه كان لا بدّ من العثور على هذه التعاليم في القرآن ؛ ومن هنا أخذ الإسماعيليون أنفسهم بتفسير القرآن تفسيراً باطنياً، بالإضافة إلى تفسيره الظاهر وهذا التفسير الباطني كان الأخذ به يشكّل جزءاً كبيراً من تعليم الأتباع ، ومن هنا يسمى الإسماعيليون أيضاً« الباطنية » . إن تعاليمهم المركبة للغاية التي تجاوزت جداً ما حلل الإسلام في بعض الأحيان ، والتي تحمِلُ في طياتها خصائص ثيوصُوفيّةً ، ولا تخشى تأليه بعض الأفراد من البشر ، هذا بالإضافة إلى التحرّكات السياسية

السريّة التي يقومون بها باسم الإمام السابع، حملت السنّة وحتى بقية الشيعة على إطلاق اسم «الغلاة» عليهم ؛ وثمة بعض الفرق الإسماعيلية التي لم يعد ينظر إليها أحياناً على أنها مسلمة أبداً .

وقد ساق معظم الشيعة الإمامة من جعفر الصادق في موسى الكاظم وعقبه . وكان علي الرضا ، بن موسى الكاظم ، أي ثامن الأئمة ذا علاقة حسنة مع الخليفة العباسي المأمون . وقد عهد إليه المأمون سنة ٢٠١هـ/٨١٧م بالخلافة من بعده دون أسرته أي العباسيين . إلاّ أن ثورة قامت في بغداد بسبب ذلك ، لعدم الرغبة في نقل الخلافة من العباسيين إلى العلويين . وفي ربيع الأول ٢٠٣هـ/ أوائل أيلول ــ سبتمبر ٨١٨م ، فيما كان المأمون وعلي الرضا يقضيان بعض الوقت في طوس ، توفي الرضا فجأة أثناء توقفهما عند قبر الرشيد ، وبذلك أنقذ المأمون من هذه المشكلة . وبالطبع فإنّ الشيعة يدعون بأن السُّمّ دُسّ للرضا من قبل المأمون . وقد دفن الإمام الرضا على مقربة من قبر الرشيد وأصبح ضريحه ، الذي سميت مدينة طوس منذ ذلك الوقت باسمه «مشهد» ، ثالث مكان مكرم للزيارة عند الشيعة إلى جانب النّجف ، حيث ضريح الإمام عليّ ، وكربلاء حيث استشهد الحسين . وقد نسبت «الغيبة» إلى علي محمد المهدي بن الحسن ، الإمام الثاني عشر والخلف الرابع لعلي الرضا ، حين اختفى في سامرّاء وهو طفل في الخامسة من عمره وذلك في ٥ شوال ٢٦٠هـ/ ٢٤ تموز ــ يوليو ٨٧٤م . ومعظم الشيعة يقفون بالإمامة عنده ؛ ومن ثم فإنهم يسمون «الاثني عشرية» أو «الإمامية» . والإمام الثاني عشر يعيش عندهم في «الغيبة» ــ وهو إمام الزمان ــ وسيظهر ثانية عند نهاية العالم ، كما يدل اسمه المهدي على ذلك . وهـــذه الفرقة الرئيسية من الشيعة والتي تنتمي إليها الغالبية المطلقة من شيعة العراق وإيران ، أصبحت فيما بعد ذات نفوذ كبير وذلك في سنة ٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م،

حين جعل الشاه إسماعيلُ ، مؤسس الدولة الصَّفَوِيَّة ، الشيعةَ الاثني عشرية دين الدولة الرسمي في الدولة الفارسية الجديدة . والصَّفويُّون يَرجعون بنسبهم إلى موسى الكاظم .

* * *

والموجة الشيعية التي هزَّت العالمَ الإسلامي عند منقلب القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي ، إلى القرن الرابع هـ / العاشر م ، أثارتها الشيعة السبعية أي الإسماعيلية . وقد بدأت الحركة سنة ٢٥٤هـ/٨٦٨م بثورة العبيد الذين كانوا يعملون في أحوال سيئة جداً في المستنقعات القريبة من مصب الفرات . وكان هؤلاء من الزّنج ،وانضم إليهم فلاحون آراميون يسمّون بالأنباط . وهنا أيضاً استغل السخط مدّعٍ علوي يسمى علي بن محمد البُرقعي قال بانتسابه إلى الحسن ابن علي ونادى بالثورة التي اتخذت أبعاداً خطيرة بسبب ارتباط التذمر العائد إلى أسباب اجتماعية بحماس ديني ، إلى درجة أنها هدّدت سيادة الخلفاء على العراق . ولم يتمكن طَلْحَةُ الموفَّق ، وهو أحد أبناء الخليفة المتوكّل وأخو المعتمد الخليفة حينذاك ، من القضاء على الثورة (٢٦٩هـ / ٨٨٣م) إلاّ بعد خمس عشرة سنة من الجهد والعناء .

هذه الثورة التي لم يقضِ الانكسار الدامي على الخطر الناجم عن مؤيديها ، وجدت استمرارَها في حركة القرامطة التي قامت تحت شعار الإسماعيلية ، والتي أثارها ، في سنة ٢٧٦هـ/٨٩٠م ، رجل اسمُهُ حَمْدان قَرْمَط(ويبدو أن الاسم آراميّ الأصل) . وقد قامت على نظام سرّيّ ، متبعة أهدافاً شيوعيّة ؛ وسرعان ما شملت العراق بأجمعه تقريباً ، ثم امتدت إلى الأحساء (الحسا) على الخليج العربي . وبعد أن أخمدت في العراق بقسوة (وفاة زعيمها العراقي ذَكْرَوَيْه كانت سنة ٢٩٣هـ/٩٠٦م)

استطاعت أن تقيم لها في الأحساء (الحسا) حِصناً مَنيعاً تمكّنت به من إثارة الرعب في مقر الخلافة في بغداد : وقد خُرِّبتْ أراضي العراق ، وقُطِعَتْ طريقُ الحج ، واحتُلَّت مكّة نفسها (٣١٨هـ/٩٣٠م) ، وانتزع الحجرُ الأسودُ منها إلى الأحساء (الحسا) ، وهو حادث ملأ العالم الإسلامي بالفزع شبيه بما أصاب العالم المسيحي سنة ٦١٤ م ، لما أخذ الفرس صليب المسيح من القدس . ولم يشل اندفاع القرامطة سوى أمرين حدثا في ذلك الوقت : أولهما انتقالُ الزعامة في الدعوة الإسماعيليّة إلى الفاطميين ، الذين ستتحدث عنهم فيما يلي ؛ وثانيهما تقوية السلطة المركزية بواسطة البُوَيِّين (البويهيين) الذين سنشير إليهم كذلك . حتى أنهم في سنة ٣٣٩هـ/٩٥١م أعادوا الحجَر الأسودَ إلى مكّة ، بأمر الخليفة الفاطميّ المنصور . وقد ظلوا بعد ذلك لقرون متوالية دولةً مستقلةً في الأحساء (الحسا) .

ومع أن خطر القرامطة في العراق قد حُصِرَ ، فإن الدعوةَ الإسماعيليّة لم تمت . فقد قامت دعوة في البَصْرَة ، سنة ٣٧٣هـ/٩٨٣م ، ضد رابطة دينية سياسية سرية ذات نزعة شيعيّة متطرّفة ، أي إسماعيلية ، والتي كانت تسمى « إخوان الصفا » ، وتتخذ من البصرة مقراً لها . وقد خَلّفَ إخوانُ الصفا موسوعة مكوّنة من ٥٢ رسالة ، عرضوا فيها جميع ما عُرِف من العلوم وقتئذٍ بعد صبغها بصبغة الأفلاطونية الحديثة . وفي الحقيقة فإن هذه الموسوعة كانت تخدم الدعوة الإسماعيلية بين المثقفين مستّرة خلف اتجاه تثقيفي. وقد ساعدت فعلاً على نشر آرائها في الوسط المثقف للمسلمين ولو أنها لم تحقق هدفها السياسي . ومن ناحية أخرى أدى هذا في زمن لاحق حين قام رد الفعل السني ، إلى التقليل من شأن العلوم الكلاسيكية بسبب استعمالها في أغراض دعاوية . وقد نقصت العناية بها فعلاً في

الشرق في أواخر القرون الوسطى .

وقد كان لحركة القرامطة كذلك مراكز خارج العراق والأحساء (الحسا) في البلاد الإسلاميّة ، وكان يشار إليها بتعبير إسلاميّ قديم ، وهو «ديار الهجرة» ، والّتي تعني في الواقع مراكز النشاط : في ديار الشام وفي اليمن وفي خراسان وحتّى في المغرب . وكانت هـــذه ، قبل كلّ شيء مراكزَ للدعوة الإسماعيلية ، الّتي لم تكن ترمي إلى أقل من تثوير العالم الإسلاميّ بأسره ، وتَقْويض سيادة الإسلام السنّي وإقامة سيادة إسماعيليّة مكانها . وقد برز من المركز السوري للدعوة الإسماعيليّة الرجل الذي حوّل الأهداف السياسية للإسماعيلية إلى الواقع وأدخلها في التاريخ العالمي بطريقة أكثر تأثيراً مما استطاعه الإرهابيون القرامطة . كان هذا الرجل هو عبيدُ الله الذي ادعى أنه عَلَويٌّ وككل العلويين ينتسب إلى الرسول عن طريق ابنته فاطمة . إلاّ أنه يبدو أن هذا الأمر لم يكن إلا بغرض الدعاية للجماهير، والذي لم يؤخذ مأخذ الجد من المحيطين علماً بالأمور . وعلى كلٍّ فالأسرة الّتي أسّسها عرفت باسم الفاطميين . وبعد استعداد منظّم قام به داعيةٌ قدير ، ظهر عبيدُ الله على مسرح الأحداث سنة٢٨٩هـ/٩٠٢م في المغرب ، وأعلن أنّه ، المهدي ، وأوقد نيران ثورة أدت إلى القضاء على إمارة الأغالبة (سنة ٢٩٦هـ/٩٠٩م) وإقامة خلافة إسماعيلية في إفريقية (تونس) تنازع الخلفاء العباسيين سلطانهم ، وكانت هذه هي المرة الأولى الّتي تواجه فيها الخلافة العباسية قوة في جزء هام من العالم الإسلامي نجحت نظريّاً كذلك في جعل المنصب الخلافيّ موضع نقاش . وقد كان لاتخاذ الحاكم — الذي تسمى بالمهدي — لقب «أمير المؤمنين» دون أن يناله عقاب ، أثر قوي على النفوس . ولم يطل الوقت حتّى أعلن أمير إسبانيا الأموي ، عبد الرحمن (الثالث) الناصر ، نفسه

خليفة سنة ٣١٧هـ/٩٢٩م ، لكن دون أن يربط اغتصاب هـذا المنصب بأي فكرة دينيّة سياسية على نحو ما فعل الفاطميون . وقد كان الخليفة الفاطمي الأول ، المهدي (توفي سنة ٣٢٢ هـ/ ٩٣٤ م) رجـلاً نشيطاً قديراً ، لا يقيم وزناً لنوعية الوسائل التي يستعملها لتحقيق غرضه . وقد تمكن من التغلّب على الصعاب التي جابهته في محاولته . وامتدت مملكته التي أقامها حديثاً عبر شمال إفريقية ، إلى حدود المملكة الإدريسية في المغرب من ناحية ومصر من ناحية أخرى وكذلك صقلّية . كما أنه وجّه حملات عسكرية ضدّ مصر ؛ وقد مكّنه أسطوله من أن يكون مصدر رعب في البحر المتوسط ، كما تمكن بواسطة دعاته من إزعاج البلاد الإسلامية المجاورة . وفي سنة ٣٠٣هـ/٩١٦م أسّس لنفسه عاصمة جديدة على الساحل التونسي سُميت « المهدية » ، نسبة إليه .

وقد ركزت الحملات الحربية التي قام بها الفاطميون ، منذ البداية ، على فتح مصر . ومع ذلك فإنّ الفاطميين لم ينجحوا إلاّ في أيام المعزّ ، حفيد حفيد المهدي وثالث خلفائه ، لما فتح قائده جوهر مصر ودخل الفسطاط منتصراً (١٦ شعبان ٣٥٨ هـ/ ٦ تموز – يوليو ٩٦٩م) . وقد انصرف جوهر حالاً إلى تأسيس مدينة جديدة في جوار الفسطاط أصبحت أساس مدينة القاهرة فيما بعد ، وقد ظلّت عاصمة البلاد منذ ذلك الوقت ؛ كما انصرف إلى بناء الأزهر ليكون جامعاً ومدرسة لتعاليم الإسماعيلية في الوقت ذاته ، في بلد كان أكثريّة سكانه من السنّة . وفي سنة ٣٦٢هـ/٩٧٣م نقل الخليفة المعزّ مقره نهائياً إلى القاهرة . وبسبب تمركزهم في مصر لم يجد الفاطميون مشقة في السيطرة على المدن المقدسة في الإسلام ، وكذلك السيطرة على مركز القرامطة في اليمن ، وضم فلسطين والأجزاء الجنوبيّة من سورية ، بحيث امتدت الدولة الفاطمية ، أيام العزيز (٣٦٥هـ/

٩٧٦م–٣٨٦هـ/٩٩٦م) خلف المعزّ ، من طرابلس الشام إلى مضيق جبل طارق ، أي أنها شملت النصف الغربيّ من ديار الخلافة العباسيّة . وهكذا فإنّ وحدة العالم الإسلامي ، والّتي كانت مجرد وحدة قائمة نظريّاً منذ زمن بعيد قد انهارت في الحقيقة إلى ثلاثة : الخلافة العباسية المتقلصة والخلافة الفاطميّة القائمة حديثاً ، والخلافة الأمويّة في إسبانيا . هذا إلى عدد من الإمارات الصغيرة القائمة في الأطراف كالأدارسة في المغرب الأقصى والزيديّين في اليمن والعلويّين في الجبال المحاذية لبحر قَزْوين .

وقد أخذت سيادةُ الفاطميين على المغرب تتقلّص تدريجياً منذ انتقال مقرّهم إلى القاهرة ، حتّى أنه في سنة ٤٣٦هـ–٤٣٧هـ/ ١٠٤٥–١٠٤٦م خرج عاملُهم المعزّ بنُ باديس عليهم وأعاد الخطبة للخليفة العبّاسيّ على المنابر . عندها حرّض الفاطميون قبيلة بني هلال العربية ، الّتي كانت قد هبطت مصر قبل مدة قصيرة ، وأصبحت عبئاً ثقيلاً على البلاد ، على الاتجاه غرباً ، حيث تمكّن بنو هلال من احتلال المنطقة حتّى القَيْرَوان . إلا أنّ الفاطميين ، مع ذلك ، خسروا البلاد نهائياً . كما أنّهم خسروا صقلّية لما فتحها النورمان ٤٥٣هـ–٤٨٤هـ/١٠٦١م–١٠٩١م . على أن هجرة بني هلال ، الّتي خلّدتها السيرة المشهورة باسم تغريبة بني هلال ، كانت الخطوةَ الأولى لتعريب غرب إفريقية الشمالية .

كانت خلافة الحاكم بأمر الله ، ابن العزيز وخليفته ، الذي تولى الحكم وهو في الحادية عشرة من عمره (سنة ٣٨٦هـ/٩٩٦م) نقطة التحول بالنسبة للدولة الفاطمية والحركة الإسماعيلية خاصة . فإن الصورة الّتي وصلتنا عن هذا الحاكم تتأرجح غاية التأرجح بين أفعال تشير بوضوح إلى جنون العظمة ، ومزاج متقلب ، وعنف لا حدّ له خاصة تجاه كبار موظفيه وأقرب مستشاريه ، وتجاه اليهود والمسيحيين كذلك ، وبين

صفات معينة تخفف من قتامة الصورة، كالبذل الذي لا حدّ له ونقاء في الخلق . وقد بلغ الحاكم بالإيديولوجيّة الإسماعيلية آخر ما يمكن أن تصل إليه لما أُعلِنَت ألوهيته سنة ٤٠٨هـ/١٠١٧م . وقد أدّى هذا بالإضافة إلى الشتائم الجارحة التي كان المنادون بالتعاليم الجديدة يتفوّهون بها ضدّ المذهب السنّي الذي بقي الشعب المصري متمسكاً به ، أدى إلى انتفاضة حُوصر فيها الخليفة في قصره . وقد نجح كبيرُ المحرّضين ، المسمّى درزي ، وهو الذي أعلن ألوهيّة الحاكم ، وكان يخفيه الخليفة في قصره ، في الهرب إلى سوريا حيث نشر درزي تعاليمه ووجد أتباعاً سمّوا أنفسهم دروزاً ، بالنسبة إليه . وقد تنفس العالم أجمع الصّعَداء حين اختفى الحاكم في ليل ٨ ذو القعدة ٤١١هـ/٢٣ شباط – فبراير ١٠٢١م بطريقة غامضة . وبالنسبة للدروز فإنه انسحب إلى « الغيبة » ، التي ينتظرون منها عودته المرجوة .

كان تأليه الحاكم آخر ما يمكن أن تصل إليه النظرية الإسماعيلية . فقد استفزّت العالم الإسلامي قاطبة للدرجة لم يعد مستغرباً قيام رد فعل سنّي فيما تلا ذلك من زمن . وزعماء هذه الحركة لم يكونوا من العرب الذين أفلتت من أيديهم الزعامة الروحية والسياسيةِ على السواء ، ولا من الفرس الذين كانوا يدينون بالإيديولوجيّة الشيعيّة ، بل من الشعب التّركي الداخل حديثاً في العالم الإسلامي .

إلاّ أنّه قبل ذلك تعرّضت الإسماعيليّة الفاطميّة إلى انقسام خطر . ذلك بأنّه في آخر الحكم الطويل للمستنصر الفاطمي (٤٢٦هـ/١٠٣٥م – ٤٨٧هـ/١٠٩٤م) قام انشقاق في الإسماعيلية الفاطميّة بحيث إن فريقاً من أتباعها انضمّ إلى المستعلي الذي سمّاه الإمام العجوز خليفة له ، بينما أيّد فريقٌ آخر أخاه الأكبر نِزار ، وظلّ على ولائه له لما ثار هذا بعد وفاة الخليفة ، مع أن ثورته قضي عليها وقتل هو نفسه أثناءها . وقد قال

النزاريّون بأنّه غُيِّبَ على أنّه إمام الزمان . وكان منهم رجل لعلّه خراساني الأصل من شمال إيران ، يسمّى الحسن بن الصبّاح . وقد نشر هذا ، بوصفه داعية نزارياً ، الدعوة في سوريا وخراسان ، وتحصّن آخر الأمر في قلعة ألَمُوت (٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م – ١٠٩١م) القائمة في الجبال المحاذية لبحر قَزْوين . ونظّم الحسن بن الصباح أتباعه في جماعة سريّة ، حسب التقليد الإسماعيليّ الصحيح ، بحيث كان لها دعاة في كل مكان ، ينشرون الدعوة النّزاريّة . ويبدو أنه في اجتماع الأتباع ، خاصة حين إدخال الأعضاء الجدد لَعِب الأفيون وبالذات الحشيش المستحضر من القنَّب دوراً في خلق حالات من الغيبوبة ، سُمّي بسببه أتباع هذه الجماعة السرية بالحشاشين . وقد لعبت وسائلهم الإرهابية في الدعوة ، وبينها الاغتيال ، ينفذه فدائيّون متديّنون ، دوراً كبيراً ، جعلت للحشّاشين شهرة غير محمودة .

إنّ الأحوال الداخلية ، والانشقاق المذكور ، وكذلك المواقف غير المألوفة والمحرجة الناتجة عن وجود حرس خاص من شعوب غريبة (الأتراك والبربر والزنوج) أضعفت الدولة الفاطمية ؛ وقد أدّى ظهور الأتراك كقوّة سنّية رئيسية في الشرق وقيام الحملات الصليبية إلى سقوطها .

عندما انتزع الفاطميون في سنة ٢٩٦هـ/٩٠٩م النصف الغربي من الدولة العباسية ، لم يكن هؤلاء أسياداً في بيتهم حتّى في الشرق . وقد حصل المقاتلون الأتراك ، وخاصة أمراء الحرس الخاص بسبب الحروب مع القرامطة على مركز قوي في بلاط الخلفاء ، لدرجـة أصبحت السلطة كلّها في واقع الأمر بأيديهم . ومنذ سنة ٣١٧ هـ/ ٩٢٩م صار لقائدهم ، الملقب «بأمير الأمراء» ، القوّة التنفيذية بكاملها . وقد أصبح كبار القواد هؤلاء أصحاب السلطان الفعلي في العاصمة وفي مركز الدولة ،

وكانوا يولّون الخليفة ويعزلونه حسب أهوائهم . وفيما بعد كان يُخطَبُ لأمير الأمراء إلى جانب اسم الخليفة على المنابر . وقد اتخذ أمراء الدولة هذا الحق كذلك والذي أرادوا أن يعبّروا به عن وضعهم الفعلي المستقل في الدولة .

وكان إنشاء منصب أمـير الأمراء خطوة جاسمة في طريق تجريد الخلافة من سلطتها الفعليّة ، واعتبار الخليفة ، وهو صاحب الشرعيّة الدينيّة ، ذا منزلة اسميّة غير ملزم بشيء ، بينما انتقلت ممارسة السلطة والسيطرة الفعليّة على الدولة إلى أمراء الدولة .

منذ سنة ٣١٩هـ/٩٣١م تمكن البويهيون ، الأولاد الثلاثة علي ، حسن ، وأحمد لبويه، أحد زعماء الديلم الذين يقطنون الجبالَ الموازية لبحر قَزْوِين في شمال بلاد فارس، من إقامة سلطان لهم في غرب إيران بعد أن بدأوا كقواد لفرق المرتزقة من الديلم . والبويهيون من الشيعة الإمامية (الاثني عشرية) . وقد أتيح لأحمد ، الأخ الثالث ، أن يحتلّ الأهواز (عيلام القديمة وخوزستان اليوم) والعراق ، وذلك في أثناء الصراع حول السلطة الذي كان نشب بين المتنازعين على النفوذ في بغداد ؛ ودخل أحمد بغداد في جمادى الأولى ٣٣٤هـ/ كانون الأول — ديسمبر ٩٤٥م . واضطر الخليفة المستكفي أن يمنحه أعلى رتبة شرف في الدولة : منصب « أمير الأمراء » ، أي ما معناه تولّي السلطة كاملة . وبالإضافة إلى ذلك لقّبه « معزّ الدولة » ولقب أخاه علياً « عماد الدولة » وأخاه الحسن « ركن الدولة » . إلاّ أن العلاقة بين الخليفة وأمير أمرائه الجديد سرعان ما ساءت ، إذ ظنّ معزّ الدولة أن الخليفة يشجّع أعداء البويهيين . وهكذا عُزل الخليفة بعد بضعة أسابيع (٤ رجب ٣٣٤هـ/٢٩ كانون الثاني — يناير ٩٤٦م) وفقئت عيناه ، وأجلس معزُّ الدولة خليفة آخر على عرش الخلافة، هو المطيعُ الذي صار معتمداً عليه

اعتماداً كلياً . ومع أن البويهي لم يكن إلاّ أكبر موظف في الدولة ، ولكنه أصبح منذ ذلك الوقت السيد المطلق السلطة في الدولة العباسية ولم يبقَ للخليفة نفسه سوى مكانة الشرف التي لا تعني شيئاً ولا تقوم إلاّ على ذكر اسمه أولاً في خُطبة الجمعة على المنابر .

وهكذا تحقق ما بدأ منذ سنة ١٣٢هـ/٧٥٠م وما ازداد قوة منذ سنة ١٩٧هـ/٨١٣م : أي استيلاء الإيرانيين علانية على السلطة الفعلية في دولة الخلافة .

كان البويهيون ، مثل جميع الدَّيْلَم ، شيعة إماميّة (اثني عشرية) إلاّ أنّه من المؤكد أن الدين لم يكن له دور هام في حياة هؤلاء الأمراء المحاربين . وكذلك يمكن القول أنهم لم يلتزموا بمفهوم الدولة عند الشيعة وإلاّ كان عليهم إزالة الخلافة العبّاسيّة السنّية ، وإقامة حكم باسم الإمام الثاني عشر الغائب ، أي إمام الزمان كما فعل الصفويون فيما بعد ، إلاّ أن النظرة الدينية إلى الخلافة العباسية كانت ، لا تزال قوية ، بحيث أن البويهيين لم يجرؤوا على اتخاذ مثل هذه الخطوة من ناحية ؛ ومن ناحية أخرى لم تكن نظريات الاثني عشرية قد اتضحت بعد، حتى يطالب الرأي العام الشيعي بمثل هذه الخطوة . على أي حال فالحقيقة الجديرة بالملاحظة ، هي أنه في الوقت الذي كان النصف الغربي من الإمبراطورية يقع تحت سلطة إسماعيلية ، كان النصف الشرقي كذلك تقوم فيه سيادة شيعية باستثناء بلاد يحكمها أمراء مستقلون فعلاً مثل ما وراء النهر (السامانيون) وجزيرة ابن عمر (الحمدانيون) ؛ حتى ليكاد المرء يقول بأن العالم الإسلامي كان في طريقه إلى أن يصبح شيعياً . وقد كان لقيام البويهيين أثر في تقوية الشيعة الإماميّة . ففي هذه الفترة وُضعت أهم المؤلفات في العقائد الخاصة بهذا المذهب الشيعي بحيث ثبت أركانه ، فمكّن للشيعة الإمامية (الاثني عشرية) أن

تحمي وجودها في القرون التالية التي لم تكن في مصلحتها دوماً .

إن الدولة البويهية التي ازدهرت في أيام الرجل القوي عضد الدولة (٣٢٤هـ/٩٤٩م - ٣٦٩هـ/٩٨٣م) - كان كل الأمراء البويهيين يحملون الأسماء الفخمة المضافة إلى دولـة - دبّ فيها الضعف في ناحيتين . أما الأولى فكان من عادة البويهيين أن يقتسموا السلطة فيما بين أفراد أسرتهم ، الأمر الذي أدّى باستمرار إلى نزاعات وخصومات ؛ وكان عضدُ الدولة الوحيد الذي استطاع أن يوحد الدولة كلها في يده . وبعد وفاته دبّت الخصومات في مملكة البويهيين ومهّدت السبيل لسقوطها . أما الناحية الثانية فإن الأمراء لم يتمكنوا من التحكم في المنافسة بين العناصر التي كانت تؤلف قوتّهم الضاربة - المشاة من الديلم والفرسان من الترك . ولذلك كان على البويهيين الإيرانيين ، بعد حكم استمر قرناً وبعض القرن ، أن يسلّموا السلطة في دولة الخلافة إلى الشعب الذي ظن أمراء المسلمين منذ زمن بعيد أنهم لن يستطيعوا البقاء دون الحرس الخاص الذي كانوا يحصلون عليه منه : أي الأتراك .

الفصل السّادس

السيادة التّركية والصليبيون

إن دخول الأتراك إلى العالم الإسلاميّ في الشرق الأدنى كان شبيهاً بهجرة العرب إلى أرض الحضارات القديمة، وهي الهجرة التي غيّرت وجه السكان في المنطقة تغييراً كاملاً . إلاّ أنّ انتقال العرب مع أنه تمّ في الواقع في زخم عنيف بين سنتي ١٣هـ/٦٣٤م و ٢٣هـ/٦٤٤م ثم بعد توقّف قليل عاد الزخمُ ثانيةً واستمر إلى سنة ٣٣هـ/٦٥٤م، إلاّ أن الجوّ كان قد هيّأته هجرات العرب المستمرة عبر قرون بل عبر آلاف القرون إلى أرض الحضارات القديمة . أمّا انسياح الشعوب التّركية فقد احتاج بضعة قرون حتى تمّ ، ولم يكن لهذا الانسياح ، على الأقلّ فيما يتعلّق بالشرق الأدنى ، تاريخ سابق كما كان للهجرة العربية . وقد كان انسياح الأتراك أقرب شبهاً بهجرات القبائل الجرمانيّة إلى أوروبة . ومثل هذه الهجرات ، تمّ في مراحل ثلاث . وكما كان الحال في القبائل الجرمانية كانت المرحلة الأولى والتي مرّ ذكرها ، في دخول الأتراك المحاربين في الخدمة العسكرية عند الأمراء المسلمين مكوّنين حرَسَهُم الخاص. وكان هؤلاء المحاربون الأتراك ، الذين غالباً ما دخلوا في خدمة الأمراء كمماليك وثنيّين في أول الأمر ، ثمّ حُملوا على اعتناق الإسلام في محيطهم الجديد . وقد انتشر الإسلام بين الأتراك بواسطتهم ، كما انتشر بسبب علاقات الجوار

بين الأتراك الأحرار والإيرانيين الذين اعتنقوا الإسلام في بلاد ما وراء النهر . وقد اعتنق هؤلاء الإسلام ليشاركوا في الثقافة الإسلامية التي تكونت في العصر العباسي . وبخلاف حال العرب المسلمين لما فتحوا أرض الحضارة القديمة دخل الأتراك الذين أسلموا ميدان الحضارة الإسلامية التي كانت سائدة في غرب آسية كأصحاب هذه الحضارة . وبينما كانت الحضارة الإسلامية نتيجةَ عمليّة تفاعلٍ بين ما جاء به العرب أنفسهم حديثاً ، أي الإسلام ، وما كان في المنطقة من حضارة متأثرة بالهلّينية ، لم تكن مثل هذه العملية ضرورية حين ظهور الأتراك ؛ ذلك بأن الأتراك لم يحملوا معهم شيئاً جديداً ، بل إنهم ألقوا بأنفسهم كلّيةً في خِضَمّ الحضارة الموجودة دون تحفظ . وقد جذبَ الأتراك كمحاربين ، الجانبُ الحربيُّ من الإسلام قبل كل شيء ، ومن ثم فقد عاد للجهاد دورُه ، وعن طريقه وسّعوا رقعة السيادة الإسلامية بضمّ بلاد جديدة .

والمرحلة الثانية لانسياح الأتراك ، شبيهة بما قام به أدواسر ، الملك الجندي الألمانيّ ، وهي أن ينتهز زعيم الحرس البريتوريّ فرصةَ وجود شخص ضعيفٍ في سدّة الحكم ، فيجعلَ نفسه أميراً من أمراء الدولة . وقد مرّ بنا مثال على ذلك هو أحمد بن طولون الذي تمكّن من جعل ولايته لمصر (٢٥٤هـ/٨٦٨م — ٢٧٠هـ/٨٨٣م) وراثية . أما المثال النموذجي فهو محمود بن سبُكتكين (٣٨٨هـ/٩٩٨م — ٤٢١هـ/١٠٣٠م) فهو ابن أسير حربٍ تركيّ كان قد ولاّه السامانيّون ، حكام ما وراء النهر ، والياً على غزْنة في أفغانستان . ولما قضى الأتراك القَراخانيّون على الدولة السامانيّة (٣٨٩هـ/٩٩٩م) ، استقل محمود الغزْنوي بالأمر ووسّع رقعة دولته عن طريق فتح أجزاءٍ من الهند ؛ ومن هنا تبدأ الحقبة الإسلامية في تاريخ الهند . وبسبب العلاقات الطيّبة التي كانت تربطه بالخليفة العباسي القادر (٣٨١هـ/٩٩١م — ٤٢٢هـ/١٠٣١م) ، كان اتصاله بالدولة مباشرة لا فيما يتعلق بالقراخانيين فقط ، خلفاء أسياده الأوّل أي

السامانيّين ، فحسب ، بل حتّى فيما يتعلق بأمراء الدولة البويهيين . وقد تمكّن من أن يترك للذين جاءوا بعده دولة عظيمة منظّمة .

وأهميّة محمود ، بالنسبة للتاريخ الإسلاميّ ، ترجع إلى أنه أوّلُ من استعمل لنفسه لقب « سُلطان » ، وهو تعبير يدل على السيادة الشرعية أي الحكم . ويفوق هذا أهمية الموقف الذي اتخذه محمود — وهو معاصر للحاكم بأمر الله — في الدفاع عن المذهب السني ، ممّا ترتب عليه رد فعل من السنّة ضدّ الشيعة على اختلاف اتجاهاتها ، والّتي كانت تسبب الإزعاج للعالم الإسلامي .

والتقليد الذي استنّه محمود الغَزْنَوي في أمور الدولة نَقَله سادةُ البيت السلجوقي ، وبهم تبتدىء المرحلة الثالثة للانسياح التّركي في الشرق الأدنى ، وذلك عقب وفاة محمود ، حيث جاءوا بحشود جديدة احتلت إيران بأجمعها ، وأقامت ، منذ سنة ٤٢٨هـ/١٠٣٧م ، دولة واسعة ضمّت غرب آسية بكامله . ولما دعاه وزير الخليفة القائم بأمر الله لوضع حدّ للحالة المؤسفة الّتي وصلت إليها عاصمةُ الدولة في عهد آخر البويهيين ، دخل السلطان السلجوقي طغرل بك بغداد سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م ، وألقى القبض على أمير الأمراء البويهي ، وانتهت بذلك سيادة البويهيين . وقد توثّقت الصلة بين الخليفة وطُغرُل بك لما تزوّج الأول أميرة سلجوقيّة . ومَنَحَ الخليفةُ طغرل بك لقب « ملك المشرق والمغرب » ؛ إلا أنه منذ ذلك الوقت غالباً ما كان يستعمل لقب «السلطان» ، معبراً بذلك عن أنه يَتَمتّع بالسلطة الشرعية اللازمة لتدبير أمور الدولة في العالم الإسلامي ؛ أما إعادة السلطة إلى الخليفة فبطبيعة الحال لم تكن واردة . وبطُغرُل بك استُبدلت السلطة الإيرانيةُ بالسلطة التّركيّة في الدولة . وقد وجد الأتراك الذين قادهم طغرل بك إلى غرب آسية مجالات واسعة للعمل لإشباع طموحهم كمجاهدين ، على الحدود ضد القفقاس وضد

الاناضول البيزنطي وضد الفاطميين في سوريا .

كانت غاراتُ جماعات التّركمان على آسية الصغرى قد أثارت حفيظة البيزنطيين ، فهاجموا ألْب أرْسلان (٤٥٥ هـ/١٠٦٣م – ٤٦٤هـ/١٠٧٢م) ابن أخي طُغْرُل بك وخليفتَه ، وكانت الحملة بقيادة القيصر رومانوس ديوجينس الرابع . وخرج ألب أرْسلان إلى ملاقاتهم مع عدد قليل من المقاتلة الذين كانوا في خدمته في ذلك الوقت ، والتقى والقيصر في معركة ملازكُرد (مَنزيكَرت) في ٢٦ شوال ٤٦٣هـ/ ٢٧ آب – أغسطس ١٠٧١م وانتصر عليه انتصاراً ساحقاً ، وأُسِرَ القيصر ولكن أُطلق سراحه بعد الموافقة على شروط كانت في مصلحة ألب أرسلان . وكان من نتيجة هذه الهزيمة ، وبسبب الثورة التي قامت إثر ذلك في القسطنطينية ، أن عجزت بيزنطية عن الدفاع عن حدودها ، فاجتازتها الجموع التركية إلى آسيةَ الصغرى وأعملوا فيها نهباً وسلباً ، حتى شقّوا طريقهم إلى ساحل بحر مرمرة . ورغبةً منه في أن ينشر النظام والحالة كذلك ، أرسل مَلِكشاه (٤٦٤هـ/١٠٧٢م – ٤٨٥هـ/١٠٩٢م) ، ابنُ ألب أرسلان وخليفته، الأمير السلجوقي سليمان بن قُتُلْمُش (٤٦٩هـ/١٠٧٧م) إلى آسيا الصغرى ، الذي اتخذ من نيقيّة (إذنيك) عاصمة له . ومن ثم كانت السلطة السلجوقيّة تشمل المنطقة الممتدة من ضفاف جيحون إلى سواحل بحر مرمرة في جوار القسطنطينية مباشرة .

إن رغبة سلاطين السلاجقة والحماس الديني الذي كانت جموعهم التركية تتّسم به وُجِّهتا كذلك ضد الدولة الفاطمية . وحتى في أيام ألْب أرسلان فتح قائد جنده أتْسِز القدس سنة ٤٦٢هـ/١٠٧٠م . إلاّ أنّ السخط ضدّ الأتراك والتذمّر منهم اضطرهم إلى احتلالها ثانية في سنتي ٤٦٨هـ – ٤٦٩هـ/١٠٧٦م – ١٠٧٧م . ومع ذلك فقد تمكن الخليفة الفاطمي المستعلي من استعادتها سنة ٤٨٩هـ/١٠٩٦م .

وقد كان احتلال الأتراك للقدس ، وكذلك استنجاد الإمبراطور البيزنطي ألِكْسيوس كُمْنينُوس ، هو الذي دعا المسيحيّة الغربيّة ، بإفرنجها ونورمانها إلى القيام بعمل ما ، وبذلك بدأت الفترةُ الصليبيّة التي استمرّت قرنين من الزمان .

***

إنّ الفكرة التي كانت أساس الحملات الصليبية ، وهي الدفاع عن المسيحية وبالتالي نشرها بالسيف مستوحاة ولا شك من الإسلام ؛ إذ لا يمكن تفسيرها من خلال تاريخ الآراء المسيحية وحده . أما في الإسلام ، بالمقارنة ، فقد كانت الفكرة موجودة من البداية . إذ إن الجهادَ هو واجب جماعي بالنسبة للأمة الإسلامية ، وتعتبر الأرض التي لا تتبع السيادة الإسلاميّة « دار حرب » ، ويتوجّب محاربتها وفتحها وضمّها إلى « دار الإسلام » . وترتّب على ذلك أن جميع الحدود التي تصل العالم الإسلامي بالبلاد غير المسلمة ، هي جَبَهات للقتال ، حالة الحرب قائمة فيها دوماً . فقامت على الحدود البرية – ضد أوروبة في إسبانيا وفي آسية الصغرى – أماكن حربيّة محصّنة عُرفت بـ « الرباط » وهي كلمة واردة في القرآن . وكان يجتمع فيها (المرابطون) نسبة (للرباط) ، أو « الغزاة » الذين كانوا يتحيّنون الفرص المؤاتية للقيام بغزوات في بلاد العدو . وبما أن هذه الحصون كانت من وجهة النظر الإسلامية ، تقوم بعمل ديني هام ، فقد ارتبطت صفتها العسكرية بالصفة الدينية ، واتسمت التنظيمات المقاتلة على الحدود بصفة الفرق الدينية المحاربة . وأصبح لكلمة « غازي » دلالةٌ شريفةٌ هي « بطل الإيمان » . كما وُجد في شخص عليّ المقاتل الشهير زمن النبي مثلاً دينيّاً يحتذى به ، بالإضافة إلى بَطَل آخر « السيد البطّال غازي » ، وهو شخصية نصف أسطورية ، تعود إلى أيام الحروب العربية البيزنطية ، يقال إنّه استُشهد سنة ١٢٢هـ/٧٤٠م . وقد أصبح بطلاً قومياً بالنسبة إلى الجموع التركية التي كانت تشنّ حروباً مستمرة

ضد البيزنطيين . وكذلك كان الباعث على الحروب البحرية الصغيرة ، التي كان يشنّها المقاتلة البحريون العرب ضد شواطىء البحر المتوسط ، هو باعث ديني .

وكان لا بدّ لمثل هذا الوضع أن يؤثر على الفريق المقابل . فقــد قامت في الجانب البيزنطي ، منطقةُ حدودٍ مشابهة لمنطقة الحدود الإسلامية تماماً ، كان يحميها محاربون محترفون غالبيّتهم من القومية الأرمنيّة ، المُسمَّون أكريتاي . وقد كان لهؤلاء المحاربين البيزنطيين نظامهم وأبطالهم الوطنيّون أيضاً، وأشهرهم المعروف باسم ديجنس أكريتاس . ومن ثم فقد كانت الأوضاعُ على جانبي الحدود ، هنا وهناك ، متشابهة . ولم يكن ثمة مجال للمسيحية الشرقية المتقشّفة الزاهدة في العالم ، ذات الموقف الحيادي بالنسبة للثقافة أن تَعْتَنِقَ فكرة الحرب الدينيّة .

وكان الأمر يختلف كل الاختلاف على الحدود الإسبانية في حمى المسيحية الرومانية التي كانت أبعد عن التقشف ، بل مفتوحة على العالم ومتقبلة للثقافة . حتّى هنا لم تخطر ببال الناس فكرة توسيع رقعة السيادة المسيحية عن طريق الفتح كما كانت عند المسلمين العرب ؛ ورغم أن نشر المسيحية في البلاد المفتوحة كان ينظر إليه كأمر مسلم به بعد الفتح على نحو ما حدث في عهد شارلمان وفيما بعد ، في التوسّع الألمانيّ شرقاً ، إلاّ أنّه لم يكن الهدفَ من الفتح ، أي أن مفهوم الفتح في البلاد المسيحية كان في الأصل عكساً خالصاً للمفهوم السائد في الإسلام حيث كان الغرض من الفتوحات توسيع رقعة سيادة الإسلام دون إعطاء أهمية لنشر الدين الإسلامي بين الشعوب المغلوبة . ولكن بعد أن أجبر المسلمون المسيحيين على الجبهة الإسبانية التشبه بهم — وهنا نجد البطل القومي للمقاتلين الإسبان على الحدود وهو إلسِيد (السَّيِّد) الكمبادور (٤٣٧هـ / ١٠٤٥م — ٤٩٢هـ / ١٠٩٩م) — وظهور منظمات عسكرية دينية في الجهة المسيحية تشبه المرابطين ، نجح الإسبان المسيحيون في استرجاع

بلادهم بهذه الوسائل . لاقى دافع الحرب المقدسة هوى في نفوس الأمم الجرمانية فتقبلوها بكل سرور حين دعا إليها أعلى مرجع في الكنيسة ، البابا أوربانوس الثاني في مؤتمر كليرمون – فيرّان (سنة ٤٨٨ هـ/١٠٩٥م) . ويلاحظ أن شن الحرب كهدف لنشر المسيحية كما يتبيّن ذلك من الفتوحات التي قامت بها الفرق الدينية الألمانية ، لم تتبوّأ المركز الأول إلاّ بعد حركة الحملات الصليبية .

سرعان ما سارت الحملة الصليبية الأولى بقيادة غودفري دو بويون ، وتمكنت من استرجاع الولايات الغربيّة من آسيا الصغرى لبيزنطية (معركة دوريلاوم على مقربة من أسكي شهر الحالية ١٨ رجب ٤٩٠هـ/ ١ تموز – يوليو ١٠٩٧م) بسبب وحدة العمل بين الصليبيين والبيزنطيين . إلاّ أنه لم يمكن إخراج الأتراك دفعة واحدة من آسيا الصغرى . وقد بقيت منطقة تركيّة صامدة تشغل نحو ثلثي آسية الصغرى ، وهي التي خسرها البيزنطيون نهائياً إذ ظلّت تحت السلطة الإسلامية . وأصبحت تحت إمرة خلفاء سليمان دولة من الدول السلجوقية ، وسُمّيت سلطنة قونية أو سلطنة (السلاجقة) الروم ، واستمرّت بعد سلطنة السلاجقة الأصلية الكبرى . وتابع الصليبيون سيرهم فاحتلّوا أنطاكية ١١ رجب ٤٩٢هـ/ ٣ حزيران – يونيو ١٠٩٩م . وفي ٢٣ شعبان / ١٥ تموز – يوليو دخلوا القدس ، حيث قاموا بمذبحة رهيبة . وقد أصبحت القدس عاصمة المملكة اللاتينيّة وكانت إمارات إدسّا وأنطاكية وطرابلس تابعة لها .

وقد سُيّرت الحملة الصليبية الأولى ، مثل الحملات التي تلتها ، على أسلوب الفَيكنغ المعروف ، ذلك بأن عدد المشتركين من النورمان كان كبيراً خاصة في البدء . ولم يطمح هؤلاء المشتركون إلى أكثر من المجد العسكري وخلاص نفوسهم ، فبعد أن حقّقوا هدفهم عاد أكثرهم إلى بلادهم .

ولم يبقَ في البلاد سوى عدد ضئيل نسبيّاً من المحاربين . وكانوا أضعف من أن يحتفظوا بمكاسبهم لمدة طويلة في وجه بيئة عدائية . والفرنج الذين استقرّوا في الأرض المقدّسة كيّفوا أنفسهم حسب عادات وطرق معيشة بيئة كانت ما زالت الثقافة الإسلامية سائدة فيها . بواسطتهم وصلت عناصر كثيرة من المدنيّة الشرقيّة إلى الغرب ، وقد أنتج بعضها ثمراً جيّداً .

كان باستطاعة الإمارات الصليبيّة أن تحافظ على بقائها مؤقّتاً بسبب وقوعها بين دولة الفاطميّين الّتي أضعفتها المشاغبات الداخلية والّتي زعزعتها الحملات الصليبيّة ، وبين الدول السلجوقية المتنافرة . ذلك بأن البناء السلجوقي الضخم كان ، منذ وفاة ملكشاه (٤٨٥ هـ/١٠٩٢م) ، قد تخلخل بشكل ملحوظ . فالمنازعات بين أهل البيت السلجوقي في كلّ مرّة يتبدّل فيها الحاكم ، وتجزّؤ الدولة إلى إمارات صغيرة ، أقعد الدولة ككل عن العمل ، ومع ذلك فقد تجدّدت روح الهجوم التركية ، في بعض الأجزاء ، لما تيسّرت لها قيادات فعّالة ، وأصبحت في النهاية شرّاً على الصليبيّين . والجزء الأكبر من هذه الولايات السلجوقية لم تعد تخضع لأهل البيت السلجوقي المالك ؛ بل غالباً ما كان الأتابك — أي المؤدب العسكري للأمير السلجوقي ، وهو تركي العنصر أيضاً — وفي أماكن عديدة يُقصي تلميذه جانباً، ويستبد بالحكم ثمّ يورثه خلفاءه من بعده . وبهذه الطريقة قامت مجموعة من الأسر الصغيرة كان من أهمّها في الغرب أسرة الزنكيّين . وهم الذين جهّزوا القوات الّتي أعملت السيف في الصليبيّين .

وتاريخ الزنكيّين الذين كان لهم مراكز في الموصل وحلب، يرتبط بتاريخ الصليبيّين ارتباطاً وثيقاً . فعِماد الدين زنكي، أتابك الموصل (٥٢١هـ/١١٢٧م — ٥٤٠هـ/١١٤٦م) انتزع من الصليبيّين قلعة إدِسّا (الرُّها ، أورفة اليوم) سنة ٥٣٨هـ/١١٤٤م . وهذا أدّى إلى قيام حركة صليبيّة جديدة في الغرب

وهي الحملة الثانية التي دعا إليها البابا أوجين الثالث وبشّر بها برنار كليرفو (٥٤١هـ/١١٤٧م – ٥٤٣هـ/ ١١٤٩م) ولم تنته إلى شيء (محاصرة لدمشق سنة ٥٤٢هـ/١١٤٨م ذهبت سدى) . ويرجع ذلك أساساً إلى أن الصليبيّين وجدوا في نور الدين محمود (٥٤٠هـ/١١٤٦م – ٥٦٩هـ/١١٧٤م) خصماً عنيداً . وكان نور الدين قد ورث السيادة على حلب عن أبيه ، وضمّ دمشق فيما بعد (٥٤٩هـ/١١٥٤م) إلى ملكه . وكان حكمُ نور الدين الذي جعَل هدَفَه في الحياة قتال الصليبيّين وإخراجهم إن أمكن ، فترةَ قتالٍ مستمر معهم . وقد هيّأ خلَفَه العظيمَ صلاح الدين تهيئة مناسبة للعمل بعده .

* * *

كانت سياسة نور الدين تجاه الصليبيّين مرتبطة بتصرفه تجاه الدولة الفاطمية التي كان العفن قد تخلّلها . فقد أرسل ، في سنة ٥٥٨هـ/١١٦٣م ومرّة ثانية في سنة ٥٦٢هـ/١١٦٧م قائده شيركوه ، الكردي الأصل ، إلى مصر لإقامة النظام فيها . وبعد وفاة شيركوه (٥٦٤هـ/١١٦٩م) خلفه ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب ، الذي كان قد رافق عمه في بعثته إلى مصر . وقد تولّى صلاح الدين حكم البلد بيد من حديد ، فمن جهة عمل على كسر مقاومة ممالئي الحكم الفاطمي . واعتباراً من سنة ٥٦٦هـ/١١٧١م ، وبتحريض نور الدين، أوقف ذكر اسم الخليفة الفاطمي على المنابر، وأعاد الدعوة للخليفة العباسي . وقد توفي آخرُ الخلفاء الفاطميين بعد ذلك بقليل ؛ وليس ثمة ما يثبت فيما إذا كان موته طبيعياً . وبذلك قُضيَ على سيادة الهرطقة الإسماعيلية الخطرة وأزيلت آثارها من البلاد ، وعادت مصر إلى حظيرة السنّة . وقد توفي نور الدين ، رئيس صلاح الدين ، بعد ذلك بمدة قصيرة (٥٦٩هـ/ ١١٧٤م) . وبذلك أعلن صلاح الدين استقلاله وضمن سوريا

لنفسه وحصل من الخليفة العبّاسي على لقب « السلطان » مع السيطرة على البلاد التي كان يحكمها (٥٧٠هـ/١١٧٥م) .

وكان صلاح الدين ، مثل نور الدين ، يرى أنّ واجبه الأول هو محاربةُ الصليبيين . وما كان نورُ الدين قد هيّأه ، تمكن هو من الوصول به إلى نهايته الحتميّة . ففي ٢٦ ربيع الأول ٥٨٣هـ/ ٥ تموز – يوليو ١١٨٧م انتصر على الفرنج في معركة حِطّين انتصاراً حاسماً ، واحتل القدس بعد ذلك بقليل ؛ وإلى سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م كانت قد سقطت في يده المواقع المسيحية القوية ، باستثناء صور وطرابلس وأنطاكية . وقد كانت هذه النكبة حافزاً على قيام الحملة الصليبيّة الثالثة ، التي كانت كبيرةً في عددها وعدّتها ، والتي اشترك فيها الإمبراطورُ الألمانيّ فردْريك بَربَروسّا الذي مات في الطريق على شاطئ آسية الصغرى الجنوبي (٥٨٦هـ/١١٩٠م) ؛ وملكُ فرنسا ، فيليب الثاني أغسطس ؛ وملكُ إنكلترا ، ريتشارد قلب الأسد . وقد حاصرت القوى الصليبيّة المتحدة مدينة عكا من البر والبحر ، ولم يتمكن صلاح الدين من رفع الحصار عنها . فاستسلمت للصليبيين في ١٧ جمادى الثانية ٥٨٧هـ/ ١٢ تموز – يوليو ١١٩١م، بعد حصار دام سنتين . ولم يتمكن الصليبيون من انتزاع أي نجاح آخر ؛ ونتيجةً للصلح الذي عقد في ٢٥ رمضان ٥٨٨هـ/ ٢ تشرين الثاني – نوفمبر ١١٩٢م[صلح الرملة] ، احتفظ الصليبيون بالساحل الفلسطيني وحصلوا على الإذن بزيارة المدينة المقدّسة بقصد الحج ، على أن يتمّ ذلك دون حمل أسلحة . وقد توفي صلاح الدين بعد ذلك بوقت قصير ، في صفر ٥٨٩هـ/ شباط – فبراير ١١٩٣م ، وكان في الخامسة والخمسين من عمره . وقد كان يتمتّع باحترام كبير كحاكم وكإنسان من أتباعه المسلمين وخصومه المسيحيين على السواء .

وقد اقتسم الأيّوبيّون ، خلفاءُ صلاح الدين ، مُلْكه فيما بينهم ، بحيث تجزأ إلى سياداتٍ صغيرة . وكانت خصوماتهم في سبيل الوصول إلى قمة السلطة قد أفقدتْ هذه السلطة قيمتها . وهذا الضعفُ الداخلي الذي كانت الدولةُ الأيوبية تعانيه بعد موت صلاح الدين مدّ في أجل الصليبيين . وفي سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م عقد الإمبراطور الألماني فردريك الثاني ، معاهدةً مع الملك الكامل ، ابن أخي صلاح الدين ، أعاد هذا بموجبها القدسَ إلى المسيحيين ومنَحهم ممراً يربطها بالبحر . إلاّ أنّ ابن الملك الكامل ، الصالح نجم الدين ، استعاد المدينة في سنة ١٢٤٣م — ١٢٤٤م . وكان الصالح نجم الدين آخر سلاطين الأيّوبيين .

لما توفي الصالح في ٢٠ رجب ٥٤٤هـ/ ٢٣ تشرين الثاني — نوفمبر ١٢٤٩م ، تهدّدت الدولةُ الأيّوبية بالانحلال التام ، ذلك بأن ابنَه طوران شاه لم يتمكّن من تدبّر أمره مع سيدة القصر شجرة الدر ، التي كانت الزوج المحبّبة للسلطان المتوفى ، أو مع أمراء الحرس الخاصّ من المماليك الأتراك الذين كان الصالح قد عيّنهم . وقد قتل طوران شاه ، في مطلع سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م ، أثناء مؤامرة ، فتولّت شجرة الدر الحكم بنفسها ، وهي امرأة جريئة ذكيّة طموحة مسيطرة ؛ وهذه هي الحالة الوحيدة في التاريخ الإسلامي التي ارتقت فيها سيدةٌ العرشَ . ولما لم يعترف الجميع بالسلطانة فإنها تزوّجت بعد ثمانين يوماً من الحكم المنفرد ، الأتابك عز الدين أيْبَك ، الذي كان قائد المماليك آنئذ . لكنّها تخلّصت منه بعد بضع سنوات بقتله (٦٥٥هـ/١٢٥٧م) . إلاّ أنّ الفريق المناوىء لها سرعان ما ألقى القبض عليها . وماتت قتلاً — قتلتها إماء زوج عز الدين أيْبَك الأولى .

وبأيْبَك بدأ حكم سلاطين المماليك في مصر، والذين لم ينحدروا من

أسرة حاكمة معيّنة ، وإنما كانوا يرتقون من الحرس المماليك إلى السلطنة وقد ظل أفراد من البيت الأيّوبيّ يتمتّعون بالسلطة في بعض مناطق من فلسطين وسورية ، إلاّ أنّه حيل بينهم وبين تولّي السلطة في القاهرة . وصار من المألوف منذ ذلك الوقت أن يتولى الحكم واحد من أمراء المماليك بعد أن يتمّ انتخابه من بينهم . وقد نجح بعض سلاطين المماليك في إقامة أسر في بادىء الأمر ، وهذا ينطبق على قلّة من الأقوياء مثل أيْبَك نفسه ، وفيما بعد ، بيبرس (٦٥٨هـ/١٢٦٠م – ٦٧٥هـ/١٢٧٧م) وخاصة قلاوُون (٦٧٨هـ/١٢٧٩م – ٦٨٩هـ/١٢٩٠م) الذين نجحوا في تأمين العرش لأولادهم أو حتى من سيخلفهم ؛ إلاّ أنّ هذا لم يُقرّه أمراء المماليك فيما بعد ، بحيث إنّه لم يعد يُلْجَأ إليه مع الزمن . وينقسم سلاطين المماليك إلى فئتين : الأولى المماليك البحريون (٦٤٨هـ/١٢٥٠م – ٧٩٢هـ/١٣٩٠م) واسمهم مأخوذ من معسكرهم الأصلي القائم في جزيرة الروضة في النيل ، والذي كانوا يختارون، من بين أفراده . وقد كان هؤلاء أتراكاً جاء أكثرهم من شبه جزيرة القرم . والفئة الثانية أُطلِقَ عليها اسم البُرجيّة (٧٨٤هـ/١٣٨٢م – ٩٢٣هـ/١٥١٧م) وقد جهزهم قلاوون وجعلهم يعسكرون في أبراج القلعة بالقاهرة فسمّوا بالبرجية نسبة إلى الأبراج . وكان أغلبهم شراكسة من القفقاس وبينهم أتراك كذلك . والسلطة بينهم كانت تقوم على أساس أقلية (أوليغاركي) مقصورة على طبقة من رجال الحرب ، والتي لم يكن يربطها بالشعب أي رابط .

وقد كان بين سلاطين المماليك نفر من أصحاب الشخصيات القوية ، يرون مثل الأيوبيّين من قبل ، أنّ طرد الصليبيين من سوريا وفلسطين هو الهدف الأول ، ولذا كان من المنتظر أن يُقضى على الإمارات الصليبيّة ، حالما تستقرّ الأوضاع في أعقاب تغيّر الحكم . إلاّ أنّ أجل هذه الإمارات

امتدّ قليلاً بسبب ظهور الخطر المَغُولي في الشرق والذي أخذ يقرع أبواب دولة المماليك . فكان من الضروري درء هذا الخطر عن الدولة قبل أن ينصرف سلاطين المماليك إلى تصفية الإمارات الصليبية . وبعد أن سقطت المواقع الباقية واحداً بعد الآخر ، فتح الأشرف خليل بن قلاوون عكا ، آخر معقل للصليبيين ، وكانت مركز فرسان القديس يوحنا ، وذلك في سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م .

إن الحملات الصليبيّة ، إذا نظرنا إليها منفصلة ، وجدنا أنها كانت من الأصل محاولة خاطئة ، وقد انتهت إلى الفشل ، الأمر الذي لم يكن يُتوقّعُ غيره . وعندما يُنظَر إليها من وُجْهة التاريخ الأوروبي بأكمله ، فإنه ليس من اليسير المبالغة في أهمية الحروب الصليبية بالنسبة للغرب . وبغض النظر عمّا أثارته حضارياً من حيث رفعها مستوى المعيشة في الغرب ، والتي كانت نتيجة الاحتكاك بحضارة الشرق المتفوقة فتحت الحروب الصليبية في الغرب آفاقاً جديدة غير منتظرة . فقد كانت إلى ذلك الحين ، النظرة إلى الكون والتاريخ التي تسيطر في الغرب مسيحيّة في طبيعتها، وكان تاريخ خلاص البشرية والتاريخ العالمي والديانة المسيحية والحضارة الإنسانيّة وحدة متماسكة . والآن وللمرة الأولى دخل ، عالم غير مسيحي في آفاق الغربيين ، وكان لا بدّ لهم من الاعتراف بتفوّقه الحضاري . وهكذا فإنّ الصورة البسيطة للكون والتاريخ والمبنية على مجرى تاريخ الخلاص التي كانت العصور المتوسطة الأولى تعرفها ، أخذت تهتز . وبذلك استيقظ في بلاد الغرب الدافع إلى الاتصال بهذا العالم الذي انكشف لهم حديثاً ، إن لم يكن التسلّط عليه بعد ممكناً ، وهو الدافع الذي كانت أحداث التاريخ العالمي في القرون التي تلت ، وخاصة الاندفاع المغولي وما ترتّب عليه ، تغذيه بشكل خاص . وقد تكشف هذا الدافع فيما بعد عن يقظة نحو رسالة مسيحية عالمية ، ثم

بعد ذلك في السعي وراء التحكّم في التجارة العالمية ، وأخيراً في الرغبة في فتح العالم عن طريق درسه واستعماره بالمعنى الأوروبي . ومن هنا كانت الحروبُ الصليبيّة الخطوة الحاسمة الأولى التي خطاها الأوروبيّون في سبيل هذا التوسع العالمي ، والتي قد تبدو ، بسبب البعد الزمني ، فصلاً لا أهميّة له في التاريخ الأوروبي مع أنها جزء ذو أهميّة كبرى منه، بحيث لا يمكن استبعاده قط من الصورة المجملة لهذا التاريخ .

ولقد ترتّب على قيام الحروب الصليبيّة انفتاح على القِيَم الحضاريّة التي وصلت من الشرق إلى أوروبة ، فأخذ الناس في الغرب بنقل المؤلفات العلمية من العربيّة إلى اللاتينية . وبذلك شُغِلوا مرّة بالترجمات العربية للمؤلفات الكلاسيكيّة القديمة التي كانت قد فقدت من الغرب ، ومرّة بترجمة مؤلفات عربيّة أصيلة ، وهي المؤلفات التي وضعت في الشرق الإسلامي بعد أن صرف القوم همهم إلى معرفة العلوم القديمة . هذه الترجمات من العربيّة أنعشت المعرفة العلميّة في الغرب بشكل قويّ ، بالإضافة إلى إيقاظها الروح العلميّة فيه .

وسرعان ما تفوّق الغرب على ما أنتجه الشرق من علوم . وهكذا كان لكتاب « القانون » ، وهو المؤلَّفَ الطبي الرئيسي لابن سينا (٣٦٩هـ / ٩٨٠م — ٤٢٨هـ / ١٠٣٧م) — الذي يعود بأصله إلى بلاد ما وراء النهر زمن السامانيين — أثر فعّال في تطوير المعرفــة الطبّية في الغرب حتى القرن السابع عشر . وشروح ابن رشد الأندلسي (٥١٤هـ/ ١١٢٠م — ٥٩٤هـ/١١٩٨م) لأرسطو غيّرت الفلسفة المسيحية في الغرب . فقد كانت هذه ، إلى ذلك الحين ، تسير في خطى آباء الكنيسة وخاصة القديس أوغسطين . وأتيح لهذه الفلسفة الآن أن تتفاعل مع أرسطو ، وتتجه عبر سمت السكولاستيكية إلى إعادة اكتشاف الكلاسيكية القديمة

مؤدية إلى النهضة والدراسات الإنسانية .

ويبدو أنّه ليس ثمّة ما يدلّ على تأثير عميق للحروب الصليبيّة على العالم الإسلامي . ذلك بأن هذا العالم كان ، في الوقت الذي دهمه الصليبيّون قد نضج وشاخ بحيث أنّه لم يكن باستطاعته أن يتأثر بالعالم الغربي الشاب ، الذي كان يطرق أبوابه محارباً ، فتظهر فيه استجابات مثمرة . ولعلّ النتيجة الوحيدة التي يمكن أن يحَس بوجودها في الجانب الإسلاميّ هي اتساعُ الهوّة بين المسيحيّة والإسلام ، وتعصّبٌ وعداوةٌ بين الفريقين . ومن الناحية الفكرية ثمة أمر ذو أهميّة لا شك فيه ، وهو أن الحملات الصليبيّة ساعدت على نجاح رد الفعل السُّنّي الذي قام به الأتراك .

ولم تكن الحروب الصليبيّة ، بطبيعة الحال ، الباعث الأصليّ على رد الفعل السني . ذلك بأنّ هذا كان قد بدأ ، على نحو ما رأينا ، في أيام محمود الغزنَويّ ؛ وقد كان نتيجةَ التغلّب الشيعيّ في ما سبق ذلك ، ويرتبط ارتباطاً وثيقاً بظهور الأتراك في الشرق الأدنى ؛ وكان هؤلاء قد اعتنقوا الإسلام على المذهب السنّي الذي كان سائداً في بلاد ما وراء النهر . حيث كان الحكامُ السلاجقةُ قد ساروا على نهج محمود الغزنويّ في حماية السنة وتشجيعها، وظلوا ينادون بها كاتجاه مضادٍ لشيعة البويهيين الاثني عشرية وإسماعيليّة الفاطميين على السواء . ولما دهم الصليبيّون ديار الشام ، اعتبرت السنّة نفسها على أنها الدعامة الروحية الملائمة للجهاد ضدّ المعتدين الكفرة . وكما حاول الفاطميون نشر العقيدة الإسماعيليّة عن طريق المؤسّسات التعليميّة التي كان الأزهر أشهرها ، كذلك شجّع السلاجقة ، بالطريقة نفسها ، الدراسات السنّية . في هذا الوقت ظهرت ، في كل مكان ، المدارسُ التي كان يُدرّس فيها أساتذةٌ معيّنون ثابتون تعاليم الدين والفقه وفقَ منهاجٍ ثابتٍ حسب مذاهب السنّة الأربعة . وقد كان أشهرَ هذه المدارس المدرسةُ

النظاميّةُ التي أنشأها ، في بغداد ، الوزير السلجوقي (الفارسي) نظامُ المُلك في سنة ٤٥٧هـ/١٠٦٥م ، والتي علّم فيها الغزالي لفترة ما ، وكذلك غيره من معاصريه من مشاهير العلماء . ولما قضى صلاح الدين على الدولة الفاطميّة سنة ٥٦٦هـ/١١٧١م ، وعادت السيادة السنّية إلى البلاد ، أصبحت القاهرة ، إلى جانب بغداد ، مركزاً رئيسياً لجميع العلوم السنّية ، أما الأزهر ، الذي كان من قبل إسماعيلياً ، فوُضعَ في خدمة الاتجاه الجديد، ولم يلبث أن أصبح رأس المعاهد السنّية في القاهرة .

بمثل هذه المساعي تمكّن سلاطين السلاجقة ، والسلاطين الذين خلفوهم في الدويلات السلجوقيّة ، من أن يهيّئوا للسنّة مركزاً منيعاً ، وبقيت محافظة عليه منذ ذلك الوقت . وبذلك زال الخطر من احتمال انتشار التيارات الشيعيّة . على أنّ هذا تمّ على حساب حريّة البحث في الأمور الدينية ، فبإخضاعها للنظام المدرسي تجمدت إلى علم الكلام .

ولم يكن الأتراك ، في ذلك الحين ، قد بلغوا بعد درجة الإنتاج في مجالات الفقه السنّي ، بل كانوا مشجّعين فقط . ولمّا كان قيام ثقافة قوميّة في إيران وكذلك قيام السيادة التركية، لم يؤدّيا إلى تقويض اللغة العربية التي كانت تعبيراً عن الثقافة الإسلامية عامة ، فقد استمرت دون انقطاع حتى الأزمنة الحديثة .

وإلى جانب العربية استمرت الإيرانية أيضاً وكتعبير عن الثقافة القومية الإيرانية ، التي لم يحافظ عليها السادة الأتراك فحسب ، بل كانوا من مشجّعيها . ذلك بأن الأتراك تلقّوا الإسلام عن إيرانيين من رعايا الدولة السامانيّة في شمال إيران ، حيث نشأت الثقافة القوميّة الفارسيّة الجديدة . وكما نُقِلَ الإسلام إلى الأتراك بالصيغة السنّية من بلاد ما وراء النهر السامانيّة ، كذلك تلقّوا الثقافة الإسلاميّة في لونها

الفارسي . وترتّب على ذلك أن الأتراك ، كمسلمين سنّيين ، كانوا ، في الوقت ذاته ، حاملي الثقافة القوميّة الفارسيّة ، ينشرونها في كلّ مكان تمتدّ إليه سيادتهم . ومن الطبيعيّ أن يكون دورهم هنا ، في باديء الأمر دور المشجع . إلاّ أنّه لم يمضِ وقت طويل حتى بدأ الأتراك أيضاً ينظمون الشعرَ بالفارسية ، لكنهم احتاجوا إلى وقت أطول حتى كوَّنوا لأنفسهم ثقافة قوميّة خاصة بهم . إلاّ أنها كانت تقليداً خالصاً للفارسيّة . وبغضّ النظر عن المراحل السابقة يمكن القول بأن ثقافة تركية قومية بدأت حوالي سنة ٦٩٩هـ/١٣٠٠م في الغرب ، أي الأناضول ، وحوالي سنة ٨٠٢هـ/١٤٠٠م في الشرق ، في إيران وتركستان .

وعلى كل فلم يكن الأتراك في ديارهم الأصلية خلواً من الحضارة ؛ فإن الحفريّات الألمانية في طُورفان (تركستان الشرقية) قد مكّنتنا من العثور على دلائل تشير إلى وجود حضارة تركية تعود إلى ما قبل وصول الإسلام إلى تلك الديار . كما أنه وُجد في زمن مبكر وبنسبة معقولة أدب إسلامي تركي . ولم تتطوّر هذه المُعطيات إلاّ بسبب تفوق الثقافة الفارسية . وما كان باستطاعة ثقافة تركية إسلاميّة أن تقوم لها قائمة إلاّ بعد أن تمكّن الأتراك من وضع الثقافة الإسلاميّة بأجمعها تحت جناحهم .

إلاّ أنّ الأتراك كانوا رجال حرب قبل أي شيء آخر . فقد أنشأوا في غرب آسية منذ أيام السلاجقة — وفي مصر منذ أيام الأيوبيين — طبقة من الجند المحاربين تولّت الأمور السياسية كلها في المناطق المحتلّة ، وتركت للأمم الإسلامية الأقدم عهداً أي العرب والفرس ، الاهتمام بالشؤون الثقافية . ويمكن القول ، دون تجنٍّ ، بأنه منذ أيّام السلجوقيّين كان المستولون على الحكم في الشرق الأدنى جميعهم تقريباً من أصلٍ تركيّ . وقد تكوّن هنا في أواخر العصور الوسطى تعايش خاص بين الأمم

الإسلامية الرئيسية الثلاث : فكانت العناية بالدين والعلم حصّة العرب . وكانت العناية بفنون الأدب من حصّة الفرس ، وتركت السلطةُ والسيادةُ للأتراك . وهذا شبيه بما جرى في أوروبا في الوقت ذاته ،حيث اعتبرت الأمور المتعلقة بالعقائد الدينية من نصيب الإيطاليين ، وعلوم الدنيا من نصيب الإفرنسيين . أما الألمان فكان من نصيبهم السلطة .

***

وكان المغرب المنطقة الوحيدة التي لم تتأثر بهذا التركيب . فالأتراك لم يصلوا إلى شمال إفريقية أو إسبانيا ، وتبعاً لذلك لم تصل الحضارة القومية الفارسيّة إلى هناك أيضاً ؛ بل ظلّت السيادة للعربية وحدها ، حملها العرب والبربر من أبناء الشعب وكذلك الإسبان الذين اعتنقوا الإسلام في إسبانيا . إلاّ أن سيادة الإسلام أخذت تتقلّص في إسبانيا . وكانت شمال إفريقية أضيق من أن تكون قاعدة لعمل سياسي ذي دلالة تاريخية عالمية . وقد ظهرت هنا دولتان ، تلت الواحدة منهما الأخرى . وقد ضمتا شمال إفريقية مع ما تبقى من إسبانيا ، وهما المرابطون (٤٤٨هـ/١٠٥٦م ـ ٥٤٢هـ/١١٤٧م) الذين نذروا أنفسهم للجهاد ، والموحّدون (٥١٥هـ/١١٢١م ـ ٦٦٧هـ/١٢٦٩م) الذين تبنّوا دعوة إصلاحية . إلاّ أنّ أثر هاتين الدولتين في التاريخ العالمي ضئيل . إن دولة الموحّدين انتهى أمرها بأن انقسمت إلى دويلات متعددة كان من أهمها دولة بني نصر في غرناطة (٧٣٢هـ/١٣٣٢م ـ ٨٩٧هـ/١٤٩٢م) ، التي كان لها في تاريخ إسبانيا الثقافي دور كبير ، بينما أصبحت الدويلاتُ التي خلفت الموحدين في شمال إفريقية (الحفصيون في تونس والزياريون في الجزائر) ، منذ مطلع القرن السادس عشر ، بعضها تابع للباب العالي وبعضها للمغرب . والمغرب الأقصى وحده هو الذي استطاع ، بدءاً

من سنة ٥٩١هـ / ١١٩٥م ، أن يحتفظ لنفسه بدولته الخاصة ، التي تناوبت السيادة فيها أسرٌ متعدّدة ، والتي استمرت على ذلك إلى الوقت الحاضر تقريباً .

وفي الشرق كانت ساعة النهاية لما تبقى من سيادة عربية اسمية في الخلافة العباسية تقترب تدريجياً . فحين بدأت دولة السلجوقيين الكبيرة في الانقسام ، حاول الخليفة العباسي الناصر لدين الله (٥٧٦هـ/١١٨٠م — ٦٢٣هـ/١٢٢٥م) تحرير بغداد والعراق ، على الأقل ، من سلطة السلجوقيين ، والاحتفاظ بها على شكل دولة دينية تحت سلطة الخليفة فقط ، وأراد أن يزيد من قوّة الخلافة في العالم الإسلامي . ويبدو أنّه استخدم لذلك فرقة من أهل الفروسيّة (الفتيان) ، كان يرأسها شخصياً ، ويحاول نشر تعاليمها بين أمراء العالم الإسلامي ، أملاً في أن يضمّهم إليه عن طريق تقبّل الأتباع الواجبات التي تلقى على عاتقهم . وقد نجح الناصر في مسعاه . خصم واحد فقط كان يزعجه وكاد يحبط خططه ، هو خُوارزمشاه محمد ، صاحب خُوارزم وهي المنطقه الرسوبية المكونة من دلتا نهر أكسوس (سيحون) عند مصبه في بحر آرال . وقد كان خُوارزمشاه من أتباع السلاجقة ؛ أمّا وقد تمزّق مُلكهم واضمحلّت سلطتُهم ، وأصبحت إيران كلها تحت نفوذه ، فقد طمع في أن يتولّى أمر بغداد والعراق على اعتباره خليفة للسلاطين السلاجقة . فقامت بسبب ذلك الحرب بين الخليفة وخوارزمشاه . إلاّ أنّه قبل أن تقع المعركة الفاصلة بينهما ، هاجم المغول بقيادة جنكيزخان (سنة ٦١٦هـ / ١٢١٩م) خوارزمشاه وانتصروا عليه . وأثناء هروبه أمام المغول توفي في جزيرة في بحر قزْوين (سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م) . وهكذا أنقذت بغداد والخلافة العبّاسيّة كأنما بأعجوبة .

وقد شعرت دولة الخلافة الصغيرة بالأمان لبعض الوقت . ذلك بأن جلال الدين مينْقوبِرتي ابن وخليفة خوارزمشاه ، الذي اغتيل سنة ٦٢٨هـ/

١٢٣١م ، كان قد ضعف سلطانه بسبب الصدمة التي أصابت ملكه من الهجوم المغولي ، بحيث إنه لم يستطع أن يستمر في الدور الذي قام به أبوه في معترك السياسة الدوليّة ؛ هذا مع العلم بأن المغول انسحبوا وتركوا إيران وشأنها . على أنّ هذا كلّه لم يكن إلاّ تأجيلاً مؤقتاً للنهاية المحتومة .

بعد أن قام خلفاء جنكيزخان بتنظيم الإمبراطورية المغولية ، ظهر حفيد جنكيزخان ، في إيران سنة ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م مصمّماً على فتح غرب آسية ، وذلك نيابة عن أخيه الخان الكبير منجكه . وبعد أن دان له صغار الأمراء في إيران وبلاد القفقاس ، لم يبقَ أمامه سوى اثنين من الخصوم ، وهما اللذان كانا يتمتّعان بقوّة روحية خاصة ، وهما كبير الحشاشين والخليفة . وفي سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م تمّ للمغول احتلال القسم الأكبر من حصون الحشاشين دون عناء كبير ، وأخيراً سقطت ألَمُوت بعد حصار طويل لها وتجويع لسكانها ، وقضي على آخر داعي دعاة فيها . وهكذا تحطمت قوّة جماعة الحشاشين السرية ، وهو الأمر الوحيد الذي حمدَه السنّةُ للمغول . ولم يبقَ محافظاً على كيانه لبعض الوقت سوى الفرع السوري من الحشّاشين الذين كانوا تحت إمرة «شيخ الجبل» ، ولم يُقْضَ على سلطانهم قضاءً نهائياً إلاّ في سنة ٦٧١هـ/١٢٧٢م على يد بيبرس أحد سلاطين المماليك . ولا يزال أعقاب الحشاشين يعيشون إلى الآن في سورية (جبال النصيرية والسلمية) وفي إيران والهند وشرق إفريقية كفرقة مسالمة ، دون أن يكون لهم كيان واضح المعالم .

بعد الاستيلاء على ألَموت انصرف هولاكو حالاً إلى تحقيق هدفه الثاني . وبعد انتصار المغول على جيش الخليفة ، في ١٦ — ١٧ محرم ٦٥٦هـ/ ١٦ — ١٧ كانون الثاني — يناير ١٢٥٨م ، ظهروا أمام بغداد التي اضطرت إلى التسليم في ٩ صفر / ١٠ شباط — فبراير من العام نفسه . وقد قُتِل

المستعصم بالله ، آخر الخلفاء العباسيين ، مع عدد كبير من أفراد أسرته (١٩ صفر/٢٠ شباط – فبراير)، وأبيحت المدينة للنهب، وأشعلت فيها النيران . كانت هذه هي النهاية الدامية للخلافة العبّاسية ، وهي نهايةُ أسرةٍ عربيّة شهيرة متصلة النسب بالنبي ، ولكنها بسبب نظام الحريم الذي رافقها لأجيال عديدة أصبحت نسبةُ الدم العربي الذي يجري في عروق أفرادها ضئيلة للغاية . كانت هذه نهاية الخلافة من حيث إنها نظام حيّ معترف به عامة في الإسلام السنّي . إلاّ أن سلطتها كانت قد تقلّصت إلى الحد الأدنى منذ قرون عديدة .

الفصل السابع

عصر المغول ودولة المماليك

بعد احتلال بغداد وجّه هولاكو اهتمامه إلى الهدف التالي ، فتح سوريا . إلاّ أنّ المغول التقوا هنا بمن يفوقهم وذلك في أشخاص سلاطين المماليك . إنّ نبأ وفاة الخان الكبير مُنْجكه ، حمل هولاكو على العودة إلى بلاده ليشترك في انتخاب الخان الجديد ، ولذلك لم يتمكّن من قيادة الحملة على سوريا بنفسه . ومن الجهة الأخرى عرّف السلطانُ المملوكي قُطُز كيف يزيل من نفوس الجند المصري اليأس الذي كان قد دبّ فيها خوفاً من المغول وبطشهم ، وقاد جيشه بعزم ضدّهم . والتقى بهم في معركة « عين جالوت » في شمال فلسطين ، التي انتهت بنصر ساحق للمصريين وإفناء جيش المغول (شوال ٦٥٨ / أيلول – سبتمبر ١٢٦٠) ؛ كما أنّ القائد المغولي قُطْبُغا لقي حتفه في المعركة . وبذلك أُقصيَ الخطر المغولي عن دولة المماليك نهائياً . ومع أنّ الإيلخانات ، وهم حكام إيران من المغول ، حاولوا مرّات فيما بعد أن يهاجموا سورية ليجعلوا من شواطئ البحر المتوسط حدوداً لإمبراطوريتهم ، إلاّ أنهم لم ينجحوا في ذلك أبداً .

كان لمعركة عين جالوت ، بالنسبة إلى السلطان قُطز ، تتمّة مؤلمة . ذلك أن بيبرس ، من بين قوّاد قُطز ، وقائد طليعة الجيش ،

قام بدور هام في إحراز النصر ، فأمّل في أن يكافأ على ذلك مكافأة مناسبة . إلاّ أنه لم يحصل على شيء ولذلك اغتال السلطان أثناء الصيد انتقاماً منه . ونادى به المماليك عندها سلطاناً (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م) .
وقد كان الظاهر بيبرس البُنْدُقداري أبعد سلاطين المماليك نجاحاً وأقدرهم . فقد استمر في محاربة المغول بنجاح ، كما أنه أضعف سلطان الصليبيين (احتل أنطاكية ٦٦٦هـ/١٢٦٨م) ، وقضى على سلطان الحشاشين في سورية (٦٧٠هـ/١٢٧٢م) . وكان بيبرس متحالفاً وبركه خان ، أمير الحشد الذهبي ، وهي الدولة التّرية في روسيا . وقد سمى بيبرس ابنه الذي تولى السلطنة في مصر بعد وفاته باسم هذا الخان . واستمر بيبرس يحيا في مخيّلة الشعب المصري . فقد نسجت حول حياته سيرة ذات امتداد كبير ، يقرأها قُصّاص محترفون لجماعات من الشعب ، خاصة في ليالي رمضان .

• • •

إن نجاح المماليك في صدّ الخطر المغولي ، أكسب دولتهم وعاصمتهم القاهرة منزلة مرموقة في العالم الإسلامي الذي كان قد أصابته هزّات عنيفة على أيدي المغول ، بحيث تحوّلت آمالُ هذا العالم بأجمعه إلى القاهرة . وحدث أيضاً أن هبط بلاطَ القاهرة ، في سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م ، أحد أفراد الأسرة ، العبّاسية من الذين نجوا من المجزرة الـتّي أفنى فيها هولاكو تلك الأسرة ، فاستقبله بيبرس استقبالاً حسناً . وبعد أن ثبتت صحّةُ انتسابه بويع في حفل عامّ خليفةً باسم المستنصر . إثر ذلك ولّى بيبرس «كشريك في الحكم» السلطة على البلاد الواقعة تحت خلافته . وقد وضع بيبرس تحت تصرف الخليفة جنداً لاستعادة بغداد ، إلاّ أن الخليفة قتل في أول

اصطدام . وبعد ذلك بوقت قصير (٦٦١هـ/١٢٦٣م) دلف إلى القاهرة ثانية أحد أفراد الأسرة العبّاسية . وقد أعيد الاحتفالُ بالبيعة للخليفة والتولية للسلطان ؛ إلاّ أنهم نبذوا فكرة محاولة فتح بغداد بعد ذلك . وهكذا أعيد للخلافة العباسية وجودها نظرياً في القاهرة ؛ لكن الخلفاء لم يكونوا ، في حقيقة الأمر ، سوى موظفين دينيين في بلاط السلاطين ، ولم تكن مهمتهم تتجاوز منح سلاطين المماليك « الشرعية » ، التي يمكنهم بواسطتها الظهور بمظهر حماة الخلافة . وفي بعض الأحيان كان وجود الخلافة في بلاط القاهرة يُستغل كوسيلة دبلوماسية لتبرير مطالب معيّنة . فبهذا نال بيبرس لدولة المماليك حق الدفاع عن المدن المقدسة في الإسلام مكّة والمدينة . وقد حدث أحياناً أن تقدّم بعض الحكّام خارج نطاق دولة المماليك إلى الخليفة يرجونه منحهم وثيقة تولية . إلاّ أنه في الحقيقة لم يبق للخلفاء المقيمين في القاهرة أيُّ شيءٍ خارج نطاق سيادة سلاطين المماليك . ولما تغلّب السلطانُ العثمانيّ سليم الأول على دولة المماليك في سنة ٩٢٣هـ/١٥١٧م، انتهى أمر خلافة القاهرة تلقائياً . وقد حمل السلطان سليم إلى القسطنطينية آخر الخلفاء مع غيره من أهل الوجاهة من الرجال الروحيين والدنيويين ، حيث انصرفوا إلى الحياة الخاصّة بعيدين عن الأنظار . أمّا ما قيل عن نقل الخلافة إلى السلطان سليم ، فهو قصة يعود اختلاقها إلى أواخر القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي .

إن النظرية التي كانت ترتبط بمفهوم الخلافة تبدّلت منذ سقوط الخلافة العباسيّة سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م . فقد ربط الناس بين هذا المفهوم وفكرة قوّة الإسلام : فمن جسّد هذه القوّة على أفضل وجه جاز له أن يسمّى خليفة ، أي أن الخلافة يتولاّها الأقوى بين الأمراء المسلمين . إلاّ أنّه لم يعد لقباً رسمياً يمنح من مكان ما ، إنما استمر كلقب متداول في إنتاج شعراء البلاط

والمؤرخين . ومن ثمّ فقد لُقب عدد من أصحاب السلطان ، وأكثرهم من الأتراك بطبيعة الحال ، بالخليفة . وحتّى محمد الثاني فاتح القسطنطينية كان يُشارُ إليه أحياناً بهذا الاسم ؛ وسليم الأول ، المحارب الكبير ، كان من حقه ، على أساس ما قام به من الأعمال ، أن يطالب بهذا اللقب ، إذ إنّه ، باعتباره وريثاً لسلاطين المماليك ، صارت إليه حراسة مكّة والمدينة . وهكذا أصبح لقب الخليفة مجرد تعريف فخري لأصحاب السلطة . ولم يتغيّر هذا إلاّ حين أخذت قوّة سلاطين آل عثمان تضعف ، حتّى أنهم تنازلوا عن بلاد إسلاميّة إلى دول غير إسلامية (التنازل عن القرم إلى الروسيا سنة ١٧٨٣م) . عندها ابتدع القوم القصّة القائلة بأنّ الخلافة انتقلت من آخر خليفة عباسي (في مصر) إلى سلاطين آل عثمان ، وجعلوا من «خليفة جميع المسلمين» شخصاً له منزلة دينية خاصة ، ليحتفظ لنفسه في نفوس المسلمين المُتخلّى عنهم بتأثير معيّن . وقد قبلت الدول الغربيّة أيضاً هذه القصة كما لو أنها حقيقة .

* * *

كان حكّام إيران المغول الأوّلون ، أيّ الإيلخانيّون ، وثنيّين ؛ ولدرجة ما يميلون إلى البوذيّة . أما الإسلام فكان موقفهم تجاهه عدائياً . وعلى عكس السلاطين السلاجقة لم يكونوا من مشجعي الثقافة الإسلامية ؛ وبغداد الـتي كان لها إلى ذلك الوقت مركزها الذي لا ينازع ، خسرت مكانتها ؛ فلم تتمكّن من النهوض من كبوتها الناجمة عمّا أصابها على أيدي المغول ، وهبطت إلى مستوى واحد من مراكز المقاطعات . وإذا كانت الثقافة الإسلامية لم يَقْضِ عليها تدفّق التيّار المغولي ، فإن الفضل في ذلك يعود إلى ما كان فيها من قوة داخلية كانت قد اكتسبتها في القرون

السالفة . كان موقف المغول من الثقافة الإسلامية شبيهاً من ناحية بموقف العرب من ثقافة أواخر العصور القديمة ؛ لم يكونوا ليستغنوا عنها ، بل كان لا بدّ لهم ، في نهاية المطاف ، من تمثّلها . ولم يتمّ هذا عند العرب إلاّ عن طريق الاندماج بين الإسلام والثقافة القديمة .

أما المغول فما كان ذلك ضرورياً بالنسبة لهم ؛ إذ إنهم لم يكونوا حملة فكرة دينيّة جديدة ، بل إنّ موقفهم من أديان الشعوب التي كانوا يسيطرون عليها كان حيادياً . ولم تلبث أن تغلّبت ثقافات هذه الشعوب على المغول أنفسهم : فقوبلاي خان ، فاتح الصين ما لبث أن أصبح صينياً ؛ والمغول الذين استقروا في إيران استمروا نصف قرن قبل أن يرضخوا للأمر الواقع ، وكان الإيلخان السابع غازان (٦٩٤هـ/١٢٩٥م — ٧٠٣هـ/١٣٠٤م) أول من اعتنق الإسلام ، ومعه انتقل جميع المغول الذين كانوا في غرب آسية إلى الإسلام . وقد كان معنى هذا ، من الناحية الجماهيرية ، أن الإسلام انتشر بين الأتراك . إذا إنّ المغول الأصليّين كانوا من ناحية العدد يكوّنون فئة ضئيلة هي الهيئة القيادية في الجيش المغولي ، وشريحة عليا رقيقة في الدولة الإيلخانيّة ؛ أما جمهرة الجيش فقد كانت تركية مسلمة ، وكان الموظفون من الفرس . وإذا استثنينا تأثير الصين ، وخاصة في مجال الفنّ ، بسبب الاتصال بتلك الديار ، فإن العصر المغولي لم يضف دافعاً جديداً إلى الثقافة الإسلامية ، ولم يتمكّن من تبديل معالمها . ومن الناحية العنصريّة فإن العصر لم يكن سوى مرحلة أخرى في انسياح الشعوب التّركية ، ممّا أدّى إلى تقوية العنصر التّركي في غرب آسية .

ولم يتمكّن الإيلخانات المتأخّرون ، حتّى بعد أن اعتنقوا الإسلام وأصبحوا أنصار الثقافة الإسلامية ، أن يستعيدوا للبلاد التي كانت تخضع

لهم القيادة الفكرية للعالم الإسلامي ؛ فقد انتقلت هذه القيادة إلى القاهرة ، وبقيت هناك ، من حيث الجوهر ، إلى هذا اليوم .

* * *

إن الأحداث التي تعاقبت على الدولة المغوليّة الفارسيّة لم تمسّ العالم الإسلامي إلاّ هامشيّاً ؛ فقد كانت الأمور تتبدل فيها كثيراً ، بحيث إنه ليس من الممكن الإحاطة بها هنا . وقد انهارت الدولة بعد وفاة الإيلخان أبي سعيد (٧٣٥هـ/١٣٣٥م) . إلاّ أنّ واحداً من أمراء آخر إيلخان ، المسمى حسن إبزُرُك (أي حسن الكبير) ، وهو من قبيلة جيلاير المغولية ، أسس لنفسه ملكاً في العراق والبلاد المجاورة ، واتخذ بغداد عاصمةً له ، حيث استمر حكم الجيلايريين إلى سنة ٨١٤هـ/١٤١١م .

وفي الوقت ذاته ظهر في بلاد ما وراء النهر ، التي أصبحت تسمّى تركستان ، تيمور (تيمورلنك) من قبيلة بارلَس المغوليّة المستركة ، الذي تولّى السلطة في بَلخ سنة ٧٧١هـ/١٣٧٠م وتلقب بالأمير الكبير . وكان تيمورلنك يهدف إلى إعادة وحدة الدولة المغولية . وبعد أن فتح البلاد التي كانت سابقاً دولة الإيلخانيين تلقّب بالسُّلطان (سنة ٧٩٠هـ/١٣٨٨م) . ولما لم يقبل أحمد الجيلايري الخضوع لتيمور ، قاد هذا جيشه إلى بغداد واحتلها (في سنتي ٧٩٥هـ — ٧٩٦هـ/١٣٩٢م — ١٣٩٣م) في الوقت الذي هرب فيه السلطان أحمد إلى مصر مستنجداً بالسلطان برقوق ، أوّل سلاطين البرجية . وبعد انسحاب تيمور ، استرد أحمد بغداد ، بالعون الذي أمدّه به برقوق ، وتمكّن حتّى من إلحاق الأذى بجيوش الفاتح أثنـــاء غزواته . فظهر تيمور ثانية في العراق وسورية . وانتصر على الجيش المصري الذي كان بقيادة السلطان فرج بن برقوق وذلك على

أبواب دمشق في صفر ٨٠٣ هـ/ كانون الأول – ديسمبر ١٤٠٠ م ، وقد سلّمت المدينة ، إلاّ أنّها أبيحت للسلب والنهب ، بالرغم من شروط التسليم . بعد نصف سنة ظهر تيمور أمام بغداد ، وباغت المدينة بهجومه في ٢٧ ذي القعدة ٨٠٣هـ/ ١٠ تموز – يوليو ١٤٠١م وعمل فيها ذبحاً وتقتيلاً . وبما أن تيمور لم يُعمَّر طويلاً بعد ذلك (توفي ١٧ رجب ٨٠٧هـ/ ١٩ كانون الثاني – يناير ١٤٠٥م) استطاع أحمد الجلايري من استعادة سلطانه . وقد تفوّقت حملات تيمور في وحشيتها حتّى على ما عُرف عن المغول . وقد أصاب المسيحيين من تيمور الكثير ؛ فهو المسؤول بشكل خاص عن حفر قبر المسيحية الشرقيّة .

انهارت دولة تيمور بنفس السرعة التي تأسست فيها ، وقد ظلّ جزءٌ منها فقط في أيدي التيموريين ؛ خراسان وبلاد ما وراء النهر . أما غرب إيران والعراق وما بين النهرين وأذربيجان فوقع بعضها في أيام الجيلايريين وبعضها بعد انقضاء أمرهم ، في أيدي أمراء أتراك ، فقسم كان يحكمه قَرَهْ كويونلو (٧٨٠هـ/ ١٣٧٨م – ٨٧٣هـ/ ١٤٦٩م) ، وقسم وقع تحت حكم أقُويونلو (٧٨٠هـ/١٣٧٨م – ٩٠٨هـ/ ١٥٠٢م) . وقد ظلت دولة المماليك في مصر بسيطرتها على سوريا وما إليها ، الدولة المتزعمة في العالم الإسلامي . كذلك تطوّر هذا القطر الذي لم تنله الأعاصير الخارجية إلى منطقة لها الزعامة الثقافية أيضاً زمن المماليك .

لقد صاحب أواخر القرن الخامس عشر تغيير هام في الغرب على نحو ما تمّ في الشرق . ففي أقصى الغرب ، في إسبانيا ، كان سقوط غرناطة (٨٩٨هـ/١٤٩٢م) إيذاناً بانتهاء سلطة الإسلام هناك . مقابل ذلك كانت سلطته في جنوب شرق أوروبة في تقدم . ففي سنة ١٢٠٤م قام صليبيو الحملة الرابعة بفتح القسطنطينية لحساب البندقيّة وأنشأوا هناك

ما عُرف بالمملكة اللاتينية . صحيح أن البيزنطيين تمكّنوا من فتح عاصمتهم ثانية في سنة ١٢٦١م وإعادة دولتهم هناك ، إلاّ أنّ قوّة الدولة البيزنطية ، التي كانت أمنع حصن في أوروبة ضدّ العالم الإسلامي ، قد تضعضعت . يضاف إلى ذلك انشغال البيزنطيين في البلقان ، ممّا حال بينهم وبين الدفاع عن ولاياتهم في آسية الصغرى على الشكل الذي يرغبونه . ومن ثمّ فقد عاد إلى الجهاد هناك نشاطه ، بحيث إن الأتراك كانوا قد وصلوا ، في سنة ٦٩٩هـ/١٣٠١م ، إلى شواطىء بحر إيجه . ولم يكن هؤلاء الأتراك تحت إمرة البيت السلجوقي – ذلك بأن سلاجقة الروم الذين كان قد ضعف أمرُهم كثيراً بسبب هجوم المغول عليهم سنة ٦٣٩هـ/١٢٤٢م ، لم يعد لهم الآن وجود – بل كانوا تحت إمرة فئة جديدة من الأمراء ، هي التي جاءت نتيجة هذا الجهاد . وكان وضع عثمان الذي قاد حُشوده من الأتراك إلى بيتانية وتحصّن في دوريلايوم (اسكي شهر منذ ذلك الوقت) أصعب وضع ، إذ كان قلب المملكة البيزنطية ممتداً أمامه والذي كان الدفاع عنه وعن عاصمته شديداً للغاية بطبيعة الحال . إلاّ أن قوة عثمان ازدادت بازدياد خطورة المهمة . ففي نفس الوقت الذي كان العثمانيون يزحفون فيه نحو بيزنطية كانت إمارتهم تمتص تدريجياً سائر الإمارات التركية في الأناضول . وفي سنة ٧٥٩هـ/١٣٥٨م انتقل العثمانيّون إلى أوروبة عبر الدردنيل وتمكّنوا من احتلال كلّ شبه جزيرة البلقان تقريباً ، بحيث إنّ الدولة البيزنطية ، ذات السطوة فيما مضى ، تقلّصت الآن وأصبحت تضمّ مدينة القسطنطينية وأرباضها المباشرة فقط . وقد أدّت هزيمة السلطان العثمانيّ بايزيد الأوّل لمّا التحم مع تيمور قرب أنقرة في ٢٠ ذي الحجّة ٨٠٤هـ/ ٢١ تموز – يوليو ١٤٠٢م ، إلى تأخير الأحداث نصف قرن . وهكذا قُيّض للسلطان محمد الثاني ، بعد تولّيه حكم دولته

التي كانت تشمل آسية الصغرى (الأناضول) بكاملها وشبه جزيرة البلقان (الرّوملّي) بأجمعها ، وقد توّج فتوحاته باحتلال القسطنطينية في ٢٠ جمادى الأولى ٨٥٧هـ/ ٢٩ أيار – مايو ١٤٥٣م ، واتخــذ من عاصمة الدولة الرومانية الشرقية عاصمةً للدولة العثمانية .

* * *

في الوقت الذي كان فيه الخطر المحيط بجناح من القارة الأوروبية في جنوبها الشرقي يتزايد ، كانت أوروبة ، في شبه جزيرة إيبرية التي انتزعتها بكاملها من الإسلام تتقدّم بخطوات ثابتة في العالم خارج أوروبة . فقد أُتيحت لجمهوريات إيطالية التجارية ، عن طريق سلطان المغول ، إمكانيات غير متوقعة لتكوين علاقات تصل حتّى إلى الصين . والصين والهنــد ، اللتان كانتا إلى ذلك الوقت تعتبران أشبه ببلاد أسطورية ، لأنّهما لم تُعْرفا إلاّ من خلال أخبار ضبابية رويَت عنهما خاصّةً عند المؤلفين القدامى ، دخلتا الآن دائرة معرفة هذه الجمهوريات . إلاّ أنه في سنة ٧٦٩هـ/١٣٦٨م قضي على أسرة يوان المغولية في الصين ، وقامت مكانها الأسرة الوطنية الصينية منغ الجديدة ، التي كانت تعادي الغرباء ، فأغلقت الحدود . وفي الناحية الثانية كانت تجارة الهند ، التي تمرّ عبر مصر ، تحت نفوذ سلاطين المماليك ، الذين استغلوا موقعهم الهام غاية الاستغلال عن طريق إجراءات جمركية تعسفية . ومن ثم فقد كانت أوروبة بأسرها مهتمة بقضية اكتشاف طريق بحري إلى الهند وشرق آسية ، يتجنّب المرور بمصر ويتّصل رأساً بتلك البلاد ، التي كانت ثروتها قد ضخمتها التخيلات إلى حد كبير . وقد تقدّم إلى ذلك كل من إسبانيا والبرتغال ، وهما البلدان اللذان يمتان إلى البحر المتوسط بصلة كما أنهما

يقعان على المحيط الأطلسي . فأبحر كرستوف كولمبس بتكليف من ملكيْ إسبانيا الموحدة باحثاً عن الهند عن طريق المحيط، فاكتشف أميركا سنة ١٤٩٢م . وبعد ذلك بمدّة قصيرة تمكّن فاسكو دي غاما البرتغالي من اكتشاف طريق بحري إلى الهند بالدوران حول إفريقيا ٩٠٢هـ-٩٠٣هـ/ ١٤٩٧م-١٤٩٨م . وقد ارتبط بهذا العمل توسّع استعماري بدأه البرتغاليون ثم لحقت بهم دُوَلٌ أوروبية أخرى - الهولانديّون والفرنسيّون وأخيراً الإنكليز . وبسبب الاكتشاف والاستعمار خسرت مصر وبلاد الشرق الأدنى بأجمعها تجارة الهند وقَبَعت من الناحية السياسيّة في زاوية منسيّة ، ممّا كان له أثر مباشر في إصابة الوضع المالي للمماليك بضربة شديدة هيأت الطريق لسقوطهم السريع ، ومن ثمّ تقهقُر في الأحوال المعيشية عامة نتج عنه ازدياد مستمر في الركود الثقافي في العالم الإسلامي .
أما بالنسبة إلى أوروبة فقد كان معنى هذا بدء توسعها العالمي الكبير . وقد رافق هذا كله تهيئة طويلة الأمد لحركـة فكرية تجديدية عُرفت باسم النهضة ، والنزعة الإنسانية والإصلاح الديني ، وبواسطتها عاد الغربُ إلى اكتشاف القيمة العالية لثقافة العالم القديم ؛ وفي الوقت ذاته عمل على تحرير نفسه من تقليد ما كان يندرج تحت اسم الثقافة القديمة (استبدال نظام بطلميوس القائل بأن الأرض مركز الكون بما جاء به العالم الألماني نيكولاوس كوبرنيكوس القائل بأن الشمس هي المركز) . وهنا أيضاً في مجال الحياة الفكرية تأخر الشرق الإسلامي نهائياً عمّا صار إليه الغرب .

إلاّ أن أهمّ حادثة بالنسبة للتاريخ الداخلي للعالم الإسلامي ، كانت الحركة الشيعيّة الجديدة التي انتشرت من أذرْبيجان في أواخر القرن ولم تلبثْ أن عمّت إيران كلها وهددت بالانقضاض على السواحل الشرقية

للبحر المتوسط . فقد كان يعيش في أرْدَبيل ، على مقربة من شاطىء بحر قزوين ، شيخ تقي اسمه صفي الدين (٦٥٠هـ/١٢٥٢م - ٧٣٤هـ/١٣٣٤م) كان يدّعي بأنه متحدر من نسل موسى الكاظم ، وهو الإمام السابع عند الإمامية (الاثني عشرية) ، وقد مات وهو متّشح بالقداسة ودفن في أردبيل . وكان قد انشأ الطريقة «الصَّفَوِيَّة» . وانتقل احترام الشيخ على المألوف يومها ، إلى خلفه .

وهذه الطريقة ذات التعاليم الإمامية انتشرت بين الأتراك والفرس . وأصبح الضريحُ القائمُ في أردبيل محجّة يقصدها الكثيرون وذلك بتأثير الدعاية المنظمة التي قام بها شيوخ الصَّفويّة، حتى أصبح المقام لا يفوقه شعبية إلا مشهد ، في إيران كلّها . وكان العقب الرابع والخليفة للشيخ صفي الدين هو الشيخ جُنَيد (توفي ٨٦٠هـ/١٤٥٦م) الذي أخذ يربُطُ بالجهاد - وكانت فرصه في بلاد القفقاس كبيرة - مطالب سلطة دنيوية . فقام هو وابنه الشيخ حيدر وابنا هذا الأخير ، علي وإسماعيل ، بدعاية قوية لقضيتهم التي كانت تنتهي أحياناً بمطاردة أصحاب السلطان لهم ، وأحياناً تؤدي إلى انحيازهم إلى بعض هؤلاء السلاطين حين يتنازعون فيما بينهم . وهكذا كبرت القضية الصَّفوية حتى تمكّن الشيخ إسماعيل ، الذي لم يزد عمره عن ثلاث عشرة سنة، من إعطاء الإشارة للقيام بالعمل في سنة ٩٠٤هـ/١٤٩٩م . وبعد سنتين دخل تَبريز منتصراً ولقّب نفسه ، من ذلك الوقت «الشاه» . وفي فترة قصيرة نشر سلطانَه على غرب إيران كلّه (فارس) والعراق . وجُعِلت الشيعة الإمامية الدينَ الرسميّ للدولة ، ونشرت هناك بالقوة .

وقد ألقى الشاه إسماعيل بنظره كذلك نحو المنطقة الغربية الخاصة بالدولة العثمانية ، إذ كان له أتباع كثيرون في الأناضول ، بتأثير الدعوة

الصّفوية . ولمّا كان هؤلاء يكوّنون خطراً يهدد استمرار الدولة العثمانية فقد أحسّ السلطان سليم الأول ، الذي كان قد اعتلى العرش العثماني سنة ٩١٨هـ/١٥١٢م ، بالأمر . فقام حالاً بمطاردة أتباع الصّفوية الذين كانوا يُسمّون الرؤوس الحمراء ، لأنهم كانوا يعتمرون طواقي حمراء حسب ما استنّ لهم الشاه إسماعيل ، وأعلن الحرب على هذا الأخير . وقاد سليم حملته ضدّ مركز السلطة الصّفوية في أذربيجان وغلب الشاه إسماعيل في معركة فاصلة في ٢ رجب ٩٢٠هـ/٢٣ آب ـ أغسطس ١٥١٤م قرب چالديران بين بحيرة أورمية وتبريز . وفي ٥ أيلول ـ سبتمبر دخل سليم عاصمة الشاه ، تبريز ، لكنّه غادرها بعد بضعة أيام محمّلاً بغنائم كثيرة ، وعاد إلى بلاد الأناضول .

زال الخطر الرئيسي الذي كان يمكن أن يأتي من جانب القوّة الجديدة في إيران ؛ لكنّ سليم فكر في أن يتابع سيره ويستولي على مُلك الصّفويين بأجمعه . إلاّ أنّ موقف السلطان المملوكيّ قانصوه الغوري ، المتذبذب ، حمل السلطان العثماني على ترك الخطّة الأولى وتغييرهـــا بحيث يفتح دولة المماليك أوّلاً ، ذلك بأنه كان يرى أن الغوري قد خان الأمانة والواجب نحو الإسلام السنّي لاتفاقه مع الشاه الفارسي ضدّ السلطان سليم . في ٢٣ رجب ٩٢٢هـ/ ٢٤ آب ـ أغسطس ١٥١٦م ضُرب المصريون في مرج دابق على مقربة من حلب ضربة قاضية ، وقد مات السلطان قانصوه ، وكان متقدماً في السنّ ، في المعركة ، بسبب الهزيمة . واستطاع سليم الآن أن يعبر سورية دون عائق ويحتل دمشق دون قتال . ولمّا لم تؤدّ المفاوضات مع السلطان طومان باي الذي انتخب خلفاً للغوري إلى نتيجة زحف سليم نحو مصر . ومني المماليك بالهزيمة في الرّيدانية ، على مقربة من القاهرة في أول محرم ٩٢٣هـ/ ٢٤ كانون الثاني ـ يناير ١٥١٧م وتمّ

احتلال القاهرة بعد ذلك بأيام (٧ محرم ٩٢٣هـ/٣٠ كانون الثاني — يناير ١٥١٧م) . وقد تمكّن طومان باي من الهرب ، إلاّ أنه هُزم ثانية قرب الجيزة حيث سلمه أحد الخائنين إلى السلطان سليم الذي أعدمه عند باب الزويلة في القاهرة . وفي ١٨ أو ١٩ ربيع الأول ٩٢٣هـ/١٢ أو ١٣ نيسان — إبريل ١٥١٧م قاد السلطان سليم موكبَه إلى القاهرة كسيِّد مصر الجديد .

ويعود الفضل في النجاح الحربي الذي حقّقه سليم ضدّ الفرس وضدّ المصريين إلى الأسلحة النارية الجديدة التي كان قد قبسها عن أوروبة ، وهو الأمر نفسه الذي مكّن لمحمد الثاني من احتلال القسطنطينية . أما المماليك فإمّا أنهم لم يمتلكوا السلاح الجديد ، أو أنّهم استعملوه على نطاق ضيق . وأصبح سليم الآن السيّد غير المنازع في دولة المماليك بأكملها وحامي الأماكن الإسلامية المقدسة . وبسبب هـــذه الفتوح التي أدّت إلى اتساع رقعة الإمبراطورية العثمانيّة ، أصبحت الدولة الأولى في العالم الإسلاميّ ، وبالتالي حامية السنّة مقابل بلاد الفرس التي اعتنقت كلها المذهب الشيعي .

الفصل الثامن

العالم العربي كجزء من الإمبراطورية العثمانية

إن المملكة العثمانية التي بدأت كدولة (جهاد) في أقصى حدود العالم الإسلامي ، والتي تطورت كوريثة للدولة البيزنطية إلى مملكة وسطى تقع بين الشرق والغرب ، أصبحت نتيجة لفتوحات سليم الأول، إمبراطورية إسلامية عالميّة تضم القسم الأكبر من قلب العالم الإسلامي . وأصبحت عاصمتها القسطنطينية ، بسبب ما حمل سليم معه من القاهرة من كتب ثمينة وعلماء مركزاً رئيسياً للثقافة الإسلامية ؛ وهبطت القاهرة إلى مستوى مدينة من مدن الولايات من الدرجة الثانية ، مع احتفاظها ببريقها . وصارت بلادُ دولة المماليك ولايات عثمانية . إلاّ أنّه بينما وقعت سوريا تحت إدارة الباب العالي مباشرة ، نالت مصر مكانة خاصة كباشليق مستقل نسبياً ، لا يتوجب عليه إلاّ دفع الضريبة السنوية ، وكي لا تزداد قوة الباشاوات أكثر من اللازم فإنّهم كانوا يبدّلون باستمرار . وفي هذه الظروف عاد إلى طبقة المحاربين المماليك تأثيرها من جديد ، على مجرى الأمور في مصر ؛ ومع الزمن عادت السلطة في البلاد إليهم .

وفي أيام سليم الأول ضُمَّ المغرب الأوسط أي الجزائر إلى الإمبراطورية العثمانيّة ، ذلك أنه عقب سنة ٩٠٥هـ/١٥٠٠م بدأ الإسبان خطّتهم لاحتلال

البلاد ، مفيدين من الأحوال المضطربة هناك . وهنا دخل اثنان من كبار القرصان الأتراك — وهما الأخوان عَرُوج وخير الدين بربروسّا ، اللذان كانا من مواليد جزيرة ميتلين — بسفنهما إلى الحوض الغربي للبحر المتوسط ، وقاما منفردين بالجهاد ضدّ إسبانيا ، على طريقة الغزوات القديمة . ففي سنة ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م احتل عَرُوج الجزائر وولّى أخاه خير الدين نائباً لـه ، بينما انصرف هو إلى القيام بمحاولات أخرى في غرب البلاد، حيث قُتِلَ في سنة ٩٢٤هـ/ ١٥١٨م. وبعد أن فتح سليم مصر (٩٢٣هـ/ ١٥١٧م) ، وضع خيرُ الدين نفسه تحت حماية الباب العالي وكوفيء كباشا و (بيلربك) بلاده ، بالسند المادي والأدبي الذي يحتاجه . فهو مؤسّس ولاية الجزائر تحت السيادة التركية . وفي تونس دامت الحرب بين آخر الحفصيين والإسبان والقراصنة الأتراك مدة أطول ؛ ولم تقع البلاد تحت السيادة التركية نهائياً وتؤسّس ولاية تونس إلاّ في سنة ٩٨٢هـ/١٥٧٤م على يد سِنان باشا .

كذلك خضع الحجازُ ومدنه المقدسة للسلطة التركيّة ، وكان حُكّامه أشراف مكّة من سلالة الحسن. وجرّب العثمانيون أن يضمّوا جنوب بلاد العرب أيضاً إلى سلطانهم . إلاّ أنهم لم ينجحوا في هذا إلاّ في فترات متقطعة (٩٥٣هـ/١٥٤٦م — ١٠٤٢هـ/١٦٣٣م و ١٢٦٤هـ/١٨٤٩م و ١٢٨٨هـ/ ١٨٧١م — ١٣٣٦هـ/ ١٩١٨م) ، وقد اقتصرت السيادة التركيّة على العاصمة صَنعاء وميناثها الحُدَيدة . أما أواسط بلاد العرب فقد استعصت على الأتراك كما استعصت من قبل على المماليك والعباسيّين وحتى على الساسانيين والبيزنطيين من قبلهم . وكما حاولت هذه الدول ، جرّب العثمانيون أيضاً أن يجذبوا شيوخ القبائل القاطنة على أطراف الحضر إلى الدولة ، فمنحوهم ألقاباً رنانة ، ودفعوا لهم معونات مالية ؛ وطالبوهم مقابل ذلك بكبح جماح القبائل حفاظاً على بلاد الحضر .

في سنة ٩١٤هـ — ٩١٥هـ/١٥٠٨م — ١٥٠٩م احتل الشاه إسماعيل بغداد والعراق بمقدساته الشيعية وضم ذلك إلى الدولة الصَّفويّة . وفي سنة ٩٤٤هـ/١٥٣٧م احتل سليمان القانوني بغداد ؛ إلاّ أن الشاه عباس الأول الصفويّ أخضع المــــدينة ثانية سنة ١٠٤١هـ/ ١٦٣٢م. وفي سنة ١٠٤٧هـ/ ١٦٣٨م استولى العثمانيون بقيادة مراد الرابع على بغداد نهائياً . وظلّت تحت سلطة العثمانيين حتّى انهيار إمبراطوريتهم سنة ١٣٣٦هـ/ ١٩١٨م .

وهكذا فمنذ أواسط القرن الحادي عشرهـ/ السابع عشر م أصبحت جميع البلاد الحضرية الناطقة بالضاد ، باستثناء المغرب الأقصى واليمن وعُمان ، أجزاء من الإمبراطورية العثمانية . وكان كبار الموظفين الإداريّين والرجال العسكريين يُرسلون إلى الولايات العربية من القسطنطينية ؛ وكان أكثرهم أتراكاً ، ولو أنّ العرب لم يحرموا كلية من الوظائف . فقد كانت شعوب الولايات بأجمعها ترزح تحت نفوذ أرستقراطية عسكريّة بيروقراطيّة تركية تقبل بإدخال عناصر من جميع شعوب الإمبراطورية ، سواء في ذلك العرب أوسكان البلقان دون أن تعير الأمر الكثير من التفكير . وكانت اللغة التّركيّة لغة الإدارة حتّى في الولايات العربيّة . ومع ذلك فإنّ كلّ تركيّ ، على قدرٍ من الثقافة ، كان يفهم العربية والفارسيّة . وكانت أكثر المؤلفات في العلوم الإسلامية ، وحتّى العلوم غير الإسلامية ، في القسطنطينية وغيرها من مدن المناطق التّركية كانت تدرَّس بالعربية في أول الأمر . وقد نشأ أدب تركيٌّ محتذياً النماذج الفارسية . وحتّى في الأمور العلمية صارت اللغة التّركية تستخدم بشكل متزايد لأغراض عملية في بادىء الأمر ثم لنقل الآثار العلمية الأوروبية عامة .

إن العصر العثماني ، بالرغم ممّا كان يتمتّع به من بريق القوّة في

الإمبراطورية الواسعة الأطراف ، لا يمكن اعتباره زمناً سعيداً بالنسبة إلى البلاد التابعة للدولة . أما مسألة استخدام الموظفين الأتراك وظيفتهم في الولايات كوسيلة لجمع أكبر قدر من الثروة وفي أقصر مدة فلا تعتبر من خصائص الحكم العثماني ، فإن بلاد الشرق قد اعتادت هذا الأمر منذ عهد الرومان . لم يكن الفرق سوى أن لصوصية الولاة كانت أمعن في الأذى وأبعد أثراً في إفقار الولايات ، ذلك أن هذه البلاد الفقيرة في قدراتها الإنتاجيّة بسبب جفاف المناطق في الشرق الأدنى ، كانت تتوسط طرق التجارة العالمية وكانت تفيد من التبادل التجاري بين المناطق المتحضرة في أوروبة والبحر المتوسط من جهة والهند والصين من جهة أخرى ، وعلى ذلك كانت ترتكز أحوالها المعيشية الحسنة . ولكن منذ اكتشاف أمريكا، والطريق البحري من أوروبة إلى الهند ، اتبعت التجارة العالمية طريقاً آخر ، ولم تعد تَمَسّ العالم العربي إلاّ قليلاً . يضاف إلى ذلك أيضاً أن ضعف الحكومة المتزايد أتاح الفرصة للعناصر البدوية أن تعود سيرتها الأولى ، وبذلك فُقِدَ الأمنُ في المناطق المحيطة بالأرض الزراعية ، ونتج عن ذلك تحول مساحات واسعة من الأرض الصالحة للاستغلال إلى ما يشبه السّهوب ، وبالتالي تناقص عدد السكان لأن الأرض لم تعد تنتج ما يكفي لإطعامهم .

وقد كان لتدهور الجهاز الحكوميّ العثماني عامة في الولايات العربية أثرٌ ضارّ ؛ وبما أن هذا الجهاز كان متوقّفاً على شخصية الحاكم ، فقد انهار ، لأن الشخصيّات القويّة التي اعتلت العرش ، بعد وفاة سليمان القانوني (٩٧٣هـ/ ١٥٦٦م) ، كانت نادرة جداً . وأصبحت الدولة حلبةً للصراع بين الباشاوات الطموحين ، الذين كانت خصوماتهم مرتبطة بدسائس القصر . وكان من النادر إيقاف هذه الخصومات عند حدّها ،

على نحو ما فعله سلطان قويّ مثل مراد الرابع (١٠٣٢هـ/١٦٢٣م–١٠٥٠هـ/١٦٤٠م) أو وزير قدير مثل كوپرلي محمد باشا (١٠٦٧هـ/١٦٥٦م–١٠٧١هـ/ ١٦٦١م) وابنه فاضل أحمد باشا (١٠٧١هـ/ ١٦٦١م– ١٠٨٧هـ/ ١٦٧٦م) . فحين بدأ في القرن الحادي عشر هـ/السابع عشر م التدهور الخارجيّ في الدولة العثمانية ، أخذ تركيبها الداخليّ أيضاً يتخلخل . فاستقل بعض الولاة واحتفظوا بما يجمعُ من الضريبة لأنفسهم ، واكتفوا بإرسال إتاوة ضئيلة على النحو الذي يختارونه إلى الباب العالي ؛ كما أنهم أورثوا أبناءهم ولاياتهم . وقد جرّب سليم الثالث (١٢٠٣هـ/١٧٨٩م– ١٢٢٢هـ/١٨٠٧م) أن يضع حدّاً لهذه الحالة ، إلاّ أن الإنكشاريّة خلعوه ، لأنه حاول ، في الوقت ذاته ، أن يستبدل فرق الإنكشارية القديمة غير الصالحة بجنود مدرّبين تدريباً أوروبياً . ولم يتمّ هذا الأمر إلاّ أيام محمود الثاني (١٢٢٣هـ/١٨٠٨م– ١٢٥٤هـ/ ١٨٣٩م) بعد أن قضى على الإنكشارية نهائياً (١٢٤١هـ/١٨٢٦م) .

* * *

في الوقت الذي كانت فيه رحى الحرب دائرة بين تركية وروسيا في سنة ١١٨٢هـ/١٧٦٨م اغتنم علي بك ، الذي كان من قبل مولى لأحد الموظفين الأتراك الكبار ، والذي أصبح شيخ البلد ، الفرصةَ وقام بعصيانٍ ضدّ الباب العالي واستبدّ بمصر وسوريا وأعلن نفسه (١١٨٥هـ/١٧٧١م) سلطاناً على مصر . إلاّ أنه قُضي عليه سنة ١٧٧٣ بسبب خيانة صديقه . وحاول الباب العالي بعد ذلك استعادة سلطته ، لكن دون جـدوى . وظلّت شؤون مصر بأيدي زعيمين من زعماء المماليك هما إبراهيم بك ومراد بك اللذين كان همهما الأوحـد جمع ثروة عن طريق

امتصاص دماء السكان ، حتّى جاء نابليون بونابرت إلى مصر ، رغبة منه في تهديد مركز بريطانية في الهند (نزل في الإسكندرية في ٢ تموز- يوليو ١٧٩٨ ، وفي ٢١ من الشهر نفسه انتصر على المماليك في معركة الأهرام ودخل بعدها القاهرة) . وقد كانت هذه أوّل مرة يُجرّ فيها بلد من بلدان العالم العربي ليصبح سلعة في السوق السياسية للدول الأوروبيّة الكبرى بمثل هذا الشكل الواضح ، دون أن يكون له قولٌ في الدور الذي سيؤديه ، الأمر الذي سيصبح مألوفاً في الغالب بالنسبة إلى بلاد الشرق .

وإذ قضي على الأسطول الفرنسي في أبي قير (١٨ صفر ١٢١٣هـ/ ١ آب - أغسطس ١٧٩٨م) ، تشجّع الباب العالي فأرسل حملة ضدّ نابليون بقيادة مصطفى باشا ، إلاّ أن نابليون هزمها في أبي قير ، في ٢١ صفر ١٢١٤هـ/ ٢٥ تموز - يوليو ١٧٩٩م . وقد وفد على مصر ، مع هذه الحملة ، ضابطٌ ألبانيّ الأصل اسمه محمد علي ، عمل جاهداً بعد انسحاب الفرنسيين النهائي (١٨٠١) على تجميع السلطة في يده ، فأخرج الباشا التركيّ من مصر ، وانتزع من الباب العالي الاعتراف به نائباً للسلطان على مصر. وهو الجد الأكبر للأسرة المالكة التي حكمت مصر حتّى سنة ١٩٥٢ . وقد لقيت تدابيره الإدارية وإجراءاته الاقتصادية التي أراد بها تحسين أوضاع مصر وتقوية مركزه مقاومة من قبل طبقة المحاربين المماليك ؛ إلاّ أنه تمكّن من كسر شوكتهم بذبح ثلاثمئة من زعمائهم في (٥ صفر ١٢٢٦هـ/ ١ آذار - مارس ١٨١١م) ومطاردة الباقين حتّى أفناهم .

* * *

في ذلك الوقت قامت في بلاد العرب حركة دينيّة تعود بالناس إلى

ما جاء به النبي (ص) من قبل .

وفي الواقع فقد سلكت الوهّابيّة ، وهي الحركة التي نقصدها، نفس الخط الذي اتبعه الإسلام قديماً ، ولكنه تخلّى عنه بعض الشيء بسبب تطوره إلى دين عالمي . وقد كان مؤسس الحركة محمد بن عبد الوهاب (١١١٥ / ١٧٠٣م — ١٢٠٥هـ/١٧٩١م) عالماً دينياً على المذهب الحنبلي ، وقد تأثّر كثيراً بالمحاولات الإصلاحية التي قام بها ابن تَيْمِية (٦٦١هـ/١٢٦٣م — ٧٢٨هـ/١٣٢٨م) والتي كانت في جوهرهـــا ترمي إلى تنقية الإسلام ممّا علق به من عادات لا تتفق مع السنّة لَصِقت به في مسيرته التاريخيّة عبر مختلف المناطق ، وفي مقدّمة هذه الأمور التصوّف والتّبرك بالأولياء ، والعودة بالإسلام إلى ما كان عليه أيّام الرسول . وقد كانت الدعوة احتجاجاً صارخاً من جانب العروبة الخالصة ، باسم السنّة ، ضدّ السير التاريخي للإسلام على النحو الذي تمّ به في بلاد الحضارات القديمة . كما كانت الدعوةُ حرباً على كلّ تجديد ولون من ألوان المدنيّة مثل القهوة والتبغ وغيرهما، وبشكل خاصّ كانت حرباً على كلّ نوع من الرفاهية ، واعتمدت التقشف الصارم . وقد وجد محمد بن عبد الوهاب العونَ عند محمد بن سعود أمير الدرعيّة في نجد ، حيث ألقى هذا بثقله في سبيل الدعوة الجديدة . ففي أيامه (توفي ١١٧٨ هـ/١٧٦٥م) وأيام ابنه عبد العزيز ١١٧٨ هـ / ١٧٦٥ م — ١٢١٨ هـ / ١٨٠٣ م) ، الذي اتخذ من ابن عبد الوهاب زعيماً روحياً ، اتسعت رقعةُ النفوذِ الوهابي بحيث شملت شبهَ الجزيرة تقريباً ، الأمر الذي لفتَ أنظار الباب العالي إليها . إلاّ أنّ إجراءاته (الباب العالي) فشلت لاصطدامها بإرادة القتال لدى الوهابيين الذين هاجموا العراق سنة ١٢١٦هـ/١٨٠١م وقاموا بتخريب ونهب الأماكن المقدّسة في كربلاء . وفي سنة ١٢١٨هـ/١٨٠٣م دخل الوهابيون مكّة

وعملوا على تنقيتها من كل ما اعتبروه خروجاً على الدين . إلاّ أن الوهابيين اضطرّوا بعد مدة قصيرة إلى إخلاء مكة . ولكن بتزايد قوتهم عاد الإمام الوهابي الجديد ، سعود (١٢١٨هـ/١٨٠٣م – ١٢٢٩هـ/ ١٨١٤م) إلى مهاجمة الحجاز ، فسلّمت له المدينة المنورة (١٢١٩هـ/١٨٠٤م) ومكة المكرمة (١٢٢١هـ/١٨٠٦م) . وفي السنوات التي تلت عبرت حشوده حدود شبه الجزيرة ثانية وهاجمت النجف ودمشق ؛ لكنها واجهت مقاومة عنيفة .

وقد أصاب العالمَ الإسلاميَّ شيءٌ من الذهول بسبب ما وقع للأماكن المقدسة . والاستيلاء على الولايات الحضرية الملاصقة لشبه الجزيرة أثار القلق لدى الباب العالي . فأطلق يد نائب السلطان في مصر ، محمد علي باشا ، ضدّ الوهابيين . فاحتل الجيش الذي أرسله محمد علي إلى بلاد العرب المدينة المنوّرة في سنة ١٢٢٧هـ/١٨١٢م ومكّة المكرّمة في السنة التالية . ولم يكن بالإمكان التقدم إلى أبعد من هذا ضدّ الوهابيين . إلاّ أنّ جيشاً جديداً أرسله محمد علي باشا سنة ١٢٣١هـ/١٨١٦م بقيادة ابنه إبراهيم باشا ، زحف إلى أواسط المنطقة الوهابية واحتلّ عاصمتها الدّرْعيّة في ٨ ذي القعدة ١٢٣٣هـ/ ٩ أيلول – سبتمبر ١٨١٨م . وقد أُسر الإمام عبد الله وأُرْسلَ إلى القسطنطينية حيث أُعدم . وكانت هذه نهاية الدولة السعوديّة الأولى . إلاّ أنّ الحركة الوهابيّة لم ينتهِ أمرها . فبعد رحيل إبراهيم باشا جمع تُركي – وهو ابن عمّ سعود – الوهابيين سنة ١٢٣٦هـ / ١٨٢١م وحاول أن يعيدَ الدولة وعاصمتها الرياض إلى ما كانت عليه . لكن الأحوال لم تكن مؤاتية ؛ وقد نجح عبد العزيز آل سعود في مطلع القرن الحالي في إقامة الدولة السعودية الوهابية من جديد ، وتكاد تشمل الآن شبه الجزيرة بأكملها ، كما أنها تحتل مركزاً هاماً في العالم الإسلامي .

بسبب الحملات الناجحة التي قام بها محمد علي باشا ضدّ الوهابيّين ارتفعت منزلته في العالم الإسلامي وفي نظر الدول الأوروبية كثيراً. وازدادت مكانته ارتفاعاً بسبب حملته على الجنوب التي أكسبته السودان (أُنشئت الخرطوم سنة ١٢٣٧هـ/١٨٢٢م). وحدث مثل ذلك عندما لم يتمكّن الباب العالي من تهدئة الثورة اليونانية (١٨٢٦) إلاّ بمساعدة مصر. ولم يتمّ تحرير بلاد اليونان من السلطة التركية إلاّ بتدخل كلّ من إنكلترا وفرنسة وروسيا في المسألة اليونانية، وبعد تحطيم الأسطول التركي المصري في معركة نفارينو (٢٠ تشرين الأول – أكتوبر ١٨٢٧).

وقد انتهى الأمر بمحمد علي أن دخل في خصومة مع الباب العالي، إذ إنّ هذا أنكر عليه المكافأة، بدل المساعدة التي قدمها محمد علي له في التغلّب على العصيان اليوناني، وكان محمد علي ينتظر في مقابلها الولايات الشاميّة الأربع. ولذلك وقعت الحرب بينهما، وبعد اجتياز سوريا والانتصار في معركة فاصلة في قونية (٢١ كانون الأول – ديسمبر ١٨٣٢) اندفع إبراهيم باشا بجيشه نحو كوتاهية في غرب الأناضول. وتمّ الصلح، بتوسط الدول الأوروبية، ووُعد محمد علي بأن تكون له إدارة سورية وأدَنة (٦ نيسان – إبريل ١٨٣٣).

هنا بدأ محمد علي ببناء دولته. وقد فكّر في ضمّ كل البلاد الناطقة بالعربية تحت زعامته. وأظهر رغبته في الاستقلال عن الباب العالي. ولمّا حاول متابعة هذه السياسة، بمدّ نفوذه إلى العراق، عادت الحرب بينه وبين الباب العالي. وقد نزلت بالجيش التركي، الذي كان بقيادة حافظ باشا، ضربةٌ قاصمةٌ في معركة نِزِّب (٢٤ حزيران – يونيو ١٨٣٩م). وهنا ساد الاتجاه عند الدول الأوروبية، بزعامة انكلترا، إلى الإبقاء على تركية الدولة الهرمة، على شواطىء البوسفور وعلى

الخليج العربي ، بدلاً من أن تقع في قبضة حاكم نشيط فعال . ولذلك وضعت في اتفاقيّة لندن (٥ تموز - يوليو ١٨٤٠) الشروط التي كان على محمد علي أن يتقيّد بها ، والتي أُرغِمَ على قبولها في ٢٧ تشرين الثاني - نوفمبر من السنة ذاتها . فاضطر بعدها للتخلي عن ولاية كريت وولايات سوريا ، وإبقاء مصر كجزء من الإمبراطورية العثمانية وراثية في عائلته . وقد أوضح الفرمان الذي صدر في ١٣ شباط - فبراير ١٨٤١م العلاقات مع الباب العالي . ونتيجة لتدخل إنكلترا زال الاحتمال الأخير في أن تقوم دولةٌ عربيةٌ كبرى جديدةٌ في العالم العربي . وتوفي محمد علي باشا في ٢ آب - أغسطس ١٨٤٩م . وقد كان ، ولا ريب ، واحداً من أبرز الشخصيات في تاريخ الشرق .

وقبل ذلك بعشر سنوات ، في ٥ تموز - يوليو ١٨٣٠ ، كانت فرنسا قد احتلت مدينة الجزائر . وتبعاً لذلك اتضح ، كما حدث بالنسبة للضغط على محمد علي باشا من حيث موقفه من الباب العالي سنة ١٨٤٠ ، أنه لم يعد ثمة تاريخ للعالم العربي من حيث كونه تاريخاً خاصاً به . فقد بدا كأنّ القاعدة التجارية انتقلت من الشرق إلى الغرب نهائياً . وأصبح العالم العربي لا يزيد كثيراً عن كونه سلعة في سوق السياسة الدولية بالنسبة للدول الأوروبية الكبرى ؛ وأصبح قَدَره ، منذ ذلك الحين ، مرتبطاً بسير التاريخ الأوروبي . والسبيل الذي اختطه العالم العربي لنفسه في هذه الفترة الأوروبية الصبغة ، ونوع رد فعل العرب على هذا الدور السلبي الذي فرضه التاريخ عليهم ، مع أنهم كانوا منذ ذلك الوقت يتعرّضون للتيّارات الفكريّة من الغرب وفكرة القومية التي أصبحت حيّة فيما بينهم - هذا كلّه سيُعرَض في الفصل التالي من هذا الكتاب .

الفصل التاسع

العالم العربي في عصر القومية

تأليف الأستاذ د. فريتس شتيبات

إن حملة نابليون بونابرت على مصر سنة ١٧٩٨ تعيّن ، بالنسبة إلى العالم العربي ، بدء العصر الحديث . فقد كان هذا العالمُ ، لقرون خلت ، معزولاً عن أوروبة إلى درجة بعيدة . أمّا الآن فقد بدأت اتصالات قويّة ، إلاّ أنها قامت في ظروف تختلف كلية عن الاحتكاكات التي تمت في الماضي . ففي ما مضى شحذَ الإسلامُ عزيمةَ العرب ، فاندفعوا من شبه الجزيرة وفتحوا البلاد المتحضرة المحيطة بهم . وقد هدأت ، فيما بعد ، حدّةُ القوّة التوسعية في الإسلام ، غير أنّ الهجوم المضادّ الذي بدأته أوروبة في الحملات الصليبية لم يمس من العالم العربيّ إلاّ أطرافه ؛ وهذا يعود ، على أقل تقدير ، إلى أن العالم العربي كان قد نال من التفوّق الحضاري حظّاً كبيراً أكسبه ثقةً في النفس . أمّا الآن فالتفوّق كان ، بلا جدال ، في جانب الغرب .

إن التقدم الذي خبرته أوروبة منذ عصر النهضة لم يكن للشرق الإسلامي فيه نصيب . ففي علم الفقه الإسلامي اعتبر باب الاجتهاد مقفلاً ؛ وكان واجب العالم يقتصر على نقل المفاهيم الدينية الثابتة من جيل إلى جيل . وقد تمكّن التصوّف الإسلامي ، بواسطة الطرق الصوفية ، من التأثير

الشديد على الشرائح العريضة للجماهير الشعبية . لكن التصوّف ، الذي كان من قبل قد أغنى الدينَ عن طريق تفاعل داخلي عنيف ، قد مرّ عليه الآن زمن طويل وهو منصرف عن شؤون الدنيـا ومتجه نحو احتقار المجهودات الدنيويّة ، هذا إذا لم يكن قد تردّى إلى الشعوذة . ولم تقم حركة علمانية أي نضال واعٍ لتحرير الشؤون الدنيوية من السيطرة الدينيّة . ومن جهة أخرى كان المثلُ الأعلى لتنظيم المجتمع البشري على أساس ثيوقراطية عالمية قد أخذ في التلاشي والانزواء . وقد تجزأ السكان إلى وحدات صغيرة متعددة ، تكاد تكون مستقلة ذاتياً — قبائل وقرى ونقابات حرفية وطرقاً صوفية — تبذل كل منها جهدها في المحافظة على وجودها الخاص . وأصحاب الأمر ، الذين كان أكثرهم من أصل غير عربي ، كانوا يُقْبَلُون في مركز السلطة ، على اعتبار أنهم مسلمون . وكانت وظائف الربط والوساطة في المجتمع في أيدي العلماء ؛ الذين كانوا على وجه العموم يمالئون السلطة حتى حين يكون لهم الحق في انتقاد الحكام . وحين كانوا يبدون اهتماماً بوحدة الدين والثقافة الإسلامية لم يأتوا بجديد . ففي العصور الإسلاميّة المتأخرة لم تتمّ أيّ محاولة للتقدّم خطوة واحدة في مجال الحياة العلميّة أو الاقتصاديّة أو الاجتماعيّة .

لما اتّضح تفوّق الغرب الحديث أدرك بعض أولي الأمر من الشرقيين لأول مرّة ، أنه يجب عليهم أن يأخذوا بتعاليم الغرب ، إذا كانوا راغبين في أن يثبتوا أمامه . وكان البدء بتحديث الجيش أمراً بديهياً . لكن سرعان ما اتّضح للمسؤولين أنّ تحديثَ وسائل القتال يستدعي أن يسبقه إدارةٌ حديثة وأساليبُ صحية وتعليمية حديثة واقتصاد حديث . كان محمد علي الألباني (حكم ١٨٠٥ — ١٨٤٨) الذي انتزع السلطة في مصر أثناء الفوضى التي عصفت بها عقب الحملة الفرنسية ، قد جنى من إدراك

هذا الأمر أفضل النتائج . والطريق الذي سلكه وحمل مصر عليه حريّ بأن يوضَّح بعض الشيء لأنّه هو نفس الطريق الذي اتبعته أكثر الأقطار العربية بشكل أو بآخر .

استعان محمد علي بمستشارين من الغرب كان غالبهم إيطاليين في أوّل الأمر ثمّ فرنسيين فيما بعد ، لبناء أداة للحكم كانت موجّهة إلى تعبئة قدرات مصر لتحقيق أغراضه . استولى على المُلكيّة العقارية وعمل على إقامة تنظيمات حديثة للريّ وغيرها من التحسينات الزراعية وذلك لزيادة الإنتاج والدخل الحكومي . وقد بنى المصانع الأولى في مصر وأنشأ المدارس الأولى التي لم تكن مدارس دينيّة إنما علمانية الاتجاه ، وجمع لها الطلاب — وكثيراً ما كان يلجأ إلى الاكراه في ذلك — ليدرّب منهم الضباط والمهندسين والأطباء للجيش والموظفين . وقد أرسل عدداً كبيراً من الشباب إلى أوروبة للغاية نفسها . غير أن إجراءاته التعسّفية وغير المنسّقة أدّت إلى بعض الفشل والأخطاء الجديّة ، لكنها على العموم ، تُوِّجت بالنجاح . وهذا يثبته النجاحُ العسكريُّ الذي أحرزه محمد علي ، والذي وصف في الفصل السابق ، حتّى وإن انتهت خططه التوسعية إلى لا شيء بسبب تدخل الدول الأوروبية .

وقد توقّف تحديثُ مصر في أيام عباس (حكم ١٨٤٨ — ١٨٥٤) خليفة محمد علي ، لكنه عاد فسار بخطى حثيثة في أيام سعيد (حكم ١٨٥٤— ١٨٦٣) وإسماعيل (حكم ١٨٦٣ — ١٨٧٩) . وعلى كل فقد أفلتت أعنّة التطوّر من أيدي هذين الحاكمين . إذ فتحا أبواب بلادهما أكثر فأكثر للتأثير الغربي . فبنى الأوروبيون بتوكيل منهما قناة السويس (فُتحت ١٨٦٩) وموانىء وسكك حديدية وخطوط للبرق وقنوات أخرى للريّ . ولم يتّبع سعيد أو إسماعيل سياسة مالية رشيدة ، بل إنهما ،

رغبة منهما في تقليد أوروبة ، سمحا لنفسيهما أن ينساقا مع التهوّر وتبديد الأموال . وقد استغل أرباب الأعمال وأصحاب المصارف الغربيون هذا الضعف فيهما وكذلك الوضع القانوني للامتيازات الأجنبيّة ، الذي كانوا يتمتعون به في جميع أنحاء الإمبراطورية العثمانيّة ، دون شعور بالحرج . ومع أن الحكومة المصرية أثقلت كاهل رعاياها بضرائب لا تطاق ، فإنها كانت توغل في الديون حتّى اضطرت إلى إعلان إفلاسها سنة ١٨٧٦ . ومنذ ذلك الوقت أخذ صندوق الدَّيْن الدولي ، الذي كانت تترأسه حكومتا بريطانية العظمى وفرنسة ، بالإشراف على الشؤون المالية المصرية . حتّى أن عضواً بريطانياً وآخر فرنسياً دخلا الحكومة المصرية .

إلى هنا ويبدو تاريخ مصر الحديث كأنه عمل أسرةٍ غريبة الأصل عن البلد ونتيجة تأثيرٍ في السياسة والاقتصاد والثقافة جاء من الغرب . إن مثلَ هذا الوضع ما كان ليظلّ مدة طويلة دون تأثير عميق على ثقافة القطر وعلى المجتمع ، بل كان لا بدّ من أن يثير هذا الوضع أعماق نفوس القوم الخاضعين له ، ويؤدي إلى ردة فعل . وقد بدأ هذا مع الحقيقة الأساسية للعصر الحديث وهي تأكيد تفوّق الغرب على الشرق . والعقيدة الإسلامية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالفكرة القائلة بأن إرادة الله هي العامل الفعّال في التاريخ ، أي أن المؤمنين هم الذين يجب أن ينتصروا في الحياة الدنيا . وبين هذه الفكرة الإسلامية والواقع التاريخي تناقض جليّ . من هذا التناقض نشأت المشكلة التي جابهت العالم الإسلامي في العصر الحديث . وقد جرّب المسلمون طرقاً مختلفة للوصول إلى حلّ لها .

وفي بادىء الأمر ظن الكثيرون من الطبقة المثقفة الجديدة الذين تعلّموا في المدارس الحديثة أو الذين ذهبوا إلى أوروبة في بعثات دراسية ، أن

على الشرق تقليد الغرب المتفوّق في كل أمر كي يتسنى له استعادة عظمته الأولى . وما كان لهذا التقليد أن يقتصر على المجالات الفنّية فقط . فحتّى المفهوم الغربي للدولة سرعان ما وجد أتباعاً . فما عادوا يضعون الرعايا السلبيين مقابل الحاكم المطلق السلطة ، إنما يرون المواطنين والحكومة كأعضاء جسم واحد ؛ بل ذهبوا إلى وجوب إخضاع قرارات الحكومة لإرادة المواطنين . وقد كان دعاة التجديد ، الذين قالوا بأن الحياة العائلية بحاجة ٍ إلى إصلاح ، على درجة خاصة من الجرأة . فلمّا طلع قاسم أمين في سنة ١٨٩٩ بكتابه (تحرير المرأة) ، الذي طالب فيه بتحرير المرأة المسلمة ، كانت المقاومة التي واجهته ما زالت عنيفة . فقد احتدم النزاع بين التجديد وبين التقاليد العميقة الجذور . وهذه المقاومة لا يمكن تفسيرها فقط على أنها التشبث الطبيعي للبشر بالوضع القائم . فقد شعر المسلمون علاوة على ذلك أنهم بتقليد الغرب مهددون بضياع هويتهم .

فإلى جانب الرغبة في التعلم من الغرب ، ظهر في وقت مبكر السعي لتطوير قدرات ذاتية تعمل على حماية أصالة الكيان الخاص من الأمور الدخيلة عليه . وقد كان الجسر الأوّل الذي أُقيمَ بين الشيء الأصيل والشيء الأجنبي هو اللغة . فاللغة العربية لم تكن تملك يومها ، بطبيعة الحال ، الثروة اللفظيّة اللازمة للتعبير عن الأشياء والقضايا والوقائع الحضارية المستوردة من الغرب . إلاّ أنّ كتب العلم القديمة التي وضعها العرب فيما مضى ، تحتوي على اصطلاحات يمكن استعمالها في العلم الحديث ، فضلاً عن أن القدرة على الخلق اللّغويّ لوضع كلمات جديدة ما زالت موجودة . ولم يكن من قبيل المصادفة أن الناقل الأول الكبير إلى العربية وواحد من أكبر الشخصيات في النهضة العربيّة في القرن التاسع عشر ، الشيخ رِفاعة الطهطاوي (١٨٠١ – ١٨٧٣) كان

رجلاً ذا ثقافة تقليدية ولكن بذهنية متفتحة . كان رِفاعة قد أُرسل في بعثة علميّة من بعثات محمد علي إلى فرنسة ليكون لأفرادها مرشداً دينياً ، ولكنه استطاع هناك ، بجهده الشخصيّ ، أن يزوّد نفسه بالوسائل التي هيأته ليكون ناقلاً ممتازاً لثقافة الغرب .

والبحث عن وسيلة الاحتفاظ بالخصائص الذاتية قاد إلى تذكّر الماضي العربيّ المجيد ورسم السؤال عن أيّ من القوى أو القدرات يعود إليها الفضل في خلق ذلك المجد . وبالنسبة إلى المسلم المؤمن كان ثمة جواب واحد : الإسلام . ومن ثمّ فقد قامت محاولات قويّة للعمل على تجديد الثقافة الخاصّة عن طريق الدين . ولذا كانت هناك نزعة يرتأي ممثلوها تجاهل أوضاع العالم الحديث وتحقيق التجديد ، ببساطة ، عن طريق إعادة الأحوال الحياتية التي كانت قائمة ، أو التي تبدو لهم كأنها كانت قائمة ، في عهد الإسلام الأوّل الذي صُوّر على شكل مثالي . وقد كان أقوى تعبير لهذه النزعة في القرن العشرين حركة الإخوان المسلمين . ورأى مسلمون آخرون ، ومنذ وقت مبكّر ، أنّه يتوجّب عليهم أن يجابهوا العصر الحديث بعقلانيّة . إلاّ أن تفكيراً مثل هذا كان يقف في طريقه الحقيقة التالية وهي أن الشرع الإسلامي المبني على الوحي الإلهي ، والذي ينظم حتّى دقائق الحياة اليوميّة ، يضع حدوداً للعقل . وبما أنهم يرون أن الله ما كان يريد التأخر للمؤمنين ، فإذا كان الإسلام يعني التخلف في الوقت الحاضر ، فمعنى هذا أنّ الإسلام قد أُسيء فهمه ، ومن الواجب إذاً البحث عن الإسلام الصحيح ، وهو الإسلام الذي يؤدي إلى تحسين الأحوال ويدفع إلى التقدم . وكانت قمة هذه النزعة تتمثّل في محمد عبده (١٨٤٩ — ١٩٠٥) الذي كان في الوقت نفسه أبرزَ رجالِ الفكر الديني الإسلاميّ في العصر الحديث . كان محمد عبده يدعو إلى التوفيق بين

العقل والوحي بجرأة وفهم دقيق وعقلية متفتحة . إلاّ أنه لا يمكن القول بأنّه حلّ المشكلة ، أو وجد من بين رجال الدين من يخلفه في محاولاته ويتمّ عمله . لكنّه أوضح للمصلحين إمكانيّة السير في المستقبل نحو التقدم بقوة العقل دون أن يشعروا بأنهم يتخلّون عن أسس الإسلام .

بالإضافة إلى النزعات ذات الاتجاه الدينيّ ، كانت ثمة محاولات ، مع تعدد البواعث والغايات ، تتفق عامة في أن الشكل الخاصّ الذي يتحقق فيه التجدّد وتأكيد الذات إنما هو الأمة بالمفهوم القومي . وقد جاءت فكرةُ الأمة من الغرب ، فقد كانت مرتبطة بالمفهوم الجديد للطبيعة العضويّة للدولة ، وأدّت ، تبعاً لذلك ، إلى الدستورية الليبرالية . وبالرغم من كون فكرة القومية غربيّة الأصل ، فإنها لم تلبث أن تطوّرت إلى خصومة للغرب وعداء للأجانب ، لما بدت للقوم الجوانبُ المُضرة للنفوذ الأجنبيّ . فتحول الإعجاب بالغرب إلى كراهية له ، حين ظهر وكأنه خان مُثُله التي أقامها بنفسه حول كرامة الإنسان وسيادة الأمة . وترتب على هذا وعلى خيبةِ الأمل التي رافقت التجارب العمليّة التي كانت للعرب مع الاتجاهات الديمقراطية ، أن خسرت الليبرالية فيما بعد جاذبيّتها واتجهت القومية نحو الحكم الاستئثاري .

كانت الجماعة الإسلامية التقليديّة تجعل للطوائف غير المسلمة كياناً خاصاً بهم . إلاّ أن الفكرة القوميّة كانت تتطلّب أن يندمج اليهود والمسيحيون من السكان الأصليين بالأمة ويصبحوا جزءاً منها ، كما أنها تفصل المسلمين من الأمة الواحدة عن إخوانهم في الدين المقيمين في بلاد أخرى . ولا يعني هذا إمكانية تمييز قاطع بين القومية والنزعة الدينية التجديدية . وكان الدفاع عن النفس ضد الأجانب يربط بين النزعتين . وجمال الدين المُسمى بالأفغاني (١٨٣٩ – ١٨٩٧ م) ،

الداعية الإسلامي الكبير ، ذو الأصل الفارسي ، دفع بالحركة الإصلاحية الإسلامية إلى الأمام ونشر فكرة الجامعة الإسلامية على أنها فكرة سياسية ، وأثار في الوقت ذاته ، في كثير من البلاد الإسلامية ، الحركة الدستورية والقوميّة ؛ ففي نظره كانت عودةُ الحياة للبلاد المختلفة ، وحمايتُها من الإمبريالية الغربيّة وتجديدُ الإسلام عامة – تنصهر معاً في كلٍّ منسجم .
وعندما بدأت القوميّة المصريّة تأخذ شكلها في السبعينات من القرن التاسع عشر ، تآخى الأفغاني وتلميذه محمد عبده مع مصريين يهود ومسيحيين ، وحتّى هذا التصرّف العملي المؤسس على قومية تتجاوز الطائفية ، لم يمنع قيام توتّر معتقدي (طائفي مذهبي) باستمرار ، لأن المسلمين وغير المسلمين لم يتمكنوا من التحلّل من التدخل التقليدي للطائفية في السياسة . وحتّى اليوم يمكن ملاحظة نزعة إسلامية قوية في القومية العربية. ومن ناحية أخرى طوّر قوميون ليبراليون، مثل لطفي السيد (١٨٧٢ – ١٩٦٣) ، الميل نحو العلمانيّة وفصل السياسة عن الدين .

لقد حمل العبء الأكبر من محاولات التجديد فئةُ المثقّفين من المواطنين ، وهم الذين عملوا كموظفين في خدمة الدولة ، وفي المهن الحرة ، مثل المحامين والأطباء . وسيطر الأجانب على الحياة الاقتصادية الحديثة مدة طويلة . وقد كان غير المسلمين هم أول من دخل هذا المجال – وهو وَضعٌ أسهم في استمرار التناقض المذهبي الطائفي . وكانت الطبقة العليا تتكوّن من أرستقراطيّة العسكريّين والموظفين العاملين في الإمبراطورية العثمانية ، وهم من أصل أجنبي وكانوا يكافأون على خدماتهم بتمليكهم الأراضي ؛ يضاف إليهم فئة الملاكين الكبار من أهل البلد . هذه الطبقة كانت تعتبر من مصلحتها أن تتبنّى الدستورية والقوميــة وذلك لتقوية مركزها ضدّ الأمراء والأجانب . أما فيما يتعلّق بالتطوّر الاجتماعيّ

الخاصّ بالفئات الأخرى فقد أبدت اهتماماً ضئيلاً . كما أن فئة المثقفين فشلت ، فأفرادها كانوا في الحقيقة يسعون جاهدين في سبيل تقدّمهم في المجتمع ، والتجديد فيما بينهم كان على العموم يتّجه نحو الشكليّة ، بدل استخدامه كسلاح للتأثير الفعّال على تطوير المجتمع . وأهل الطبقات الدنيا – سكان الريف وكذلك صغار الصنّاع والتجّار في المدن – ظلّوا لمدة طويلة أسرى تقاليدهم، ومن ثمّ قلّما كان باستطاعتهم تمثيل مصالحهم . ولم يمنع كل هذا أن يرافق العصر الحديث تغيّر اجتماعي بعيد المدى : ازدياد في عدد السكان وهجرة من الريف إلى المدن وظهور البروليتاريا وتحلّل في الروابط العائلية . ومع ذلك فإن هذا التغيّر جرى دون أن ينتبه إليه أو يراقبه أحد ، إلى أن نجم عنه توترات كان لها تأثير على السياسة .

في أول الأمر كانت الأفكار الوطنية والدستوريّة مساعدة للمحاولات التي كان يقوم بها حكام مصر لفكّ الروابط مع الدولة العثمانيّة وإيجاد كيان دولي مستقل لبلادهم . في سنة ١٨٦٦ م دعا إسماعيل أعيان القرى والمدن إلى انتخاب مجلس استشاري ليؤكّد هذا الكيان وليحصل بذلك على هيئة تعطي الصبغة الشرعية لرفعه الضرائب . لكن بقدر ما كانت سياسة إسماعيل تدفع مصر إلى أحضان الفاقة اقتصادياً ، وإلى الاعتماد على الدول الأوروبية ، كانت الدستوريّة والوطنيّة تثبّتان أقدامهما في طبقات الشعب المصري ، الذي استيقظ وعيُه السياسيُّ فأكسبهما ديناميكية خاصّة بهما . وقد بلغت الحركةُ ذروتها الفعّالة على أيدي فئة من الضباط الوطنيين الذين ثاروا ضدّ الامتيازات التقليديّة التي كانت للعناصر غير المصريّة في الجيش وضدّ إجراءات التوفير التي كان صندوق الدين الدولي يطلبها في سبيل تسوية الوضع المالي في مصر . وقد بذل إسماعيل جهده في أن يستغل هذه الحركة لمصلحته بحيث حاول توجيهها توجيهاً تامّاً

ضدّ الدول الأوروبيّة ، إلاّ أن هذه الدول استطاعت أن تعمل على عزله على يد السلطان سنة ١٨٧٩ . وقد قامت الحركة من جديد أيام ابنه وخليفته توفيق (حكم ١٨٧٩ – ١٨٩٢) وانتهت إلى دعوة أوّل برلمان مصريّ سنة ١٨٨١ . والثورة التي قام بها أحمد عُرابي ، زعيم الضباط الوطنيين الناقمين ، والتي حملت اسمه فيما بعد ، وحّدت ، لفترةٍ قصيرةٍ ، جميعَ القوى المصرية المتطلّعة إلى المستقبل ، لكنّها لم تُتح لها الفرصةُ لأن تتفتّح وتطوِّر سياسة وطنيةً مصريّةً . وقد رأت الدول الأوروبيّة أنّ مصالحها المالية والاستراتيجيّة قد أصبحت مهدّدة ، فاتخذت موقفاً عدائياً من الحركة . ولمّا تخلّت فرنسة ، بسبب أوضاعها السياسية الداخلية ، عن مشاركتها في التدخّل ، قامت بريطانية العظمى بالعمل منفردة . فأنزلت جنودها في مصر في آب – أغسطس ١٨٨٢ وانتصرت على جيش عُرابي واحتلّت البلاد .

ومع أن البريطانيّين ظلّوا يعترفون بالسيادة العثمانية على مصر حتى اندلاع نيران الحرب العالمية الأولى ، حين أعلنوا الحمايةَ عـلى البلاد ، فإنهم مكثوا لمدة أربعة عقودٍ حكّام مصر الحقيقيين . فالقنصلُ البريطاني العام في القاهرة – وقد تولّى اللورد كرومر منصب القنصل العام من سنة ١٨٨٣ إلى سنة ١٩٠٧ – كان يقرّر مجرى السياسة المصرية . وقد كان الهدف الأساسي للبريطانيين هو حماية قناة السويس من أي نفوذ غير نفوذهم ، باعتبارها الشريان الحيويّ في خطوط مواصلاتهم الإمبراطورية . وقد تمّ تحقيق هذا الهدف ، قبل كل شيء ، لما عُقد الاتفاقُ البريطانيُّ الفرنسي سنة ١٩٠٤ الذي اعترفت بموجبه لندن بالمغرب الأقصى منطقة نفوذ فرنسيةً ، وبالمقابل اعترفت باريس بمصر منطقة نفوذٍ بريطانية . واهتمامات البريطانيين النشيطة في سبيل تسوية الأوضاع الماليّة في مصر أفادت أيضاً الغرض نفسه في الدرجة

الأولى ، فعن طريق إشباع رغبات الدائنين عزلت تأثير قوى ثالثة . ومما لا يختلف فيه اثنان هو أن مصر أفادت من التنظيم الذي أدخله البريطانيّون أصحابُ النفوذ في المجالات المختلفة في البلاد . وقد كان من الأهمية بمكان أنّ البريطانيين سمحوا لتطور الأفكار وتبادل الآراء أن يأخذا مجراهما بحرّيّة ، ما دامت لا تعرّض المصالح البريطانية للخطر . فرجال مثل محمد عبده ولطفي السيد وقاسم أمين تمكّنوا في هذا الوقت من التحدّث في الإصلاحات الدينيّة والعلمانيّة . وكذلك تمكّن المحامي الشاب مصطفى كامل (١٨٧٤ – ١٩٠٨) من إثارة الوطنية وتنظيم حركتها من جديد .

إلاّ أنّ سلطةَ الاحتلال حالت دون وضع آراء المصلحين والسياسيّين موضع التطبيق . كما أن اختصاصات البرلمان قُيِّدت للغاية . وكذلك قُلِّمت أظافرُ الحاكم ، وخاصة لما بدا من عباس (الثاني) حلمي (حكم ١٨٩٢ – ١٩١٤) الميلُ إلى الإفادة من الحركة الوطنية لضرب سلطة الاحتلال . وقد عُزل عباس حلمي سنة ١٩١٤ ، ووُلِّي مكانه عمُّه حسين كامل الذي لقِّب بالسلطان وظلّ إلى ١٩١٧ حيث خلفه أخوه فؤاد . وقد اختير الوزراءُ من الطبقة الأرستقراطية القديمة وفئة الموظفين ، ووُضع إلى جانب كل منهم مستشار بريطاني . وكان أوّلَ من سُمح له بدخول الحكومة ، من كبار الوطنيين ، سعدُ زغلول ، وهو أحد تلاميذ محمد عبده ؛ إذ عيّنه كرومر وزيراً للتعليم . وقد أصبح زغلول فيما بعد وزيراً للعدل ، ثم دخل بعد ذلك البرلمان وانتخب نائباً للرئيس ، وهو أعلى مركز في الدولة يُحْصَلَ عليه بالانتخاب .

إنّ التطوّر الفكري والاجتماعيّ في زمن الاحتلال وتجربة الحرب العالمية التي قاسى المصريّون أثناءها سوءًا خاصة في الحالة الاقتصادية ، دفعتا بالحركة الوطنية المصرية دفعاً قوياً . وبعد عقد الهدنة (هدنة الحرب العالميّة) بيومين ، أي في ١٣ تشرين الثاني – نوفمبر ١٩١٨ ، ذهب سعد زغلول

على رأس وفد إلى المندوب السامي البريطاني وطالبوه باستقلال البلاد استقلالاً تاماً . ولما تمسكت لندن بالرفض قامت المظاهرات التي حملت البريطانيين على إلقاء القبض على سعد زغلول ونفر من صحبه ونفيهم في ٨ آذار – مارس ١٩١٩. وانفجرت إثر ذلك موجةٌ من الاضطرابات برهنت على أنّ مطالب الوفد كانت تسندها حركة شعبيّة حقيقيّة . وبعد تلكؤ طال أمدُه أعلنت بريطانية العظمى في ٢٨ شباط – فبراير ١٩٢٢ إنهاء الحماية واستقلالَ مصر ؛ إلاّ أنها احتفظت لنفسها بحماية خطوط مواصلات الإمبراطورية والدفاع عن مصر عسكرياً ، وحماية المصالح الأجنبيّة والأقليّات في البلاد ، والتسوية النهائيّة للمسألة السودانية . وفي ١٥ آذار – مارس ١٩٢٢ لُقِّبَ السلطان فؤاد ملكاً . وفي السنة التالية وَضَع للبلاد دستوراً ، أصبحت بموجبه مصر مملكة دستوريّة مع تأكيد قوي على الامتيازات الملكية .

لقد أسهمت فئات الشعب جميعها في انتفاضة ١٩١٨ – ١٩١٩ ، إلاّ أنّ التضامن الوطني لم يعمِّر طويلاً . فالنخبة من أهل الفكر ، قائدة الطبقة الوسطى المتعلمة ، كانت لا تزال تميل إلى المُثُل الغربية تجهد في بناء دولة على النمط الديمقراطي الغربي . أما الملاّك الأرستقراطيون فكانوا يقاومون كل محاولات الشرائح الأخرى للوصول إلى السلطة ومشاركتهم الثمار. والجماهير عامة كانت ترى في العالم الحديث خطراً يهدّد التقاليد التي كانت تتمسك بها؛ وكان يمكن توجيه مثل هذا الشعور ضدّ المستعمرين الأجانب، كما يمكن توجيهه ضدّ دعاة التجديد في القطر نفسه . ولم تملك الطبقة المتوسطة القدرة ولا الرؤية الواضحة الضرورية للتغلّب على هذه العقبات . وقد توزّعت الحركةُ الوطنيّةُ أحزاباً لم تكن تلتفّ حول برامج بل حول مصالح .

وقد ظلّ حزب الوفد أبرز الأحزاب جميعاً . إذ إنّه ارتكز على

تنظيم واسع المدى ، وبالرغم من بعض الارتباطات بالطبقة العليا ، فقد كان -.ير من يفهم كيفية ربط الطبقة الوسطى به . وكان النصر حليف حزب الوفد في كل الانتخابات الحرة في مصر . إلاّ أنّ الملكَ بمساعدة عناصر أرستقراطية كان غالباً ما ينجح في إقصاء الوفد عن الحكم ، إمّا عن طريق التلاعب أو بتعليق الدستور . وقد اشترك البريطانيّون كذلك في هذه اللعبة السياسيّة الداخليّة ، فكانوا يستعملون الملك وحزب الوفد واحدهما ضدّ الآخر . وفي سنة ١٩٣٦ وجدت بريطانية العظمى نفسها ، وقد تجمّعت غيومُ الحرب الإيطالية الحبشية في الأفق ، مستعدّةً لأن تخطو خطوات نحو استقلال مصر وأن تعقدَ مع مصر معاهدةً تربط بين البلدين في المستقبل كشريكين متساويين . ولكن أثناء الحرب العالمية الثانية ، حين كانت مصر تستخدم كقاعدة للحلفاء،ولاقتراب الخطر منها لما اندفعت طلائع القوّة الضاربة الألمانية الإيطالية نحو الإسكندرية ، أرغمَ البريطانيّون الملك ، تحت التهديد بالسلاح ، في ٤ شباط – فبراير ١٩٤٢ ، على استبدال الوزارة التي لم يكونوا يثقون بها بوزارة وفديّة . وقد بقيت بريطانية العظمى محتلة منطقة قناة السويس بعد الحرب . ولم تنتهِ المفاوضات لإعادة النظر في المعاهدة إلى نتيجة ، حتى جاءت حكومة وفدية سنة ١٩٥١ فأعلنت إلغاء المعاهدة، ونشب إثر ذلك قتالٌ عنيفٌ ضدّ القواعد العسكرية البريطانية في القنال .

وقد قطعت مصر خطوات لا بأس بها في العقود الثلاثة التي مرّت عليها بين ١٩٢٢ و ١٩٥٢ وكان يحكمها الملك والبرلمان ؛ فمع أنّ تطوُّر أساليب التعليم كان ناقصاً وغير منظّم ، إلاّ أنّ عدد المتعلّمين تعليماً حديثاً من الجيل الجديد كان يتزايد باستمرار ؛ وقد كان نجاحُ بعض الصناعات مشجّعاً ؛ وكان ثمّة محاولات لمعالجة القضايا الاجتماعية معالجةً واعية

هادفة . إلاّ أنّ هذا التقدّم لم يكن كافياً ليزيل الشعور بالضيق والعجز الذي كان يغذّيه عقمُ السياسة الداخليّة والإذلال الذي كان يفرضه النفوذ البريطاني والانكسار في حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ وانخفاض مستوى المعيشة الناشىء عن الأزمات الاقتصادية والازدياد المستمر السريع في عدد السكان . ولم تستطع القيادةُ الفكريّة أن تشير إلى طريق يؤدي إلى مستقبل أفضل ؛ وكانت في الغالب ترجىء القضايا الملحّة . وقد تنكّر الشباب للمثل الليبرالية التي كانت الأجيال السابقة قد تلقّتها عن الغرب ووجد في الفاشية والشيوعية ما أثار آماله ، وقد انضم كثير من المصريين إلى حركة الإخوان المسلمين التي مرّ ذكرها ، وهي الحركة التي كانت تؤمن بإمكان قيام دولة ومجتمع يعتمدان الأسس الإسلامية التقليديّة . وفي يوم ٢٦ كانون الثاني – يناير ١٩٥٢ قامت الاضطرابات في القاهرة وأخرجت لوضح النهار ما كان مخزوناً في النفوس من توترات وخيمة العاقبة ، فأشعلت النيران في عددٍ كبير من المتاجر والمؤسّسات الأوروبيّة . وما يزال مسببو هذه الإضطرابات مجهولين إلى الآن .

* * *

وهذه الرغبة العارمة في إحداث تغيير في الأوضاع القائمة حقّقته أخيراً فئة من الضباط الشباب بقيادة جمال عبد الناصر . فقد استولت في ٢٣ تموز – يوليو ١٩٥٢ على السلطة في انقلاب لم تُرَق فيه دماء . كان الملك فاروق ، الذي تولّى العرش بعد وفاة أبيه سنة ١٩٣٦ ، قد جرّ على المَلَكيّة الخزي بسبب سلوكه في السنوات الأخيرة . فلمّا تولّى الضباط السلطة أجبروه على التنازل عن العرش لابنه الطفل فؤاد الثاني وترك البلاد . وبعد نحو سنة أُعلنت الجمهوريّة في ١٨ حزيران – يونيو ١٩٥٣ . وقد جرّب ضبّاط

« مجلس قيادة الثورة »، الذين رفعوا في بادىء الأمر اللواء محمد نجيب (وهو ضابط محترم) إلى سدّة الرئاسة، أن يحكموا لبعض الوقت عبر مجلس وزراء من المدنيّين، وأن يعملوا مع الأحزاب السياسية القديمة والتي كان من الطبيعي أن تُرغم على « تطهير » نفسها. ولما ثبت لهم أن هذا مستحيل أخذ الضباط على عاتقهم القيام بالحكم. وفي النزاع الداخليّ على القيادة نجح عبد الناصر فأزاح اللواء محمد نجيب وحطّم نفوذ الإخوان المسلمين؛ وأصبح في سنة ١٩٥٤ الزعيمَ غيرَ المنازع، وفي سنة ١٩٥٦ انتخب رئيساً للجمهورية على أساس دستور جديد، منحه سلطات واسعة.

وفي السياسة الخارجية سوّى حكم الضباط الخلاف القديم حول العلاقات المصرية البريطانيّة: في سنة ١٩٥٣ تم الاتفاق على السودان وبموجبه تُرك للسودان أمرُ تقرير مستقبله بنفسه؛ وفي سنة ١٩٥٤ وقّعت معاهدة ثانية وقد نص فيها على أن يسلّم البريطانيّون نقط دفاعهم على قناة السويس إلى المصريّين، وتعهد هؤلاء بأن يحافظوا على القواعد العسكرية بمساعدة فنّيين بريطانيّين، وأنهم، خلال السنوات السبع التالية، سيسمحون لبريطانية العظمى بالعودة إلى القواعد في حالة وقوع اعتداء على أيّ قطر عربي أو على تركيّة. إلاّ أن هذه العلاقات الوديّة نحو الغرب لم تلبث أن تعكّرت بسبب تطوّرات مختلفة. رفض عبد الناصر الدخول في الخطة الأميركيّة البريطانيّة لإقامة حلف دفاعي للشرق الأوسط على غرار الحلف الأطلسي، ولما أقدمت بريطانية العظمى سنة ١٩٥٥ على إنشاء حلف بغداد مع تركيّة والعراق وإيران والباكستان شعر عبد الناصر بأن الأمر كان فيه تحدٍّ لسياسته. ومن ذلك الوقت اختطّ لنفسه سياسة الحياد وصرف همّه إلى إقامة حلف دفاعيّ عربيّ. بسبب هذا الأمر ولأن التوتّر المصريّ الإسرائيلي نشط من جديد حاول عبد الناصر أن يحصل على كميّة كبيرة من الأسلحة الحديثة. ولما

رفضت الدول الغربية تلبية طلبه قَبِلَ في خريف سنة ١٩٥٥ عرضاً مماثلاً من الكتلة السوفيتية .

وقد رغبت الدول الغربية في خلق توازن مع الدخول المفاجىء للنفوذ السوفيتي في العالم العربي ، فتقدّمت بعرض المساعدة لبناء السدّ العالي في أسوان ، وهو أهم مشاريع البناء الاقتصادي المصريّ . وفي سنة ١٩٥٦ سحب وزير الخارجية الأميركية جون فوستر دلاس العرض فجأة . فكان ردّ عبد الناصر تأميمَ شركة إدارة قناة السويس الدولية . وقد أدّى تطوّر الموقف إلى ما يلي : قررت بريطانية العظمى وفرنسة التدخّل العسكريّ في مصر بينما وقفت الولايات المتحدة جانباً . وقد بدأت الحرب بأن هاجمت إسرائيل المواقع المصريّة في شبه جزيرة سيناء في ٢٩ تشرين الأول ـ أكتوبر ١٩٥٦ ؛ وفي ٣١ من الشهر نفسه بدأت بريطانية العظمى وفرنسة غاراتها الجويّة فأنزلت الجنود في بور سعيد في ٥ تشرين الثاني ـ نوفمبر . وقد وقف الرأي العام العالمي إلى جانب مصر . وتوقّف البريطانيون والفرنسيون عن القتال في ٧ من الشهر نفسه بضغط من الأمم المتحدة ، وانسحبوا فيما بعد من المناطق التي احتلوها ، وأُرغمت إسرائيل على أن تحذو حذوهم . ولم يسقط عبد الناصر ، بل على العكس نال شهرة كبيرة . وقد قامت فيما بعد أزمات أُخرى بين مصر والغرب ، إلاّ أنّ العلاقات بين مصر والدول الشيوعية لم تخل من أزمات أيضاً . وعلى العموم فإن اهتمام عبد الناصر بالاستقلال عن الكتلتين الكبيرتين على السواء أصبح أمراً معترفاً به اليوم (١٩٦٣) .

* * *

إنّ النزاع الداخليّ لأجل السلطة في السنوات الأولى ، ثمّ المواقف المتبادلة مع الدول الكبرى وأخيراً سياسة الوحدة العربيّة ، التي سنتحدّث عنها

فيما بعد ، أخذت قسطاً كبيراً من جهد حكومة الضباط ، لكن تمّ إلى جانبها إصلاحات هامة كانت من الأصل من أهدافهم الرئيسية . فبعد الاستيلاء على السلطة بمدة قصيرة سُنّ قانونُ الإصلاح الزراعيّ الذي رمى إلى تقسيم الأراضي التي يملكها كبار الملاّكين وتنظيم الإيجارات و الأجور في الزراعة ؛ إلاّ أن تنفيذ التنظيمات الأخيرة كان عسيراً . بالإضافة إلى ذلك تمّ وَضْعُ نظامٍ للتأمين خاصٍّ بالعمال والمستخدمين في المدن ، وبرنامج لإقامة الأبنية الشعبيّة ، وتوسيع كبير للتعليم الرسميّ وغير ذلك من المشاريع الاجتماعية . وفي الوقت ذاته عني المسؤولون عناية خاصة بزيادة الإنتاج في الزراعة والصناعة . وفي بادىء الأمر كانوا يقرّرون الخطوات المنفردة حسب المتطلبات والمواقف اليومية ، فلما بدأوا في التخطيط كان لا بدّ من إجراء تغييرات عميقة مختلفة إلى أن أصبحت لديهم أخيراً سياسة واضحة المعالم .

إن السباق الميؤوس من نتائجه بين ارتفاع الدخل القومي وازدياد السكان السريع (سنة ١٨٩٧ عشرة ملايين ، سنة ١٩٣٧ ستة عشر مليوناً و ١٩٦٠ ستة وعشرون مليوناً) كان يدعو إلى اتخاذ إجراءات جذرية . كان ازدياد الشكّ لدى القائمين على الأمر فيما يتعلّق باستعداد الأرستقراطية القديمة والبرجوازية العليا للتعاون في المشاريع الوطنية يقودهم إلى هدف عزل هذه الطبقات . وبدل ذلك جرب أولو الأمر إنشاء منظّمات تعاونية وإقحام الدولة أكثر فأكثر في الاقتصاد . ومنذ سنة ١٩٦١ أصبح القسم الأكبر من الاقتصاد المصريّ تحت إشراف الدولة ؛ يضاف إلى ذلك أن العمّال والمستخدمين أُفْسِحَ لهم المجالُ لممارسة الاشتراك في حق تقرير الأمور . وبمقابل هذه السياسة الاقتصادية والاجتماعية تقوم المساعي في سبيل إقامة ديموقراطية «حقّة» ، لا تسيطر عليها جماعات صغيرة

ذات مصالح خاصة ، بل تخدم الشعب بأجمعه . وكي تصبح مثل هذه الديمقراطية قابلة للتطبيق يجب قبل كل شيء تعليم الشعب. وهذا لا يجوز أن يتمّ على أيدي أحزاب ، بل بواسطة تنظيم سياسي موحّد بالإضافة إلى إدارة ذاتية على المستوى المحلي ومستوى المحافظة (الولاية) . والإيديولوجيّة التي تقوم عليها الثورة المصريّة ، والتي ظهرت بالصورة التي هي عليها ، يمكن التعرّف فيها على ملامح من النظريّة الماركسيّة ومقتبسات من التجارب التي مرّت بها الدول الشيوعية – وخاصة التجربة اليوغوسلافية – وكذلك فيها أيضاً مستوحيات منتزعةٌ من الاشتراكية الديمقراطية الفابية (Fabian) . كما أن جمال عبد الناصر وأولئك الذين يحاورونه في تفكيره السياسي يقولون بإيديولوجيّة من نوع خاصٍ – « الاشتراكية العربيّة » .

* * *

لا يتميز التاريخ المصري الحديث ، بالمقابلة بالأقطار العربية الأخرى ، بأن مصر كانت البلد العربي الأول الذي انفتح على التطوّرات الحديثة فحسب ، بل يتميّز أيضاً بأن مصر كانت دوماً ذات صفة دولية أعطت هذه التطورات إطاراً معيناً . كانت الوطنيّة المصريّة مثلاً من أول الأمر لها وجهةٌ معيّنة واضحة . وقد كانت الحالة تختلف في الجزء الشرقي من العالم العربي ، الذي لم يكن فقط رسمياً جزءاً من الإمبراطورية العثمانية ، بل كان فعلياً تحت إدارة تركية . وقد حاول السلاطين العثمانيون أيضاً أن يدخلوا التجديد إلى دولتهم ، فبدأوا هم كذلك بالقوى العسكرية ، ثم بنوا مدارس وأنشأوا سككاً حديديّة وأدخلوا تطورات نجد لها ما يقابلها في مصر .

كون الحكومة تركية لم يشغل بال العرب المسلمين في الدولة العثمانية لمدى قرون عديدة ؛ ذلك أن الأتراك يعتنقون نفس الدين . وحين ثبتت

أقدام الدستورية في الدولة العثمانية بتأثير المفهوم الجديد للدولة ، وظهرت الدعوة إلى وطنية عثمانية ، لم يرفض سكان الولايات العربية هذه الأفكار بادىء الأمر . إلاّ أنه من بين الآراء الجديدة كان القول بأن وحدة اللغة هي من أهم مميزات الأمة . وحملت هذه الفكرة متفجّرات فعّالة إلى الدولة .

إن السلاطين العثمانيين بدأوا منذ أواخر القرن الثامن عشر يبرزون لقب الخليفة ، وازدادوا حرصاً على ذلك في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، لفرض سيادة روحية على المسلمين . إلاّ أن هذا الأمر ما كان لينجح كوسيلة مضادة إلاّ لفترة . فجمال الدين الأفغاني كان يرى أن الجامعة الإسلاميّة يمكن أن تتّفق مع الحركات الدستوريّة والقومية في كل قطر على حدة ، والوطنيون المصريون احتضنوا القول بسيادة السلطان الخليفة السياسية والروحية ، واستعملوه كوسيلة لإثارة الناس ضدّ الاحتلال البريطاني لبلادهم ، بينما لم يكن لهذه الفكرة عندهم أي دلالة حقيقية .

أما في الولايات العربية التابعة للإمبراطورية العثمانية مباشرة فقد قوبل هذا المطلب ، في الأحوال الجديدة ، بالرفض على أساس أنه شرعاً لا يجوز أن يتولّى الخلافة إلاّ عربي من قريش . يضاف إلى ذلك أن فكرة الخلافة ، بطبيعة الحال ، تقف في طريق تحويل الإمبراطورية إلى دولة علمانيّة ، تتمشى مع الأوضاع الحديثة . والعامل الحاسم الذي أدّى إلى تفجّر القومية العربية ، نبت في الواقع من الأتراك أنفسهم . فمنذ ابتداء القرن العشرين ، أحلّ الأتراك قوميّةً تركيّةً بدل الوطنيّة العثمانيّة ، وأصبح على التابعين للإمبراطورية من غير الأتراك أن يختاروا بين أن « يتتركوا » أو أن يكونوا مواطنين من الدرجة الثانية .

وقد كان أيضاً لوجود أقليّات مسيحيّة قويّة في الولايات العربيّة أثر رئيسي في ظهور القوميّة العربية في الإمبراطوريّة العثمانية . إنّ الجماعات

المسيحيّة ، على العموم ، كانت قد اندمجت في بناء الإمبراطوريّة . ففي جبال لبنان كان الموارنة والدروز قد أقاموا حكومات إقطاعية ، نعمت قروناً طويلةً بالحكم الذاتي في إطار الإمبراطورية . ولما أعاد السلطان، بعد القضاء على خطط محمد علي التوسعيّة ، سنة ١٨٤٠ ، فَرْضَ سلطته على ديار الشام – وهي المنطقة الواقعة بين الأناضول ومصر – قضى على آخر هذه الدويلات . إلاّ أنّ حروب محمد علي كانت قد قوّت الروابط التي كان الغرب قد وثّقها مع مسيحيي ديار الشام منذ زمن بعيد . وأول ما ترتب على ذلك قيام خصوماتٍ بين مختلف الفئات الطائفية ، تطوّرت إلى اعتداءات شديدة سنة ١٨٦٠ ضد المسيحيين . إثر ذلك أنزلت فرنسة جيشاً في بيروت ، وبسبب الضغط الذي مارسته الدول الأوروبية حصلت متصرفية لبنان ، اعتباراً من سنة ١٨٦١ ، على حكم ذاتيّ تحت إمرة متصرف مسيحي .

وقد نمت هنا المؤثرات الغربية بشكل أقوى . ففي بيروت التي لم تكن داخلة في منطقة الحكم الذاتي ، أنشأ جماعة من المبشرين الأميركان ، الكلية السورية الإنجيلية (١٨٦٦) وهي الجامعة الأميركيّة اليوم ، وفي سنة ١٨٧٥ نقل اليسوعيون الفرنسيون إلى المكان ذاته معهدهم الذي أصبح فيما بعد جامعة القديس يوسف . هذان المعهدان للدراسات العليا إلى جانب عدد كبير من المدارس الأوروبيّة يسّرت لفئات كبيرة من السكان الحصول على مواد ثقافية غربية . بسبب هذه التطوّرات السياسيّة والثقافيّة الخاصة ، قامت جماعة من المسيحيين اللبنانيّين بالفكرة القائلة بالأمة اللبنانيّة التي قالوا بأن جذورها تعود إلى الفينيقيين القدامى . إلاّ أنّه كان ثمة مسيحيون آخرون يشعرون بالضيق في جماعتهم ويحسّون بضرورة الحياة في عالم أوسع . وكان بعضهم يرى الحل في انتقال الإمبراطورية

العثمانية إلى العلمانيّة . وقد كان كثيرون من المسيحيين عميقي الجذور في الثقافة العربيّة وكان بعضهم ذوي مشاركات رئيسيّة في تجديد اللغة العربية وبذلك ساعدوا على النهضة الثقافية العربية . ولنذكر ، على سبيل المثال ، من الأسر اللبنانية التي عُرفت بنتاجها الأدبي اليازجيّين والشدياقيّين والبستانيّين . هؤلاء العرب المسيحيون الواعون هم الذين طوّروا مفهوماً للقومية العربية ، لم يكن بطبيعة الحال إسلامياً ، بل كان فوق الطائفية . وفيما كان العرب المسلمون يتأرجحون بين الجامعة الإسلامية والوطنيّة العثمانية وقومية خاصة بهم ، قام المسيحيُّ اللبنانيُّ نجيب عازوري ، في مطلع القرن العشرين،لأوّل مرّة بتحديد دقيق للأمة العربية كما تصورها .

قبل أن تنضج فكرةُ القوميّة العربية بمدّة طويلة بدا وكأن الحرب العالمية الأولى قد تعطيها الفرصة لتحقيق ذاتها . في السنوات الأخيرة التي سبقت الحرب ظهرت في الإمبراطوريّة العثمانية وفي المهاجر جمعيّات سريّة عربيّة ، لكنّها قلّما كانت تتصل بعضها ببعض ، كما أنها كانت منقسمة على نفسها بسبب المنازعات الشخصيّة بين زعمائها وعبر اختلاف الآراء حول الأهداف . وقد كره كثيرٌ من أعضائها أن يربطوا أنفسهم بأعداء الإمبراطورية العثمانية من غير المسلمين لأنها ما زالت في نظرهم حامية للدين الإسلامي . بينما بادر آخرون إلى مثل هذا الارتباط كأمير مكة ، الشريف حسين (الحسني الهاشمي) حيث ربط بين سياسته الخاصة والمساعي القومية . وفي ٣ شعبان ١٣٣٤ هـ / ٥ حزيران – يونيو ١٩١٦ أعلن ثورة العرب على الإمبراطورية العثمانيّة وكان ذلك بالتفاهم التام مع بريطانية العظمى . وقد قامت الفرق العربية بمساندة الجنود البريطانيين الذين هَجَموا من مصر على ديار الشام ، وقد سار الفريقان معاً فدخلا دمشق في ١

تشرين الأول – أكتوبر ١٩١٨ .

وقد جاء في الرسائل المتبادلة فيما بين تموز – يوليو ١٩١٥ وكانون الثاني – يناير ١٩١٦ ، بين السير هنري مكماهون ، المندوب السامي البريطاني في مصر ، والشريف حسين اعترافُ الحكومة البريطانية بمطالب العرب في أن يكون لهم دولة مستقلة ، إلاّ أنّ ذلك كان مع تحفّظات معينة فيما يخص حدود هذه الدولة والتي أُجّل أمر توضيحها إلى وقت لاحق . وفيما تلا ذلك من سير الحرب أخذت لندن على عاتقها تعهدات لجهات أخرى ، وموافقة هذه التعهدات مع الوعود المقطوعة للعرب مشكوك فيها من الناحية القانونية ، أما من الناحية الأخلاقية فلا يمكن التوفيق بين الأمرين أبداً . ففي ١٦ أيار – مايو ١٩١٦ قامت اتفاقية سيكس – بيكو ، التي منحت جزءاً من العراق لبريطانية العظمى ، والساحل اللبناني السوري وجزءاً من الأناضول لفرنسا ، بينما تنشأ منطقة دولية في فلسطين . أما المناطق الداخلية في سورية والعراق فتقام فيها دولة عربية أو اتحاد عربي لإدارة شؤونها ، إلاّ أنها على كل حال تقتسم بين منطقتي النفوذ البريطانية والفرنسية . وفي ٢ تشرين الثاني – نوفمبر ١٩١٧ أعلَنَ بلفور ، وزير خارجية بريطانية ، أن الحكومة البريطانية تنظر بعين العطف إلى إنشاء « وطن قومي » للشعب اليهودي في فلسطين . وإذن فإن الحلم في إقامة دولة عربية مستقلة في المنطقة العربية من الإمبراطورية العثمانية قد تحطّم . كذلك أقيم الأساس للصراعات المرة في المنطقة ، وأدّى بالعرب إلى الاعتقاد الجازم بأن الغرب قد أوقع بهم ظلماً فادحاً ، وأن المثل العليا التي ينادي بها الغرب إنما تستعمل للتستّر على سياسة القوة التي تمارسها الدول الكبرى .

ومحاولة القوميين تجاهل اتفاقات الدول الكبرى كان مقضياً عليها

بالفشل . فالأمير فيصل بن الحسين ، الذي قاد الفرق العربيّة ضدّ الأتراك، لم ينجح في أن يحصل على شيء عملي من مؤتمر الصلح . وفي ٨ آذار — مارس ١٩٢٠ عَهِدَ المؤتمرُ المنعقدُ في دمشق إليه بالعرش السوري . إلاّ أن مؤتمر سان ريمو ، الذي انعقد بعد ذلك بأسابيع معدودة ، منح بريطانية العظمى وفرنسة الانتداب على البلاد العربية ، كي تُدَرَّبَ هذه البلاد على الحكم الذاتي ، ولكن في نفس الوقت ضَمِنَ المؤتمر للدولتين المنتدبتين سلطةً تكاد تكون غير محدودة . وقد أدخل على اتفاقية سيكس — بيكو بعض التغييرات وبذلك أصبحت فلسطين والعراق تابعتين لبريطانية ، وسورية التي تقلصت مساحتها ولبنان منطقة الانتداب الفرنسي . وهكذا قُطّعت أوصال الولايات العربية التي كانت جزءاً من الإمبراطورية العثمانية السابقة .

أمّا وقد ضُمن للفرنسيين انتدابُهم ، فإنهم أخرجوا فيصل من سورية في تموز — يوليو ١٩٢٠ واحتلوا البلاد . ووسعوا منطقة لبنان المستقلة بضم مناطق مسلمة وجعلوه دولة فيها للمسيحيين أكثرية ضئيلة . وقد جرب الفرنسيون أن يقسّموا ما تبقى من منطقة الانتداب ، إلاّ أنها ظلّت في النهاية على سوريّة مصغرة ، والتي انتزعوا منها فوق ذلك منطقة الإسكندرونة سنة ١٩٣٧ وأعطيت حكماً ذاتياً ، وفي سنة ١٩٣٩ سلمتها فرنسة إلى تركية . وقد وُضِعَ دستور لكلّ من لبنان (١٩٢٦) وسورية (١٩٣٠) على أساس الجمهورية . وعقدت حكومة الجبهة الشعبيّة الفرنسية معاهدة مع كل من الدولتين سنة ١٩٣٦ ، كان الغرض منها إنهاء الانتداب ووضعَ العلاقات بين فرنسة وكل من سورية ولبنان على أساس جديد ، إلاّ أن البرلمان الفرنسي لم يصدّق عليها . ولما بدأت الحرب العالمية الثانية علّقت فرنسة الدستورين السوري واللبناني . وبعد

احتلال فرنسة وقع البَلَدان تحت النفوذ الألمانيّ والإيطاليّ ، لكن قوات بريطانية وفرنسة الحرّة احتلت البلدين في صيف ١٩٤١ . وبهذه المناسبة وعد القائمون بشؤون فرنسة الحرة سورية ولبنان بالإستقلال ، إلا أنهم وضعوا فيما بعد بعض العراقيل في سبيل تنفيذ هذا الوعد . ولما قرر البرلمان اللبناني ، في ٨ تشرين الثاني — نوفمبر ١٩٤٣ ، أن يعدّل الدستور بحيث ينهي رسمياً سلطة الانتداب ، ألقى الفرنسيون القبض على رئيس الجمهورية بشارة الخوري ورئيس الوزراء رياض الصلح وأكثرية الوزراء وبعض النواب وسجنوهم . ولكن تحت ضغط غضب المواطنين والاحتجاج الدوليّ والإنذار البريطانيّ اضطر الفرنسيون إطلاق سراح المساجين ، ودخلت قضية تسلم الحكومتين اللبنانية والسورية للسلطات كاملة من المنتدبين حيز التنفيذ . وفي أيار — مايو ١٩٤٥ حاول الفرنسيون للمرة الأخيرة أن يكون لهم في البلدين مركز مُفَضّل ، مما أثار حفيظة الناس ثانية وأدّى إلى اضطرابات حملت بريطانية على التدخل . وعرض النزاع على الأمم المتحدة . وأخيراً انسحب آخر جندي وموظف أجنبي عن سورية في ١٧ نيسان — إبريل ، وعن لبنان في ٣١ كانون الأول — ديسمبر ١٩٤٦ .

مع زوال السيادة الأجنبيّة اختفى الرابط الذي كان يربط البلدين واحدهما بالآخر ؛ كان ما زال اتحاد جمركيّ جمع بين البلدين لبضع سنوات ، إلاّ أنه حُلّ نهائياً سنة ١٩٥٠ . وسار كلّ من البلدين في طريقه . إنّ طبيعة لبنان تحتّم عليه التوصّل إلى أسلوب للتعايش يضم فئات من طوائف مختلفة متعدّدة : فهناك الموارنة والروم الأرثوذكس والروم الكاثوليك (الملكيون) والأرمن الأرثوذكس من المسيحيين بالإضافة إلى طوائف مسيحية أخرى صغيرة ؛ وثمة المسلمون السنّة والشيعة ، وكذلك الدروز .

وبالحصول على الاستقلال سنة ١٩٤٣ توصّل الزعماء الوطنيون إلى الاتفاق على أساس لهذا التعايش ، وهو المعروف باسم « الميثاق الوطني » ، غير المكتوب . ومفتاح تقسيم وظائف الدولة هو أن يكون رئيس الجمهورية مارونياً ورئيسُ الوزارة سنّياً ورئيس المجلس النيابيّ (البرلمان) شيعياً .

وكذلك يراعى التوازن الطائفي بدقة أيضاً في المجالات الأخرى . ففي المجلس النيابيّ مثلاً يجب أن تكون النسبة دوماً ستة أعضاء مسيحيين مقابل خمسة أعضاء من الطوائف غير المسيحية . بالإضافة إلى ذلك توصّل أصحاب الميثاق الوطني إلى التوفيق بين التوجّه نحو الغرب والوطنية اللبنانية وهما الأمران اللذان كانا يملكان على المسيحيين تفكيرهم ، وبين الشعور بالوحدة العربيّة التي كانت كفتّها ترجح بين المسلمين . وقد سلّم القوم بأن لبنان ذو وجه عربي ولغة عربية وإذن فهو جزء من العالم العربي ، إلاّ أنّ له طابعاً خاصاً واتصالاً حضاريّاً وثيقاً بالغرب يجب الحفاظ عليه . وسيادته السياسيّة لا ينبغي التخلي عنها لمصلحة حمايةٍ من قوة غربية ولا لاتحاد سوريّ أو عربيّ ؛ ويتوجب على لبنان أن يتعاون مع الدول العربيّة ، وأن يسلك سبلَ الحياد في منازعاتها وخصوماتها .

وقد تعرّض الميثاق الوطني للخطر سنة ١٩٥٨ وترتّب على ذلك قيام حرب أهلية في لبنان . بعد قيام الوحدة بين سورية ومصر نشطت حركة الوحدة العربيّة لدرجة خاف معها اللبنانيون المؤمنون بالوطنية اللبنانية انجراف بلادهم إليها . ومن الجهة الأخرى اتّهم اللبنانيون الذين يتجهون اتجاهاً عربياً الرئيس كميل شمعون بأنه لم يحافظ على الحياد في الانقسام الذي أخذ بخناق العالم العربي يومها ، بل إنّه انحاز ضد قوى القومية العربية . وإذ حاول شمعون تعديل الدستور ليتمكن من تجديد انتخابه لرئاسة الجمهورية انتهت القضية إلى انتفاضة تدعمها سورية . وفي ١٤ تموز — يوليو ١٩٥٨

قامت الثورة العراقيّة ، وكان ذلك إيذاناً بتصعيد موجة القومية العربيّة . كان شمعون قد طلب ، في هذه الحالة ، مساعدة الولايات المتحدة . فنزل الجنود الأميركيون في لبنان في اليوم التالي لقيام ثورة العراق ، لكنّهم لم يتدخلوا في الحرب الأهلية اللبنانية . واضطر شمعون إلى التخلي عن إعادة انتخابه ؛ وفي ٣١ تموز- يوليو ١٩٥٨ انتخب خلفاً له عماد الجيش فؤاد شهاب . ومما تجدر الإشارة إليه هو أنّ الحرب الأهلية لم تتوزع قواعدها وحدودها حسب الطوائف الدينيّة تماماً . فلم تكن القوى المسلمة فقط ضد شمعون ، بل كانت هناك قوى مسيحية أيضاً ضدّه ، إمّا لأسباب شخصيّة أو لأنّها كانت ترى أن شمعون قد أضرّ بالميثاق الوطنيّ ، وهو الأمر الوحيد الذي يضمن للبنان وجوده . إن أحداث سنة ١٩٥٨ قد أدخلت في وعي اللبنانيّين الذين يميلون نحو القومية العربية أن بقاء لبنان هو في مصلحتهم . إن جوّ التسامح في لبنان جعل منه نقطة تلاقٍ بين الأفكار المختلفة ، وواحداً من أهمّ المراكز الثقافيّة في العالم العربي . ونظامه الاقتصادي الحر الذي يتفق مع جدّ اللبناني وحسّه الاقتصادي ، ومع مصالح المستثمرين الأجانب ، خلق وضعاً يساعد على تطوّر اقتصاديّ مشجّع . ومع الوقت ظهر وعي اجتماعي غايته أن ينظّم الأمورَ بحيث تستطيع كل طبقات الشعب أن تشارك في ثمار هذا التطور فيقوى شعور الأفراد بالانتساب إلى دولتهم .

بعد انسحاب الفرنسيين من سورية قام على إدارة شؤون البلاد جماعة من أسر كبار الملاكين ، التي كانت لعقود خلت تتزعّم الحركة الوطنية فيها . وكما حدث في مصر ، فقد بدت في الجو أمارات السخط ضدّ حكم هذه الطبقة ووجدت الحركات الراديكالية أتباعاً بين الشباب : الحزب القوميّ السوريّ ، وهو الحزب الذي نادى بسورية الكبرى وكانت تنظيماته

ذات صبغة فاشستيّة ، والشيوعيون . وبعد الهزيمة في حرب فلسطين أخذت بتلابيب سوريّة سلسلة من الانقلابات العسكريّة بدءاً من ٣٠ آذار – مارس ١٩٤٩ ، فقبض الضباطُ الشبابُ على السلطة ، بقصد القيام بإصلاح الأمور . إلاّ أن الدكتاتورين العسكريين الأولين تولّيا الحكم بضعة شهور فقط ، أما الثالث ، وهو أديب الشيشكلي ، فقد تولّى الحكم أكثر من أربع سنوات أزاحته عن السلطة بعدها فئة أخرى من الضباط في ٢٤ شباط – فبراير ١٩٥٤ . وقد اختفى العسكريّون خلف الستار منذ ذلك الوقت ، دون أن يتخلوا عن الإمساك بحبل السلطة . فإلى جانب الساسة القدامى ، أخذت القوى الجديدة تلعب دوراً على المسرح السياسي ممثّلةً ، بالإضافة إلى الحزب القومي السوري والشيوعيين ، بحزب البعث العربي الاشتراكيّ ذي الميول اليسارية ، إلاّ أنه حزب قومي عربي . وخلال التطوّر السياسي الداخليّ المضطرب وفيما بين الأزمات السياسيّة الخارجيّة ، تمكّن الشيوعيّون وحزب البعث ، بواسطة أتباعهم في صفوف الضباط وحلفائهم من معسكر البرجوازية العليا ، من زيادة نفوذهم بحيث لم يلبثوا أن أصبحوا المتنافسين الرئيسيين . ورغبة من البعثيين في إبعاد الشيوعيين ، فقد قرر زعماؤهم القيامَ بتجربة جريئة في الوحدة العربية . فطلبوا من جمال عبد الناصر توحيد سورية ومصر ، ونجحوا في كسب الرئيس المصري إلى جانبهم . ففي ١ شباط – فبراير ١٩٥٨ أعلنت الحكومتان قيام الجمهورية العربية المتحدة ، وفي ٢١ من الشهر نفسه أعرب السوريّون والمصريّون ، في استفتاء كاد أن يكون إجماعاً ، عن موافقتهم على الوحدة وتولية عبد الناصر رئاسة الدولة الجديدة .

كان عبد الناصر قد فرض شروطاً معيّنة لقبول الوحدة وهي : أن يَشمل نظامُه السياسي سورية ، أي أن تلغى الأحزاب هناك أيضاً . فهرب

الزعماء الشيوعيّون من البلاد إثر ذلك ، أما الأحزاب المحافظةُ وحزب البعث فقد حلّت نفسها . وقد قربت الحكومة زعماء البعث في أول الأمر ، لكنهم عندما وجدوا أنه لا يمكنهم التأثير على مجرى الأمور بالقدر الذي كانوا قد أمّلوه ، انتهى الأمر بهم إلى التباعد بينهم وبين عبد الناصر أولاً ، ثم تدريجاً إلى انطفاء ذكرهم . أراد المصريون أن يوحّدوا شطري الجمهورية العربية المتحدة توحيداً صارماً ومن ثمّ فقد آذوا مصالح كثيرة من الهيئات السورية وجرحوا إحساس الكثير من السوريّين . ومحاولة تطبيق السياسة الاجتماعية والاقتصادية المصريّة في سورية أثارت الكثير من الصعوبات التي ازدادت حدّة بسبب ثلاث سنوات عجاف . ولم يستطع عبد الناصر أن يُنظّمَ أتباعه في سورية بحيث يمكنه اتخاذهم ركيزة له . وهكذا قامت فئة من الضباط مرة أخرى ، وتحالفت مع العناصر المحافظة، وثارت في ٢٨ أيلول — سبتمبر ١٩٦١ ضدّ النظام المصري . ولما أدرك عبد الناصر أن الحفاظ على سورية يقتضي استعمالَ القوة وإراقة الدماء ، سلّم بالأمر الواقع . ولقد فشلت تجربة الوحدة السورية المصريّة . وأعلنت في دمشق في ٣٠ أيلول — سبتمبر الجمهورية العربيّة السوريّة .

إلاّ أن فكرة الوحدة العربية والإصلاح الاجتماعي ظلّت حيّة في سورية . بعد الانفصال عن الجمهورية العربية المتحدة عاد سياسيّو الطبقة العالية القديمة إلى تولي الحكم ، وقد نجحوا في الحصول على أكثرية في انتخابات المجلس النيابي الجديد . ولكن بعد نحو نصف سنة فقط أبدى الجيش تذمّره من سير الأمور ، على نحو ما أرادت هذه الدوائر أن تنهج ، فأوقف العمل بالنظام البرلماني في ٢٨ آذار — مارس ١٩٦٢ . وفي ٨ آذار — مارس ١٩٦٣ قامت فئة من الضباط الشبّان ، الذين أجمعوا على مبادىء وحدويّة واشتراكية بانقلاب ، وأقاموا تحالفاً في الحكم بين حزب البعث والناصريّين

على نحو ما كان قد تم في العراق قبل ذلك بقليل. وفي ١٧ نيسان — إبريل ١٩٦٣ عقدت الحكومة السورية مع العراق والجمهورية العربية المتحدة (أي مصر) اتفاقاً لإقامة وحدة جديدة. ولكن مع هذا فإن الخلافات بين حزب البعث والناصريين لم يُتَغَلَّبْ عليها. وقد عادت الخصومات بينهم أشدّ ممّا كانت عليه لما أزاح البعثيّون الناصريّين في دمشق.

* * *

في أقصى الشرق للإمبراطورية العثمانية تمكّن جيش بريطاني هنديّ من احتلال أرض الرافدين أثناء الحرب العالميّة الأولى، وبحسب اتفاقية سيكس — بيكو كانت قد وُعِدَت بريطانية بهذه المنطقة. وفي مؤتمر الصلح بباريس (١٩١٩) تنازلت فرنسة للبريطانيين عن الموصل التي كانت أصلاً واقعة في منطقة النفوذ الفرنسية. ومع أن جدلاً حول الحدود قام فيما بعد، إلاّ أن بلداً جديداً ظهر على الخارطة وأُعطِيَ الاسم العربيَّ القديم: العراق. وقد كانت هذه منطقة متنوّعة في سكّانها: ثلاثة أرباع السكان فقط كانوا عرباً والباقون أكرادٌ وأقلياتٌ صغيرة. وفي الأكثريّة العربيّة كان الشيعة والسنّة على شيء من الخلاف. مع أن السنّة كانوا، من الناحية العدديّة، أقل من غيرهم، إلاّ أنهم كانوا يُمَيَّزون في المعاملة في الإمبراطورية العثمانيّة. كما أن الطبقة العليا منهم انضمت إلى حركة القومية العربية بيد أنّه بينما كانت الحكومة البريطانية في مصر تشجّع مثل هذه الحركات إلى درجة معيّنة، فإن الإدارة البريطانيّة الهنديّة لم تكن تميل إلى اتباع هذه السياسة في العراق. وبعد أن مَنَحَ مؤتمر سان ريمو في سنة ١٩٢٠ بريطانية الانتداب على العراق، قامت في العراق ثورة كبيرة بسبب خيبة أمل القوميّين العرب وبسبب السخط الذي أثارته الإجراءات التي قام بها الموظّفون البريطانيّون في العراق. وقد كانت الثورة كبيرة بحيث إنّ

إخمادها تطلّب عدداً كبيراً من الجند . واتجهت السياسة البريطانية بعد ذلك إلى منح العراق شكلاً دولياً خاصاً به . وبعد استفتاء شعبيّ توّج فيصل ملكاً على العراق في ٢٣ آب — أغسطس ١٩٢١ ، وكان ذلك بعد نحو سنة من إخراجه من سوريّة على يد الفرنسيين . وقد نظّمت العلاقات العراقيّة البريطانيّة على أساس معاهدة ، وبذلك كان العراق أوّل دولة عربية تمّ لها أن تُحِلّ اتفاقية محلّ الانتداب مع الدولة المنتدبة : في ٣٠ حزيران — يونيو ١٩٣٠ عقدت المعاهدة التي نال العراقُ بموجبها السيادة التامة رسمياً ، ومُنِحَ على أساسها البريطانيّون مطارين عسكريّين في العراق ، وحقوق أخرى في حالة الحرب .

في ١٠ تموز — يوليو ١٩٢٤ تمّ وضع الدستور العراقيّ على أساس الملكيّة الدستوريّة . وكما كان متوقعاً فإن أغلب أعضاء البرلمان كانوا من كبار الملاّكين وزعماء القبائل الذين زاد من قوة نفوذهم قانون تسوية حقوق الأراضي الصادر سنة ١٩٣٢ . يضاف إلى ذلك أرستقراطيةُ موظفين كانوا يلتفون حول البلاط ، ويتقاسمون السلطة مع الآخرين . وبصرف النظر عن المنازعات بين الفئات المختلفة في داخل هذه الطبقة العليا ، فقد أنهكت السياسة العراقيّة قوّتها في كفاحها مع بريطانية العظمى وجيرانها ، الذين لم يريدوا الاعتراف بحدود العراق ، وفي مشكلة تمثّل القبائل والأقليات في الدولة . في أيام حكم الملك فيصل الأول المعتدل عُبِّدت الطريقُ لعدد من التطورات المُؤمَّلة ، لكنّ فيصل توفي سنة ١٩٣٣ وترك العرش لابنه غازي الذي كان في الحادية والعشرين من سنه ، والذي لم يكن قد مكّن لنفسه في صميم الحياة السياسيّة . وبعد تسلّمه العرشَ بقليل قامت في البلاد عدة ثورات قوامها الأقليات والقبائل ، فقضى عليها الجيش بقيادة بَكْر صدقي . وقد استغل بَكْر صدقي النفوذ الذي كسبه عن هذا الطريق

فقام بانقلاب عسكري في ٢٩ كانون الاول – ديسمبر ١٩٣٦ واستولى على السلطة ؛ وقد اغتيل بعد سنة على أيدي ضباط آخرين . وقد بدأت بمحاولة بكر صدقي ، في العراق كأوّل بلد عربي ، سلسلة من الانقلابات العسكرية ، التي تضاءل فيها دور هدف الإصلاح الجدّي ، باستمرار ، بطبيعة الحال . وقد كان الانقلاب السابع من هذه المحاولات ذلك الذي قام به الزعيم الوطني رشيد عالي الكيلاني في أول نيسان – إبريل ١٩٤١ ، واستولى على السلطة وحاول إلغاء المعاهدة مع بريطانية العظمى وطلب المساعدة من ألمانيا . إلاّ أن البريطانيّين تمكّنوا من القضاء على هذه المحاولة خلال أسابيع ؛ وفي آخر أيار – مايو كانوا قد استعادوا مكانتهم في العراق .

بهذه المحاولة انتهت فترة الانقلابات العسكرية إلى حين بالنسبة إلى العراق . وقد قُتِل الملك غازي في حادث سيارة سنة ١٩٣٩ ؛ ولمّا كان ابنه فيصل الثاني دون سنّ الرشد فقد عُهِدَ إلى الأمير عبد الإله بالوصاية على العرش . وكان إلى جانبه ، ولسنوات عديدة ، نوري السعيد الشخصيّة الرئيسية في السياسة العراقيّة . كان نوري السعيد من قبل ضابطاً في الجيش العثمانيّ ، وغالباً ما تولّى مناصب رفيعة في الدولة . وكان من دعاة الوحدة العربية ، ويأملُ أن يكون للعراق دورُ القيادةِ فيها ، إلاّ أنّه كان يرفض اتّجاهات الوطنيّين الراديكالية المعادية للغرب . في ٢٤ شباط – فبراير ١٩٥٥ وقّع معاهدة مع تركية التي انضمت إليها كل من بريطانية العظمى في ٥ نيسان – إبريل والباكستان في ٢٣ أيلول – سبتمبر وإيران في ٣ تشرين الثاني – نوفمبر . وبانضمام بريطانية إلى « حلف بغداد » هذا ، تمّ إلغاء المعاهدة البريطانية العراقيّة المعقودة سنة ١٩٣٠ . وقد اهتم نوري السعيد اهتماماً جدّيّاً رافقه بعض النجاح ، في تخصيص العائدات الضخمة التي

أخذ العراق يحصل عليها من النفط بعد الحرب العالمية الثانية ، لتطوير البلاد الاقتصادي ؛ على أنه كان مضطراً ، وإلى درجة كبيرة ، بأن يأخذ مصالح كبار الملاكين بعين الاعتبار ، غيرَ آبهٍ للتبدّل الاجتماعي الذي كان يسير بخطى واسعة ، ولا لضرورة التقارب بين طبقات الشعب المختلفة والدولة . وكان يقاوم الراديكاليّة المتزايدة في المحافل اليقظة والواعية سياسياً ، بالقمع بأساليب بوليسيّة . ولما اتحدت سورية ومصر في الجمهوريّة العربيّة المتحدة، ردّت المملكتان الهاشميّتان في العراق والأردن على ذلك بالاتفاق على تأسيس « الاتحاد العربي » في ١٤ شباط — فبراير ١٩٥٨ . وبعد أن وافق برلمانا الدولتين على الاتّفاق نظّم نوري السعيد أوّل حكومة اتحادية في ١٩ أيار — مايو . ولم يطل الزمن للتأكد فيما إذا كان الاتحاد يخفي خلفه أكثر من كونه خطوة تكتيكية ضد الوحدة السورية المصرية .

في ١٤ تموز — يوليو ١٩٥٨ استولت فئة من الضباط مع جنودهم على العاصمة العراقية . وقتل الملك الشاب فيصل الثاني ، الذي تولّى العرش سنة ١٩٥٣ ، والأمير عبد الإله ونوري السعيد . وفيما كان سكان بغداد يجدون متنفساً في سفك الدماء بعد طول ضغط أعلن زعيم جماعة الضباط العقيد عبد الكريم قاسم الجمهورية ، وتولّى بوصفه رئيس الوزارة شؤون الحكومة . واهتمّ بعد ذلك بأن يتعاونَ بقدر الإمكان مع جميع العناصر السياسية التي تؤيد الجمهورية مثل : القوّميين العرب والتقدميين والفئات ذات النزعات الاشتراكية المختلفة حتّى الشيوعيين وكذلك مع ممثلين عن الأكراد والشيعة وفي بعض المجالات حتّى مع المسيحيين . ولم يلبث أن ثبت أنّه من المستحيل أن تتكاتف جميع القوى التي انطلقت من عقالها إثر سقوط النظام القديم ، وأن تسيرَ في طريق مشترك .

وقع أول خلاف بين قاسم وبين نائبه عبد السلام عارف ، الذي كان

يريد أن يسير في طريق الوحدة العربية ؛ فأُلقِيَ عليه القبضُ في أيلول — سبتمبر ١٩٥٨ ، وفي شباط — فبراير ١٩٥٩ حكم عليه بالإعدام. ومع أن حكم الإعدام لم ينفّذ فقد دلّ على مخاصمة قاسم لجميع العناصر التي تنادي بالوحدة العربية في العراق بما فيها القيادةُ القطريّة لحزب البعث، وكذلك مع جمال عبد الناصر الذي كان قد دعم النظام الجمهوري بقوّة في بادىء الأمر. وقد حاول بعض الضباط ذوي الميول العربيـــة أن يقوموا بانقلاب ضدّ قاسم من الموصل ، إلاّ أنه قضى عليهم بمساعدة الشيوعيّين والأكراد . وهكذا اتّضح للعيان وجود نوع من التعاون بين قاسم والشيوعيِّين ، أدّى إلى تقوية النفوذ الشيوعي في الحكومة ، بالرغم من كل ما اتخذه رئيس الوزراء من حيطة . لكن في تشرين الثاني — نوفمبر سنة ١٩٦٠ أقال قاسم الوزراء الشيوعيين واتخذ إجراءات ضدّ المنظمات الشيوعية ؛ وحاول أن يعتمد أكثر على العناصر القومية بدل أولئك . وكان قد أمّل الأكراد ، الذين كانت علاقاتهم وثيقة أوّلَ الأمر مع النظام الجمهوري ، بأن يُمنَحوا حكماً ذاتياً ، الأمر الذي لم يحقّقه قاسم لهم وترتب على ذلك أن تفجّرت في سنة ١٩٦١ ثورة كردية مستنزفة طويلة الأمد . وقد ظهر تدريجياً أن رئيس الحكومة كان يُضيع جهده بضرب القُوى المختلفة بعضها ببعض ، كي يتمكّن هو من المحافظة على سلطته . ولم تؤدّ قوانين الإصلاح الاجتماعي ولا الاهتمام بتطوير العراق الاقتصادي إلى نتائج تكفي للقضاء على مثل تلك المشاعر . ولم يحرز قاسم نجاحاً أكبر لنيل إعجاب المواطنين حين فاجأهم في ٢٤ حزيران — يونيو ١٩٦١ بالمطالبة بالكويت ؛ هذه المطالبة لم تجلب له سوى عداوة الجيران . حتّى الطقوس التي ربطها بشخصه لم تغير في النهاية شيئاً من الانطباع فيما يتعلّق بالركود العام .

وهكذا قام في ٨ شباط – فبراير سنة ١٩٦٣ انقلاب « عسكرى » آخر ، هو الذي انتهى بإعدام قاسم رمياً بالرصاص بعد صدور حكم عرفيّ عليه . واستولى عبد السلام عارف على رئاسة الجمهورية . وقد تكوّنت الحكومة الجديدة من أتباع حزب البعث وغيرِهم من العناصر القوميّة . وكما حدث في سورية أزاح البعثيون جميع من يخالفهم في النظرة . وإذ عصفت الخصومات الداخليّة في حزب البعث بالحكومة ، تولّى الرئيس عارف في ١٨ تشرين الثاني – نوفمبر ١٩٦٣ السلطة منفرداً .

***

مثل أجزاء أخرى من ديار الشام كانت فلسطين لقرون طويلة خلت يسكنها عرب مسلمون ومسيحيون مع عدد ضئيل من اليهود . في أواخر القرن التاسع عشر أخذ يهود من شرق أوروبة يهاجرون إليها ، هرباً من الاضطهاد الذي تعرّضوا له هناك ، وينشؤون لهم جاليات فيها . وفي آخر القرن تحوّلت « الصهيونية » إلى حركة سياسية ، ومن ذلك الوقت بدأت تجاهد في سبيل إقامة دولة يهودية . وقد كان عدد اليهود في فلسطين في أعقاب الحرب العالمية الأولى ٦٥,٣٠٠ ، أي حوالي عُشْرِ مجموع السكان . وقد حصلت الصهيونية ، في ٢ تشرين الثاني – نوفمبر ١٩١٧ ، على « وعد بلفور » الذي نص على أن تساعد بريطانية العظمى الشعب اليهودي على إنشاء وطن قومي في فلسطين . وهذا الوعد الذي صيغ بشكل مبهم أدخلته عصبة الأمم سنة ١٩٢٢ في الوثيقة التي منحت بريطانية العظمى بموجبها الانتداب على فلسطين . وعندها وجّه القوميون العرب همّهم نحو المساعي الصهيونية . وقد أظهر فيصل استعداده ، في مؤتمر السلم بباريس ، لأن يكون لفلسطين وضع خاص ، فعقد ، في سنة ١٩١٩ ، مع الزعيم الصهيوني حاييم ويزمان اتفاقاً بتحقيق مطالب الهجرة اليهودية إلى فلسطين ؛ وقد أعطى هذه التنازُلات شريطةَ أن يتحقّق قيامُ

دولة عربية مستقلة فيما تبقّى من بلاد العرب . وبما أن الشرط لم يتحقّق وجد العرب أنفسهم في حل من التنازلات المذكورة . يضاف إلى ذلك أن الشعبَ العربيَّ الفلسطيني أخذ يعارض هجرة اليهود المتزايدة . ومنذ سنة ١٩٢٠ كانت تقوم مصادمات دامية حتى اتخذت ، سنة ١٩٣٦ ، صفة شبيهة بالحرب الأهلية . وعبثاً حاولت الحكومة البريطانية أن توفّق بين مطالب الفريقين . وفي أيار – مايو ١٩٣٩ ، قبل الحرب العالميّة الثانية مباشرة ، أعلنَت الحكومةُ البريطانية ، في كتاب أبيض ، عن سياسة جديدة بموجبها يسمح بهجرة يهوديّة لمدة خمس سنوات ، وستكون بعدها خاضعة لموافقة الشعب العربيّ الفلسطينيّ . وقد رفض اليهودُ الكتابَ الأبيضَ ، كما رفضه العرب أيضاً .

وقد كان لمجرى الأمور خارج فلسطين أثر في إيصال القضيّة الفلسطينيّة إلى الحدّة التي وصلت إليها . ذلك بأن اضطهادَ اليهود في ألمانية الهتلريّة زاد في عدد اليهود المهاجرين إلى فلسطين ، وجعل العالم ينظر إلى مطالبة اليهود بدولة خاصّة بهم أمراً مقبولاً . ومن جهة أخرى أطلق النزاعُ حول فلسطين موجةً جديدة من القوميّة العربية ، وأدّى إلى تبلورها ؛ وحتى في المحافل والبلاد التي كانت إلى ذلك الوقت تعنى في الدرجة الأولى بمصالحها الخاصّة المحلّية ، أيقظ التحدّي الصهيوني الشعور بالتضامن العربي . وبعد الحرب زاد الصراع بين الخصوم عن أي وقت مضى . ولجأت المنظمات اليهودية في فلسطين إلى الوسائل الإرهابية . ولم يقتتل العرب واليهود فيما بينهم فحسب بل أخذ العرب يكافحون سلطة الانتداب أيضاً . وقد ضغطت الولايات المتحدة على بريطانية العظمى كي ترضخ للمطالب اليهودية . ولما فَشِلَت جميع مساعي التوفيق ثانية ، قررت بريطانيا في شباط – فبراير ١٩٤٧ أن تحيل

القضيّة إلى الأمم المتّحدة . وبعد جدل ومباحثات ومفاوضات طويلة قرّرت الجمعية العموميّة للأمم المتحدة في ٢٩ تشرين الثاني — نوفمبر ١٩٤٧ ، تقسيم فلسطين إلى دولة عربية وأخرى يهوديّة ؛ أما القدس فتُوضَعُ تحت إدارة دوليّة . وقد امتنع البريطانيون عن التصويت وأوضحوا أنهم لن يفرضوا حلاً بالقوة ؛ وبدأوا يسحبون جنودهم وموظفيهم كي يتخلوا عن الانتداب في ١٥ أيار — مايو ١٩٤٨ . وقد أعْلِنَتْ دولة إسرائيل في اليوم السابق لذلك . ودخلت جيوش الدول العربية المجاورة إلى فلسطين ، لكنّها لم تستطع أن تسجّل نجاحاً قاطعاً ضدّ إسرائيل . وفي سنة ١٩٤٩ وقّعت الدولُ العربية ، بواسطة الأمم المتحدة ، معاهدات هدنة مع إسرائيل ، لكنها لم تعترف بالدولة الإسرائيلة ، إلاّ أنه كان عليها أن تقبل بأخذ إسرائيل منطقة أوسع ممّا أعطاها إياه مشروعُ التقسيم ، فظلّت المنطقة الجبلية الداخليّة ومنطقة غزة الساحلية فقط بيد العرب . وقد ضمّت المنطقة الجبليّة إلى شرق الأردن ، وأخذت مصر على عاتقها إدارة منطقة غزة . ولم تُدَوَّلْ القدس ، بل قسّمَت المدينةُ نفسُها بين الأردن وإسرائيل . وتحتّم على البلاد العربيّة أن تقبل ما يقارب من مليون لاجىء عربيّ أُخْرِجوا من الجزء المُغْتَصَب من فلسطين ؛ وقد ظلّ أكثر هؤلاء في المخيّمات التي تُعنى بها الأمم المتحدة .

وقد ظلّت القضية الفلسطينيّة مثار خلاف . ولا تزال الدولُ العربية والرأي العامّ العربيّ إلى اليوم ترفض الصلح مع إسرائيل . فأحياناً يأخذون موقف وجوب زوال الدولة الإسرائيلية فيهدّدون بحرب جديدة للوصول إلى غايتهم ، وأحياناً يقدمون شروطاً ترفضها إسرائيل . وقد تعرّضت خطوطُ الهدنة الطويلة أكثر من مرّة للاشتباكات . وجربت إسرائيل بين حين وآخر إقناع العرب بضرورة قبول الصلح والتخلّي عن مطالبهم الحقّة ،

وذلك بالقيام بهجمات شديدة . وهذه الأعمال العسكرية التي بلغت ذروتها في الحملة على سيناء سنة ١٩٥٦ ، لم تؤدّ إلى نتيجة كما أنّ المحاولات المباشرَة التي قامت بها الأمم المتحدة أو الدول العظمى لم تؤدّ إلى نتيجة كذلك .

كانت بريطانية العظمى قد اعتبرت البلاد الواقعة شرق نهر الأردن منفصلة عن منطقة الانتداب في فلسطين . وفي شهر آذار – مارس ١٩٢١ تولّى شؤون المنطقة الأمير الهاشمي عبد الله ، أخو فيصل . وفي ٢٥ أيار – مايو ١٩٢٣ أطلق على البلاد اسم « شرق الأردن » وأعلنَت إمارة مستقلّة ذاتياً . وفي ٢٢ أيار – مايو ١٩٤٦ ، بعد الحرب العالميّة الثانية ، أعلن البريطانيون استقلال شرق الأردن ، وارتبطوا معها بمعاهدة . واتخذ عبد الله لنفسه لقب ملك . وبعد ثلاث سنوات سمى الدولة « المملكة الأردنية الهاشمية » ، وذلك لكي يظهر مطالبته بالضفّة الغربية على أساس أنّ جنوده هم الذين أنقذوها للجانب العربي في حربهم مع إسرائيل . وفي ٢٤ نيسان – إبريل ١٩٥٠ ضَمّ هذه الأرض بشكل رسميّ أيضاً .

بهذا الضمّ وبسبب تدفق اللاجئين من البلاد المحتلة في فلسطين ارتفع عددُ المواطنين في الأردن إلى نحو ثلاثة أضعاف ما كان عليه سابقاً ، والأردنيّون الجدد كانوا يميلون إلى صيغ من القومية أكثر راديكاليةّ من الأردنيين القدامى ، ولم ينشأوا مثل هؤلاء في حمى الولاء للملكية . ومن ثم فقد تلا توسيع الدولة فترةٌ من الاضطراب . كان عبد الله سياسياً فطناً ، ولم يكن يتردّد في التعاون مع بريطانية العظمى أو حتى في جسّ نبض إسرائيل ؛ وقد اغتاله فلسطيني في ٢٠ تموز – يوليو ١٩٥١ . وأُعفي ابنه طلال من الحكم في ١١ آب – أغسطس ١٩٥٢ بسبب الفصام الذي كان يشكو منه . وبعد أن أدار مجلسُ وصايةٍ شؤون الدولة لبعض

الوقت اعتلى الحسين بن طلال العرش في ٢ أيار – مايو ١٩٥٣ . وعندما نوى الملك الشاب أن ينضم في أواخر سنة ١٩٥٥ ، إلى حلف بغداد ، قامت اضطرابات في البلاد حالت دون ذلك . عندها حاول الحسين الانضمام إلى الحركة القومية دون أن يتنازل عن استقلاله . وفي ١ آذار – مارس ١٩٥٦ عزل رئيس أركان جيشه البريطانيّ ، جون باغوت غلوب ، وبدأ بسياسة تقارب مع الدول العربيّة الأخرى بما فيها مصر وسورية . وفي ١٣ آذار – مارس ١٩٥٧ أعلَنَ انتهاء المعاهدة البريطانية . وفي الوقت ذاته كانت نتيجة الانتخابات البرلمانيّة ، التي جرت في ٢١ تشرين الأول – أكتوبر ١٩٥٦ ، نصراً للقوميين المتطرفين والعناصر اليساريّة ، وتولّى هؤلاء الحكومة . وقد دخل الملك في صراع مع هذه الحكومة في بداية سنة ١٩٥٧ ، وتمكّن في إبريل – نيسان من قلب الحكومة ونفي رئيس الأركان الجديد ، وهو ضابط كان من قبل صديقاً له والذي بدا خطراً عليه . وكان معنى هذا استعداء سورية ومصر ، ولحفظ التوازن اتجه الحسين نحو المملكة السعوديّة العربية والولايات المتحدة . وقد مر معنا ما يتعلق « بالاتحاد العربي » الذي قام بين الأردن والعراق سنة ١٩٥٨ رداً على قيام « الجمهورية العربيّة المتحدة » . ولمّا بدا وكأن الثورة العراقية ، التي قامت في ١٤ تموز – يوليو ١٩٥٨ ، قد هزّت العرش الأردنيّ أيضاً ، استدعى الملك جنوداً بريطانيين إلى البلاد حيث ظلّوا بضعة أشهر . ومنذ ذلك الحين والحسين يقبض على ناصية الأمور في الأردن .

***

بعد أن أعلن الشريف حسين أمير مكّة الثورة على الإمبراطورية العثمانيّة في ٥ حزيران – يونيو ١٩١٦ ، اتخذ لنفسه ، في ٢ تشرين الثاني – نوفمبر من السنة ذاتها ، لقب « ملك البلاد العربية » ؛ إلاّ أنّ

الدول الغربيّة اعترفت به « ملك الحجاز » فقط . وحتى هذا المُلْكُ المصغّر لم يتمتّع به طويلاً . ذلك أنه من بين أمراء القبائل في شبه جزيرة العرب استطاع زعيم الوهابيين عبد العزيز آل سعود أن يجعل من نفسه أثناء ذلك منافساً جدّياً للملك حسين . وكان عبد العزيز قد بدأ في سنة ١٩٠٢ باستعادة دولة أجداده في نجد ، وبشجاعته الشخصية وإفادته البارعة من التطوّر السياسي ، تمكّن من السيطرة على أواسط شبه الجزيرة وعلى جزء من الساحل الشرقي . وكان قد ارتبط مع البريطانيين أيضاً – عن طريق حكومة الهند – وكلما ازداد إزعاج الحسين للبريطانيين، كلما أطلق هؤلاء يد الزعيم السعوديّ أكثر فأكثر في المنطقة . ولما دخل ابن سعود الحجاز في أيلول – سبتمبر ١٩٢٤ ، تنازل الحسين عن العرش لابنه عليّ ، إلاّ أن هذا أنهى القتال في السنة التالية ، وفي ٨ كانون الثاني – يناير ١٩٢٦ نودي بعبد العزيز ملكاً على الحجاز. وبعد ذلك ، إذ كان قد ضمّ أيضاً منطقة عسير ، في الساحل الغربيّ لشبه الجزيرة إلى مملكته ، أطلق عليها اسم « المملكة العربية السعودية » .

لم ينسَ ما كان عليه موقف الوهابيين المطهّرين من الإسلام التقليديّ في أوائل القرن التاسع عشر ، ولذلك فإن دخول عبد العزيز إلى الأماكن المقدّسة لم يتقبّله العالم الإسلاميّ بسهولة . الاّ أنه اتّبع سياسة معتدلة أنالته الاعتراف به تدريجاً . حتى علاقاته مع العراق والأردن سوّيت في نهاية الأمر ، ولو أن أعقاب الحسين الذين كانوا يحكمون هذين القطرين لم يتخلّوا تماماً عن خصومتهم لآل سعود . وقد عرف عبد العزيز، ويُعَدّ من أبرز الشخصيات العربية في القرن العشرين ، كيف يحوّل حماس الوهابيين المذهبي إلى أهداف بنّاءة . فقد وطّن البدو وبنى أداةً للحكم وأدخل مُكْتَسباتٍ من التقنية الغربيّة ، وبذلك عمل على تحديث مجتمع

لعلّه لم يتغير منذ أيام النبي (ص) . والثروة الّتي تدفّقت على المملكة العربيّة السعوديّة بعد الحرب العالميّة الثانية من عائدات النفط واشتغال عدد كبير من العمال الوطنيّين في صناعة النفط ، تساعد على دفع التطور الاجتماعيّ إلى الأمام . وقد تولّى الحكم الملك سعود بن عبد العزيز سنة ١٩٥٣ لما توفي والده . إلاّ أنه والذين شاركوه الحكم من أسرته أظهروا ولِمُدَّةٍ طويلة فهماً وإدراكاً قليلين لهذه المسؤولية — الصعبة بطبيعة الحال — والسير بالتطوّر في الاتجاهات الصحيحة . ولم يُوضع برنامج إصلاحي فعّال إلاّ في سنة ١٩٦٢ ، بسبب ضغط الثورة اليمنيّة .

* * *

والبلد الكبير الثاني في شبه الجزيرة العربية هو اليمن وقد أقفلت اليمن على نفسها الأبواب فلم تتسرب إليها أي من التأثيرات الحديثة ، حتى بعد سنة ١٩١٨ عندما تحررت من السيادة التركية . وقد كان حكّام اليمن ، الإمام يحيى حميد الدين (حكم ١٩٠٩ — ١٩٤٨) والإمام أحمد (حكم ١٩٤٨ — ١٩٦٢) ، وهما إماما الشيعة الزيديـــة في نفس الوقت ، يحكمان البلاد وكأنها ملكٌ خاصٌ بهما . ومع أن اليمن كانت لها اتصالات مع إيطالية في فترة ما بين الحربين ، وكانت مرتبطة رسمياً بالجمهورية العربية المتحدة كعضو في « الدول العربية المتحدة » (١٩٥٨ — ١٩٦١) ، وحصلت على مساعدات اقتصادية وفنية من الاتحاد السوفيتي وجمهورية الصين الشعبية ، إلاّ أن هذا كله لم يأتِ بتغييرات أساسية . ويبدو من التمردات الفاشلة الّتي قامت في السنوات ١٩٤٨ و ١٩٥٥ و ١٩٦١ أنه كانت ثمة عناصر تريد تبديل الأوضاع الجامدة في البلاد : وقد قتل الإمام يحيى في التمرد الأول وفي الثاني أُرغم الإمام أحمد على التنازل عن العرش بضعة أيام ، وفي الثالث أصابته جروح على أيدي ضباط

ثائرين . وفي ١٩ أيلول — سبتمبر ١٩٦٢ توفي الإمام أحمد وفاة طبيعيّة ، وخلفه ابنه محمد البدر على العرش . ولكنّه خُلع في ٢٦ من الشهر نفسه نتيجة انقلابٍ عسكريّ ، ونادى زعيم المتمردين ، اللواء عبد الله السلاّل : بالجمهوريّة العربيّة اليمنيّة وتولى الحكم أولاً كرئيس للوزراء ثم كرئيسٍ للجمهورية . وقد تمكّن الإمام البدر من النجاة وضم بعض القبائل لمحاربة الجمهورية ، وقد لقي تشجيعاً من المملكة العربية السعودية ومن حين إلى آخر تأييداً من الأردن ومحمية عدن . إلاّ أنّه ، من الجهة الثانية ، أرسلت مصر جنودها إلى اليمن لتأييد الجمهورية . أدّى ذلك إلى نشوب قتال طويل ونزاع بين المملكة العربية السعودية والجمهورية العربية المتحدة . وقد أصبح أمر نجاح الثورة (عند كتابة هذا الفصل) في الميزان ، فالحكومة الجمهورية لم تجد جهازاً إدارياً يمكنها استعماله ، وإيجادها صعوبة في التغلب على الخلاف القديم بين الطبقة الزيديّة المسيطرة (وهم شيعة) وأكثرية سكّان اليمن الشافعيين (وهم سنّة) . وأهم من هذا كلّه هو أنّ قسماً كبيراً من السكان لم يكن لديه الوعي السياسيّ الكافي ليتسنى له أن يدرك الأمر الذي تدور الثورة حوله .

كانت أكثر المناطق الساحليّة في جنوب شبه الجزيرة العربية وشرقها قد دخلت تحت النفوذ البريطاني في القرن التاسع عشر . وقد تمّ ذلك ، على الغالب ، بعقد معاهدات حماية مع الحكام المحليّين ، إلاّ فيما يتعلّق بعدن ، الميناء الواقع عند مدخل البحر الأحمر والذي كانت السفن تتزوّد فيه بالفحم ، فقد آلت إلى مستعمرة تحت الإدارة البريطانيّة المباشرة . وفي مجال ما أُدخل من تطوّر دستوري للمستعمرات البريطانيّة منحت عدن سنة ١٩٤٧ مجلساً تشريعياً ينتمي إليه منذ سنة ١٩٥٥ نواب ينتخبون من الشعب . وفي سنة ١٩٥٩ انضم عدد من الإمارات الصغيرة في منطقة الحماية

البريطانية الواقعة إلى الشرق من عدن وكوّنت « اتحاد الجنوب العربي » .
وفي سنة ١٩٦٣ ضمّ البريطانيّون مستعمرة عدن إلى الاتحاد ، رامين من وراء ذلك إلى الاحتفاظ بعدن مركزاً حربياً لبلادهم في المستقبل . وقد طالبت اليمن بعدن والمحمية على أنهما جزء منها ، وبسبب ذلك كثرت الحوادث على الحدود . وحركة القوميّة العربية التي قامت في عدن لم تهتمّ بإرضاء مطالب اليمن ، ما دامت هذه تحت الحكم الإمامي . لكن الجمهورية اليمنيّة أخذت تستثمر خوف القوميين من أن يقاسوا تحت سيطرة الأمراء المحافظين في الاتحاد العربي الجنوبي ، بجذبهم إليها .

في سنة ١٩٥٥ أصبحت سلطنة مَسْقَط وعُمان ، الواقعة في الزاوية الجنوبية الشرقيّة من شبه الجزيرة ، مسرحاً للقتال ، ذلك بأن قبائل عُمان الداخليّة حاولت أن تحصل على اعتراف بأنها دولة مستقلة . وقد تمكن سلطان مسقط سعيد بن تَيْمُور ، من القضاء على الثورة بمساعدة الجنود البريطانيين ، إلاّ أنه منذ ذلك الوقت تقوم حركة عُمان المستقلة في المنفى .
تلي مَسقط وعمان سبعُ مشيخات تسمّى المشيخات المتصالحة وهي : الفُجَيرة ورأس الخيمة وأُم القَيْوَيْن وعَجْمان والشارقة ودُبي وأبو ظَبي . وهي إمارات صغيرة ، عدد سكانها لا يزيد عن بضعة آلاف . وقد قام نزاع في سنة ١٩٥٢ بين أبو ظبي ومسقط وعُمان من جهة والسعودية العربية من جهة ثانية حول مُلْكيّة واحة البُرَيمي ، والتي كان الخلاف مستحكماً بشأنها بين السعودية العربية وبريطانية التي تدخلت نيابة عن محميتَيْها وخلف هذا النزاع يكمن تبدل تاريخي في عالم البدو : فإلى ذلك الوقت كان مقياس التبعيّة السياسية هو ولاء القبائل المتنقلة ، إذ كان اهتمام الناس ضئيلاً بحدود المقاطعات ، أمّا في عصر النفط فقد أصبحت المطالبة بمقاطعة ما فجأة أمراً غاية في الأهمية .

إن النفط الذي هو أمل المستقبل بالنسبة إلى مشيخات الساحل المتصالحة ، قد صار ، في الواقع ، مصدر الثروة في الإمارات الثلاث الأخرى الواقعة على الخليج العربي : قَطَر والبحرين والكويت . ومن الملحوظ أن سكان البحرين ، مثل سكان الكويت وعدن ، قد ظهر بينهم وعي سياسيّ يقابله الحكام بشيء من التلكّؤ . وقد وضعت بريطانية العظمى الكويت تحت حمايتها سنة ١٨٩٩ ، حين أخذت كل من روسيا وألمانيا تظهر اهتماماً بهذا الميناء الواقع على طرف الخليج . وقد أنهت الكويت معاهدتهـا مع البريطانيين في ١٩ حزيران – يونيو ١٩٦١ ، ونالت استقلالها التام ولما طالب عبد الكريم قاسم بضم الكويت إلى العراق على أساس من الحجّة التاريخيّة ، قامت أزمةٌ دولية عادت أثناءها القوات البريطانية لبضعة أسابيع إلى الكويت ، بناء على طلب أميرها الشيخ عبد الله السالم الصباح ، ثم جاءت قوات من العربية السعوديّة والجمهورية العربية المتحدة والسودان والأردن وتونس. ولم تكفّ حكومة بغداد عن المطالبة بجارتها الصغيرة إلاّ بعد ثورة العراق سنة ١٩٦٣ . وقد تطوّرت الكويت بفضل نفطها الذي جعلها في عداد الدول ذات الدخل الفردي المرتفع في العالم ، إلى دولة تقدم العديد من الخدمات الاجتماعية مجاناً لسكانها . وفي سنة ١٩٦٢ تمّ وضع دستور للبلاد على أيدي هيئة تأسيسيّة منتخبة، وفي السنة التالية انتُخِبَ أوّلُ برلمان في البلاد . وبالنسبة للسياسة الخارجية فإن الكويت تهتم بأن تكون علاقاتها حسنة مع بقية البلاد العربية ، فتقدم لها مساعدات اقتصادية .

• • •

بعد أن أصبح شمال إفريقية في القرن الأول الهجريّ جزءاً من العالم العربي ، أخذ الإسلام والتأثير العربي ينتشر إشعاعهما نحو الجنوب باستمرار وما زالا يلعبان حتى اليوم دوراً هاماً في أجزاء شاسعة من القارة . إلاّ أنّ

السياسة الاستعمارية الأوروبية أصبحت هي العامل الحاسم ، بطبيعة الحال ، في تطور إفريقية الحديث جنوب الصحراء الكبرى . لكنّ واحدة من الدول المستقلة ، التي تخلّصت من الحكم الاستعماريّ في أواسط القرن الحالي ، قد اتجهت بأكثرية سكانها نحو العروبة : هذه هي جمهورية السودان . وقد تعيّنت حدود السودان نتيجة للسياسة الاستعمارية المصريّة ، التي بدأها محمد علي لما فتح السودان سنة ١٨٢٠ . وقد مدّ خلفاؤه سلطانهم بحيث وصل إلى خط الاستواء إلى مناطق ليست عربيّة ولا إسلامية ، وإنّما هي جزء من إفريقية السوداء . وفي سنة ١٨٨١ قامت ثورة في الأنحاء العربيّة الإسلامية ، من السودان بقيادة المهدي . ولما كانت مصر قد استولى عليها البريطانيّون فقد خسرت السودان بأكمله ، إلاّ إنّ البريطانيّين احتلوه ثانية ١٨٩٦ — ١٨٩٩ بمساعدة القوات المصريّة . وبموجب معاهدة وُقّعَتْ في ١٩ كانون الثاني — يناير ١٨٩٩ أصبح الحكم في السودان ثنائياً (بريطانياً مصرياً) ، غير أن الكفّة البريطانية كانت الراجحة . ومطالبة الحركة الوطنية المصرية بوحدة وادي النيل كانت دوماً سبب أزمات مصرية بريطانية . وفي سنة ١٩٥١ أعلنت حكومة القاهرة إنهاء الحكم الثنائيّ بانتهاء المعاهدة المصريّة البريطانية . وبعد ثورة سنة ١٩٥٢ اتفقت مصر مع بريطانية العظمى في ١٢ شباط — فبراير ١٩٥٣ على أن يُتْرَكَ للسودانيين أمر تقرير مستقبلهم .

رغبة منهم في أن يجعلوا للسودان نقطة ثقل سياسيّة خاصة به فقد منح البريطانيّون أثناء الحرب العالمية الثانية الولايات الشماليّة أولاً ثمّ ، سنة ١٩٤٨ ، السودان بكامله هيئات تمثيليّة وهي التي استبدلت فيما بعد ببرلمان عاديّ . ورغم عدم وجود نقص في العناصر الموالية لمصر ، إلاّ أن البرلمان أقرّ في كانون الأول — ديسمبر ١٩٥٥ بالإجماع أن السودان دولة مستقلة ذات سيادة تامّة ، وفي ١ كانون الثاني — يناير أعلن الاستقلال .

والتطاحن بين السياسيّين الذين كانوا منقسمين أحزاباً على أساس التكتلات الطائفية وصلاتهم بمصر ، أفقد الجيش ثقته بهم . فقامت جماعة من الضباط في ١٧ تشرين الثاني – نوفمبر ١٩٥٨ بقيادة اللواء إبراهيم عبّود واستولت على السلطة . وبعد أن نجح الرئيس عبود في ضبط النزعات المتضاربة بين الضباط ، وجه القوى المختلفة لتطوير البلاد داخلياً . ومنذ سنة ١٩٦٣ يُعاد بناء نظام الهيئات التمثيليّة التي ينتخب قسم من أعضائها ويُعين القسم الآخر . أصعب مشكلة تواجه دولة السودان الفتيّة تأتي من قبائل الولايات الجنوبية : فبعضهم وتنيون والبعض الآخر اعتنق المسيحية على يد المبشرين ، وهي تشك بنوايا السودان الشمالي العربي الإسلامي . واهتمام الحكومة بإقصاء المبشّرين ونفوذهم ونشر اللغة العربيّة في البلاد في سبيل توحيدها ، أدّى إلى قيام اضطرابات مختلفة في البلاد .

***

إن اثنتين من الدول الأربع التي يُتكوّن منها المغرب العربيّ لهما تاريخ طويل وهما المملكة المغربية وتونس ، بينما نجد أن الجزائر وليبيا كانتا تحكمان حيناً من الجيران في الغرب وحيناً من الجيران في الشرق . ولم تتضح شخصيتهما إلاّ في أيام الدولة العثمانية ثم في العهد الاستعماري الأوروبي . وقد احتلّ العثمانيّون ليبيا ، كما احتلّوا شمال إفريقية باستثناء المغرب نفسه ، في القرن السادس عشر ، وفي سنة ١٩١١ أنزلت إيطاليا قواتها في ليبيا ، وحملت الإمبراطورية العثمانية ، في السنة التالية ، على التنازل عن حقّها في ليبيا . أمّا في البلاد نفسها فقد تزعمت السنوسيّة مقاومة ضارية . والسنوسيّة حركة إصلاحيّة إسلاميّة مطهّرة أنشأها محمد بن عليّ السنوسيّ . وفيها شبه للوهّابيّة إلاّ أنها تحمل في طيّاتها نزعةً صوفيّة . ولم يتمكّن الإيطاليون من السيطرة على ليبيا إلاّ في سنة ١٩٣٢ . وبعد

انهزام إيطالية في الحرب العالمية الثانية لم يستطع الحلفاء الاتفاق لمدة طويلة فيما بينهم حول مستقبل ليبيا . وفي سنة ١٩٤٩ قرّرت الأمم المتحدة أن يقرّر الليبيون مصيرهم بأنفسهم . وكان ما يجمع بين المناطق الثلاث للقطر قليلاً : فبينما كان أهالي برقة متأثرين بالسنوسيّة ويرغبون في أن يكون محمد إدريس السنوسيّ ، حفيدُ المؤسّس ، ملكاً ؛ مال أهل طرابلس ، الذين كانت الآراء الحديثة قد انتشرت بينهم بشكل أقوى ، إلى النظام الجمهوري ؛ أمّا منطقة فزّان الصحراويّة في الجنوب فقد وقفت على حدة . وتمّ الاتّفاق في النهاية على إقامة حكم ملكيّ اتحاديّ تحت إدريس ؛ وأُعْلِنَ الاستقلالُ في ٢٤ كانون الأول — ديسمبر ١٩٥١ . وليستمر وجودها كان على ليبيا أن تعتمد على مساعدات ماليّة واقتصادية تتلقاها من أميركة وبريطانية العظمى وفرنسة . لكنّ الوضع تبدّل منذ أن اكتُشِفَتْ حقول النفط الغنيّة وبدىء بتصدير النفط الليبي سنة ١٩٦١ . وقد وطّد هذا الصلات بين الولايات الثلاث ، فعدّل الدستور سنة ١٩٦٢ لإلغاء الصفة الاتحادية للدولة ، وفي نفس الوقت بدت في الأفق طلائع توتر ناجم عن تطوّر اجتماعي واقتصادي سريع .

* * *

في سنة ١٧٠٥ أنشأ احد الضباط الأتراك ، الذي كان من أصل كريتي ، الأسرة الحُسَيْنيّة ، التي اعترف حكامها بالسيادة العثمانيّة لكنهم من الناحية العمليّة تمكّنوا من جعل تونس مستقلة إلى درجة كبيرة . وقد بدأ البايات الحسينيون في القرن التاسع عشر باتّباع سياسيّة التّحْديث ؛ فاتّسع مدى التأثير الغربي وتأصّلت بعض من الآراء الغربية في النفوس . وفي سنة ١٨٦١ وضع الباي محمد الصادق أوّل دستور لبرالي ينشره أمير دولة عربية . ومع أن الدستور لم يوضع موضع التنفيذ غير سنوات قليلة . إلاّ أن أثره

في رفع مستوى الثقافة السياسية بين التونسيين كان كبيراً . وفي سنة ١٨٨١ استولى الفرنسيون على تونس ، إذ قادوا إليها حملة برية من الجزائر وحملة بحرية من فرنسة ، ووضعوا البلاد تحت حمايتهم ؛ وأرغم الباي سنة ١٨٨٣ على التنازل عن الإدارة الداخليّة للفرنسيين . وقد تدخّلت فرنسة في شؤون تونس أكثر مما تدخلت بريطانية العظمى في شؤون مصر ، فضلاً عن أنها شجّعت هجرة الفرنسيين إلى تونس . ونظرت فرنسة إلى المستقبل على أساس خلق سيادة فرنسية تونسيّة مشتركة التي كان التعبير عنها مجالس تمثيلية ، أعضاؤها فرنسيّون وتونسيّون . لكن هـذه السياسة كانت تقاومها الحركة الوطنية، التي انتظمت أول الأمر في حزب تونس الفتاة بدءاً من سنة ١٩٠٧ . وبعد الحرب العالميّة الأولى في سنة ١٩٢٠ ظهر الحزب الدستوري بزعامة عبد العزيز الثعالبي ، أحد تلاميذ محمد عبده . ولم يطالب الحزب الدستوري يومها بالاستقلال ، وإنّما طالب بدستور يوضح حقوق التونسيين ويحدّد نفوذ الفرنسيين . إلاّ أن الجيل الجديد الذي تلا هذه الفترة أخذ على نفسه مجاهدة الاستعمار الفرنسي والسعي وراء استقلال تونس ، وجعله من برنامج الحزب . وفي سنة ١٩٣٤ انفصل هؤلاء عن قدامى الدستوريّين وأسّسوا الحزب الدستوريّ الجديد وذلك بقيادة الحبيب بورقيبة المحامي الشاب الذي كان قد تلقّى دراسته في فرنسة .

أثناء الحرب العالميّة الثانية أطلقت دول المحور سراح بورقيبة من سجن في فرنسة وسيّرت قواتها في ٩ تشرين الثاني — نوفمبر ١٩٤٢ إلى تونس . وقد تفادى كلٌّ من محمد المنصف الباي الحاكم ، وزعيم الحزب الدستوري الجديد الارتباط بألمانية أو إيطالية . ومع ذلك فإن الباي خُلِعَ بعد دخول الحلفاء تونس في أيار — مايو ١٩٤٣ ، وحتّى بعد ذلك كانت فرنسة تتلكّأ في تخفيف تحكّمها في تونس . وقد جاء أوّل وعد بمنح تونس

استقلالاً داخلياً في تعهد قطعه بيار منديس – فرانس ، رئيس وزراء فرنسة ، في ٣١ تموز – يوليو ١٩٥٤ ؛ وكان ذلك بسبب ضغط الاضطرابات الدامية في تونس ، وفي ٣ حزيران – يونيو ١٩٥٥ وُقِّعَ الاتفاق ، وأخيراً في ٢٠ آذار – مارس ١٩٥٦ استطاعت تونس أن تضع الاستقلال التام موضع التنفيذ .

وفي الانتخاب الذي تلا لاختيار هيئة تأسيسيّة لوضع الدستور ، لم تلق لائحةُ الوحـــدة الوطنية التي وضعها بورقيبة أيّ معارضة ، تولى بورقيبة الحكم . وفي ٢٥ تموز – يوليو ١٩٥٧ أعلنت الجمهوريّة في تونس وانتخب بورقيبة رئيساً لها . وفي ٢٨ أيار – مايو ١٩٥٩ وضع لتونس دستور رئاسي على شاكلة دستور الولايات المتحدة . وبما أن الحزب الدستوري الجديد هو الحزب السياسي الوحيد ، ولأنه كان دعامة للرئيس ، فقد أصبح لبورقيبة سلطة شخصية غـــير محدودة تقريباً ، وقد استخدم بورقيبة هذه السلطة لتجنيد القدرات جميعها في سبيل تطوير تونس . وفيما يميل على الغالب نحو الاعتدال في سياسته ، فإنّه اتّخذ إجراءات أكثر راديكاليةً من أي زعيم عربي آخر في سبيل تحرير بلاده من تأثير التقاليد الإسلاميه : فقد منع تعدد الزوجات وجعل الطلاق أمراً عسيراً ، كما يحاول إبطال الصوم الذي يسبب سنوياً – في نظره – تعطيلاً في الإنتاج . وفي السياسة الخارجية يتبع بورقيبة اتجاهاً غربياً مع المحافظة عـــلى الاستقلال محافظة صارمة .

* * *

لمّا استولت فرنسة على مدينة الجزائر في ١٤ حزيران – يونيو ١٨٣٠ كان سكان المنطقة في المدن والقبائل يدفعون الضرائب لإدارة عثمانية ، لكن

لم يكن لهم أي وحدة سياسيّة . ودخول الأجانب أثار في الواقع حركة مقاومة شملت منطقة واسعة، وكان يتزعم هذه الحركة الأمير عبد القادر الذي استفاد من مركزه المعتمد على مكانة دينية ونجاح عسكري في إقامة بناء سياسيّ كان من الممكن أن يصبح دولة وطنية . لكنّ أسْرَ عبد القادر في كانون الأول – ديسمبر ١٨٤٧ وضع حداً للمقاومة الموحدة . وقد عمل تدفق المهاجرين الفرنسيين والإسبان والإيطاليين والمالطيين على وضع الأساس االلازم لتطوّر اقتصاديات البلاد ، إلاّ أنّه أقصى السكان الأصليين عن أخصب المناطق . وقد حكمت فرنسة القطر الجزائري على أنه جزء من فرنسة نفسها . ولم يسمح للجزائريين الاشتراك في الإدارة المحليّة إلاّ تدريجاً . وقد كان الهدف الأبعد لفرنسا هو جعل الجزائريين فرنسيّين ؛ واعتباراً من سنة ١٨٦٥ كان باستطاعة المسلم أن يكون مواطناً فرنسياً إذا تخلّى عن حقوق الأحوال الشخصية الإسلامية، ولم يحاول الإفادة من هذا إلاّ عدد ضئيل جداً . ومن ناحية أخرى وقف تفسخ المجتمع القديم ، لمدة طويلة ، في طريق تعبير إيجابي عن الوعي الوطني .

بدأت الحركة الوطنيّة بالمعنى الحديث خارج البلاد وذلك بين العدد الكبير من العمّال الجزائريين في فرنسة، حيث أنشأ مصالي الحاج سنة ١٩٢٦ منظمة « نجم شمال إفريقية » ، التي تقرّبت ، بادىء الأمر ، من الشيوعيين ، لكنّها اتخذت ، فيما بعد ، صفة عربيّة – إسلاميّة بارزة . أما العناصر البرجوازية التي قادت الحركة الوطنية في البلاد العربيّة الأخرى لم تظهر في الجزائر إلاّ فيما بعد : ففي سنة ١٩٣١ أنشأ الشيخ عبد الحميد بن باديس ، وهو أيضاً أحد تلاميذ محمد عبده ، جمعية العلماء التي سعت إلى بعث نهضة وطنيّة عن طريق إحياء الدين الإسلامي . وقبل الحرب العالمية الثانية أخذت أخيراً النخبة المثقفة ، والتي كان أفرادها قد تعلموا في المدارس

الفرنسية ، تولّي فكرة « الفَرْنَسَة » ظهرها ، بعد أن خاب أملها في الحصول على المساواة في الحقوق مع الفرنسيّين . وفي سنة ١٩٤٣ ، بعد احتلال الدول الغربيّة لشمال إفريقية ، قام أحدهم باسم هذه الفئة وهو الصيدلي عباس فرحات ، بالدعوة إلى حركة تطالب بالاعتراف بالجزائر دولة ذات سيادة . وقد قامت بعد نهاية الحرب مباشرة ، في شهر أيار — مايو ١٩٤٥ ، اضطرابات دامية في شرق الجزائر قضت عليها السلطات الفرنسية بقسوة شديدة . وقد جرّبت حكومة باريس أكثر من مرّة ، خلال السنوات التي تلت ذلك ، أن تتقرّب من الوطنيين الجزائريين أملاً في تجنب اتجاههم اتجاهاً متطرفاً ، إلاّ أن هذه السياسة أحبطها الفرنسيّون المقيمون في الجزائر كما أحبطوها مرّات من قبل . ولمّا قامت محاولة جديدة ، عن طريق قانون ٢٠ أيلول — سبتمبر ١٩٤٧ ، لمنح الجزائر «شخصيّة» خاصة بها ، ممثّلة في برلمان خاصّ يحتلّ نصف مقاعده مسلمو الجزائر ، حالت الإدارة المحلّية دون انتصار الجماعات الوطنية المؤكد في الانتخابات ، وذلك عن طريق تزويرها ، ودفعتها دفعاً إلى العمل خارج مجال الشرع .

ففي ليلة ٣١ تشرين الأول — أكتوبر / ١ تشرين الثاني — نوفمبر ١٩٥٤ قامت في شرق الجزائر سلسلة من الاعتداءات التي بدت أوّل الأمر وكأنها أعمالٌ قامت بها جماعات متفرّقة ، لكنها كانت ، في الحقيقة ، بدء حرب الاستقلال . وقد كان زعماء « جبهة التحرير الوطنيّة » ، الذين رتبوا أمور هذه الحرب ، نفراً من الشباب المجهولين برزوا من الجناح البروليتاري من الحركة الوطنيّة ، وكانوا غير راضين عن أساليب الكفاح التي اتبعتها المنظّمات القديمة . ومع أن فرنسة وضعت ضدّ جبهة التحرير الوطنية قوى محاربة كبيرة ، فقد نجحت الجبهة في أن تحرّر بعض المناطق من السلطة الفرنسيّة وتقيم

فيها إدارتها الخاصة ، أمّا المناطق الأخرى فقد عكّرت صفوها وهدوءها عن طريق الإرهاب المنظّم . وقد تلقّت الجبهة المساعدات والتأييد من جيرانها في المغرب ومن دول عربية أخرى ، وخاصة مصر . إلاّ أنّها ما كانت لتسجّل نجاحاً أكيداً لو أن أكثرية الجزائريين المسلمين لم ينجذبوا إليها تدريجياً . وقد حاولت الحكومة الفرنسية عندها اتّخاذ إجراءات قمعيّة ضدّ الثوار مع تقديم تنازلات لإرضاء الشعور الوطني الجزائري . لكنّ مقاومة الفرنسيّين الجزائريين وبعض فئات من الضباط الفرنسيين لهذه التنازلات غلّت أيدي الحكومة الفرنسيّة وضيّقت مجال التحرّك ، وأدّت إلى مضاعفات في السياسة الفرنسيّة الداخليّة هزّت أركان الدولة . ومن الجزائر خرجت الثورة الفرنسية في ١٨ أيار – مايو ١٩٥٨ التي أدّت إلى سقوط الجمهورية الرابعة وجاءت بالجنرال دي غول إلى السلطة . وقد رأى الرئيس دي غول تدريجاً أنه لم يعد من الممكن التأخّر في منح الجزائريين حق تقرير مصيرهم . ففي سنة ١٩٦١ بدأ المفاوضات مع « الحكومة المؤقتة في المنفى » التي كانت قد أنشأتها جبهة التحرير الوطنيّة سنة ١٩٥٨. ووصل معها إلى اتّفاق إڤيان في ١٨ آذار – مارس ١٩٦٢ ، وبموجب هذا الاتفاق أنهى دي غول الحرب وأعطى الجزائر حقّ تقرير مصيرها مع الأمل في استمرار تعاون فرنسيّ جزائريّ في المستقبل . وفي ١ تموز – يوليو ١٩٦٢ قالت الجزائر كلمتها في استفتاء شعبيّ وقررت الاستقلال . وبعد يومين اعترفت فرنسا بذلك . وفي ٢٠ أيلول – سبتمبر جرت الانتخابات لاختيار مجلس وطني والذي اختار أحمد بن بلاّ رئيساً للوزارة في أوّل حكومة نظاميّة ، وذلك في ٢٦ من الشهر نفسه . وكان بن بلاّ أكثر زعماء جبهة التحرير الوطنية « التاريخيين » منذ ١٩٥٤ شعبيةً . وكان قد وقع في الأسر الفرنسي سنة ١٩٥٦ .

كانت مهمة بن بلاّ التي تولاّها صعبة : فالجزائر كانت أفقرتها حربٌ استمرت قرابة ثماني سنوات ، وقد هجرها الأوروبيّون وبذلك خسرت القدرات التي كانت تحتلّ المراكز الفعّالة في الإدارة والاقتصاد والتعليم . في هذه البلاد كان على بن بلاّ أن يقيم دولة حديثة عاملة . وقد حاول ذلك عن طريق الاشتراكية معتمداً على جبهة التحرير الوطنية الحزب الوحيد المسموح به . وبذلك لم يطفىء زعماء البرجوازية الوطنية، فقط ، بعد أن عملوا في الحكومـــة المؤقتة ، بل أطفأ كذلك منافسيه من « الزعماء التاريخيين » في جبهة التحرير الوطنيّة . كذلك ظهرت التوترات القديمة بين العناصر العربية وعناصر أخرى من الشعب الجزائري متمسكة ببربريتها ، وهي التي تعارض حكم بن بلاّ الشخصي. ولا شكّ أنّ تطوّر الجزائر في المستقبل ، سيُراقب باهتمام خاص ، فهي البلاد التي ظلّت تحت النفوذ الأوروبيّ مدة أطول من غيرها من الأقطار العربيّة وكانت تجربتها أعنف .

* * *

كان المغرب الأقصى القطر العربي الوحيد الذي لم يقع تحت السلطة العثمانية ؛ ومنذ سنة ١٦٦٠ تتولى شؤونه الأسرةُ العلويّة . وقـــد بدأ السلاطينُ العلويّون في الربع الأخير من القرن التاسع عشر بمحاولة تحديث البلاد ، التي حافظت على استقلالها ، مبدئياً ، بسبب الخلافات بين الدول الأوروبية التي كانت لها مصالح في المغرب . إلاّ أنّ الاتفاق البريطانيّ الفرنسيّ الذي عقد سنة ١٩٠٤ ، والاتفاق الألماني الفرنسيّ حول المغرب والكونغو الذي تمّ سنة ١٩١١ ، وضعا حدّاً لهذه الخلافات : ومن ثم فقد استطاعت فرنسة أن تعقد مع السلطان عبد الحفيظ معاهدة ٣٠ آذار — مارس ١٩١٢ ، التي وضع بموجبها القسم الأكبر من المغرب تحت

الحماية الفرنسيّة . وقد كانت إسبانية ، التي تحتفظ بسبتة ومليّلة منذ القرن السادس عشر ، قد عقدت اتفاقاً سرياً مع فرنسة سنة ١٩٠٤ ، أمّنت بموجبه جزءًا من شمال المغرب . وقد رسمت معاهدة ٢٧ تشرين الثاني – نوفمبر ١٩١٢ ، الفرنسية الإسبانية ، حدود تلك المنطقة . وقد جاء في المعاهدة المذكورة أمرُ الاحتفاظ بطنجة كمنطقة دوليّة ، وهو الأمر الذي أقرّه اتفاق باريس الموقّع في ١٨ كانون الأول – ديسمبر ١٩٢٣ . وقد ظلّت منطقة طنجة الدولية والمنطقة الإسبانية ، مثل المنطقة الفرنسيّة ، شكلاً تحت سيادة السلطان . وقد رأى المقيم العام الفرنسي (١٩١٢ – ١٩٢٥) المارشال ليوطي بثاقب نظره وحنكته أن يحتفظ للمؤسّسات التقليدية بوجودها وقوّتها ، وباتباع سياسة الإرضاء الناجحة ، مكّن للسلطان من أن يشمل حكمه ، في الواقع ، ولأوّل مرة البلادَ بأجمعها .

في أثناء ذلك قاد الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي ثورة في الشمال ضدّ إسبانية وأعلن سنة ١٩٢٢ قيام جمهورية امتدت إلى داخل المنطقة الفرنسية أيضاً سنة ١٩٢٥ ، ولم يمكن القضاء عليه إلاّ سنة ١٩٢٦ وذلك بحملة مشتركة مكوّنة من الفرنسيين والإسبان . هذه الأحداث ومحاولة الفرنسيين تأخير تعريب البَرْبَر وإثارتهم العناصر البربريّة ضدّ العناصر العربيّة ، نتج عنها حركة وطنيّة مغربية انتظمت سنة ١٩٣٧ في حزبين : الحزب الوطني بزعامة علاّل الفاسي ، وهو الذي تمخّض عنه حزب الاستقلال فيما بعد ، والحركة القوميّة التي كان يتزعمها محمد بن الحسن الوزاني . ولم يلبث أن قام على رأس الحركة الوطنيّة السلطان الشاب محمد بن يوسف الذي اختاره الفرنسيون عام ١٩٢٧ سيّداً للبلاد ، إذ إنّه بدا لهم سهل القياد . إلاّ أنّه كان يدرك متطلبات الزمن ، وكان ذا طموح سياسي ، على اتصال بالوطنيّين ، كذلك كان له لقاء مع الرئيس الأميركي

روزفلت في ٢٢ كانون الثاني – يناير ١٩٤٣ وكلها أمور قوّت من عزيمته . وقد طالب حزب الاستقلال سنة ١٩٤٤ ولأول مرة باستقلال المغرب باتفاق مسبق مع السلطان . ولمّا بدأ محمد بن يوسف يقاوم السياسة الفرنسيّة جنّد الفرنسيون فريقاً من العلماء ومن القبائل البربرية ضدّه واتخذوا من هذه الاضطرابات ذريعة لإقصائه عن العرش ونفيه خارج البلاد في ٢٠ آب – أغسطس ١٩٥٣ ، وولّوا مكانه محمد بن عرَفَة وهو علويّ أيضاً . إن إقصاء محمد بن يوسف عن العرش جعل منه رمزاً جذب الجماهير بقوّة إلى فكرة الوطنية . وحتّى العناصر البربرية لم تعد تبتعد عنها ؛ ولم تلبث هذه القبائل ، التي كان الفرنسيّون يستخدمونها أدوات ضدّ السلطان ، أن أخذت هي نفسُها تقوم بالاعتداءات الدامية ضدّ المستعمرات الفرنسية في سنة ١٩٥٥ . وقد اضطرّت فرنسة إلى التفاوض مع الزعماء الوطنيين ومع محمد بن يوسف . وفي ١٦ تشرين الثاني – نوفمبر ١٩٥٦ عاد إلى المغرب ظافراً . وفي ٢ آذار – مارس ١٩٥٦ لم تَمْنَح فرنسةُ المغربَ حكماً ذاتياً فقط ، بل استقلالاً تاماً . وفي ٧ نيسان – إبريل ١٩٥٦ تخلّت إسبانية أيضاً عن محميتها في شمال المغرب (باستثناء سبتة ومليلة ، وجزء من الساحل الغربي) ، وفي ٢٩ تشرين الأول – أكتوبر أعلنت الدول انتهاء الوضع الدولي لمنطقة طنجة .

بعد تحقيق الاستقـــلال ، أعلن محمد بن يوسف نفسه ملكاً باسم « محمد الخامس » ، وتسلّم مهام الحكم بنفسه ، ولمّا توفي فجأة في سنة ١٩٦١ خلفه على العرش ابنه الحسن الثاني ، وسار على خطة أبيه . ولا شكّ أنّ مكانة الملك القوية ، التي ترتكز إلى حد كبير على مركزه الدينّي التقليدي ، تقدّم جوّاً ملائماً لحل المشكلة الصعبة جداً في المغرب ألا وهي صهر السكان في دولة حديثة . وممّا يستحق أن يؤخذ بعين

الاعتبار هو أنّ القضيّة البربريّة، التي كانت تثير صعوبات خطيرة في السابق ، يبدو أنّها لم تعد تهدّد الدولة الآن ، هذا مع العلم بأنها لم تحلّ حلاً تاماً بعد. وبالنسبة للمستقبل فإن المشكلة الرئيسية هي التوصل إلى التعاون الضروري قطعاً مع النخبة المثقفة التي لم تعد تقبل شكل الحكومة الأبوي (المشيخي) . كان محمد الخامس قد أوجد مجلساً استشارياً من أعضاء معيّنين ، وفي سنة ١٩٦١ جرت الانتخابات العامة لأول مرّة . وقد وفّى الحسن الثاني بالوعد الذي قطعه أبوه في أن يمنح المغربُ دستوراً . غير أنّ ذلك لم يتمّ على يد مجلس منتخب ، بل على يد لجنة معيّنة تعييناً : وقد أعطى الدستور الجديد الملك سلطات واسعة . ولما وُضع الدستور أمام استفتاء شعبيّ في ٧ كانون الأول — ديسمبر ١٩٦٢ نال تأييد الأكثرية الساحقة . لكنّ الشباب الساعين نحو الإصلاح الإجتماعيّ والذين كانوا قد انفصلوا عن حزب الاستقلال سنة ١٩٥٩ وأنشأوا «الاتحاد الوطني للقوى الشعبيّة» لم يقبلوا بالدستور وقاطعوا الاستفتاء الشعبيّ ؛ وبعد ذلك بقليل نَشِبَ الخلاف أيضاً بين حزب الاستقلال ، الذي كاد أن يقتصر على العناصر المحافظة بزعامة علاّل الفاسي، وبين الملك . ومن ثمّ فقد أنشأ الملك حزبه الخاصّ الذي لم يتمكّن من انتزاع الأغلبيّة المطلقة في الانتخابات النيابيّة في ١٧ أيار — مايو ١٩٦٣ . وهكذا قامت توترات في السياسة الداخلية ، وهي توترات لا تساعد على تخفيف مشكلة التغلب على القضايا الاقتصادية والاجتماعيّة الكبيرة في المغرب .

* * *

باحتلال فرنسة للجزائر في سنة ١٨٣٠ بدأ الغرب بوضع العالم العربي تحت سلطانه السياسيّ . ولمّا اقتسمت الدول الأوروبية ، بعد الحرب

العالمية الأولى ، فيما بينها المناطق العربية التي كانت تابعة للإمبراطورية العثمانية ، لم يبقَ بلد عربي خارج التبعية المباشرة لأوروبا سوى المملكة العربية السعودية واليمن . ولكن في الوقت نفسه كانت قد انطلقت القدرات التي أدّى عملها أثناء بضعة من العقود إلى تغيير هذا الوضع. وكان الاحتكاك بالغرب العامل الرئيسي لانطلاق حركات التجـــديد ؛ وسيادة أوروبا السياسية أعطت لهذه الحركات هدفاً سياسياً رئيسيّـاً : الاستقلال . وقد قاومت الدولُ الأوروبيّة جهاد العرب في سبيل استقلالهم بعض الوقت ، ولكنّها بعد الحرب العالمية الثانية لم تعد في وضعٍ يمكّنها من ذلك ، وعندها حاولت أن تستعيض عن السيادة المباشرة ببسط نفوذها بأساليب ألطف : عن طريق دعم الحكومات ذات الاتجاه الودي نحوها ، وبواسطة ضمّ العرب إلى أحلافها السياسية . فمنذ سنة ١٩٥١ جرّبت بريطانية العظمى والولايات المتحدة وفرنسة وتركية خلق معاهدة دفاعيّة للشرق الأوسط . ولما فشلت هذه الخطة ، ضُمّت الدول الشمالية في المنطقة ، على الأقل ، في حلف بغداد سنة ١٩٥٥ ، وذلك لسدّ الثغرة القائمة في نظام الدفاع الغربي بين الحلف الأطلسيّ وحلف جنوب شرق آسية . لكن الدولة العربية الوحيدة التي انضمت إلى حلف بغداد ، أي العراق ، خرجت منه بعد ثورة ١٩٥٨ .

في أثناء ذلك تغيّرت ، بطبيعة الحال ، المُقْتَضياتُ الستراتيجية تغيّراً جذريّاً بسبب التطور الذي طرأ على تقنية السلاح ؛ ففي عصر القنبلة الذرّية والصواريخ العابرة القارات أصبح أيسر من ذي قبل على الدول الكبرى أن تتخلّى عن قواعد الدفاع في الشرق الاوسط وشمال إفريقية . على أنّه ظلّ للغرب في العالم العربيّ مصلحتان مهمتان : أن يضمَن لنفسه إنتاج آبار البترول . وأن يمنعَ الدول الشيوعية من جذب

العالم العربي إلى منطقة نفوذها . والاهتمام بالنفط هو الذي حمل بريطانية العظمى وفرنسة على القيام بالحملة المشؤومة على قناة السويس سنة ١٩٥٦ . وحري بالذكر أنّ هـــذا الاهتمام بالنفط كان مرتبطاً ارتباطاً عاطفياً بنفور من فكرة التخلّي عن أسلوب السياسة الاستعمارية القديمة. وبسبب الرغبة في الحيلولة دون قيام تطورات في الشرق الأدنى ، قد يصعب ضبطها فيما بعد ، أعلنت الولاياتُ المتحدة في سنة ١٩٥٧ «مبدأ ايزنهاور» وبموجبه تقدم الولايات المتحدة العون لأي دولة تتعرّض لاعتداء من الشيوعيين أو غيرهم ، أو حتّى لمحاولة انقلاب داخلية ، إذا طلبت تلك الدولة العون . وبسبب الرغبة ذاتّها نزل الجنود الاميركيون في لبنان وأُرسل الجنود البريطانيون إلى الأردن سنة ١٩٥٨ ؛ على أنّه ليس من المؤكد فيما إذا كانت هذه الإجراءات ضروريّة ، وإلى أي حد أسهمت فعلاً في حماية البلدين . فهناك ثورات عربيّة أخرى لم يمكن منعها . ولكن الاتحاد السوفييّ لم يتمكّن كذلك من تثبيت أقدامه في العالم العربي . والنيات التوسعية التي بدرت منه مباشرة بعد الحرب العالمية الثانية حال دون تحقيقها تدخل الولايات المتحدة الحاسم (مبدأ ترومان سنة ١٩٤٧) . وصفقة السلاح المعقودة مع مصر سنة ١٩٥٥ بدأت مرحلة دخلت عندها موسكو في السياسة العربية بأساليب وجدت الـــدول الغربية صعوبة في مواجهتها . ومع ذلك سرعان ما ظهر أن السياسة السوفييتيّة أيضاً وقعت في خلاف مع القوميّة العربية، وأن إمكانيات فعاليتها كانت محدودة كذلك . ومن الطبيعيّ أن تكون ثمة مؤثّرات ، في العالم العربي كما في بقيّة الدنيا ، تتخطّى الحدود الوطنيّة . ولكن بقدر ما يمكن أن يكون الاستقلال متحققاً ، فإن أغلبيّة الدول العربيّة هي اليوم مستقلة .

وعلى هذا فقد نشأ وضع تاريخيّ جديد : إنّ العرب أنفسهم هم

اليوم مسؤولون عن مصيرهم السياسيّ ، وعليهم الآن الاستفادة من الاستقلال لرسم صورة المستقبل . وليس هذا بأقلّ صعوبة عما كان عليه الأمر من قبل ، أي تَقَبُّل العرب أنهم في كل مجالٍ دون الغرب معرفة وأنهم كانوا من قبل تابعين له . إن مقدار ما ينقص العرب حتّى يعودوا إلى الوقوف مع التاريخ وقفة التجاوب الصحيح توضحه قبل كل شيء القضيتان التاليتان : قضية فلسطين ، وقضية تحديد : ما هي الأمة ؟

لا يمكن المرء أن ينكر أنّه في قضيّة فلسطين بالذات أصيب العرب بظلم كبير . فقد انتُزِع منهم قطعة من عالمهم في سبيل حلّ مشكلة لم يكن لهم يد في خلقها . يضاف إلى ذلك إدراكهم بفشلهم في الدفاع عن فلسطين حين كان ذلك ممكناً : في حرب ١٩٤٨ . وكلّما رنا إنسان عربي بنظره إلى فلسطين تجدّد في نفسه الشعور بالهزيمة . هذا يفسّر ، ولو بعضَ الشيء ، رفضَ العرب قبول الوجود الإسرائيلي ، أو جعل اللاجئين الفلسطينيين يستوطنون بلداً آخر ، وتمسُّكَهم بحالة الحرب ، وضَربهم على إسرائيل حصاراً اقتصادياً ، والمطالبة باستمرار في استعادة الوطن السليب ، حتّى ولو كان ذلك عن طريق حرب ثانية . ولذا يمكننا أن نعتبر قول زعيم عربي — كما فعل عبد الناصر — بإمكانية التفاوض مع العدو لأجل السلم وبشروط معيّنة — قبول إسرائيل بمشروع التقسيم على ما أقرّته الأمم المتحدة سنة ١٩٤٧ ، أو أن يُخيَّر اللاجئون العرب بين العودة إلى ديارهم والتعويض عن أملاكهم — خطوة إلى الأمام . ولا يمكن الوصول إلى اتفاق سلمي في هذا النزاع إلاّ في حالتين اثنتين : إذا فقد العرب اهتمامهم بفلسطين ، أو إذا بلغوا من الاطمئنان والثقة بالنفس درجةً كبيرة بحيث إنّ التفكير بالخسارة المرّة لن يثير هواجسهم .

والسؤال عن الأمّة مرتبط ارتباطاً وثيقاً بقضيّة فلسطين . ما هو

أصل اهتمام العرب بفلسطين ؟ لو أن شعوب الأقطار العربية المنفردة يكون كل منها أمة منفصلة ، فما كان مصير قطر منها ليثير الأقطار الأخرى إلى هذا الحد . لا ريب أنّه توجد في كل قطر عربي عواملُ تبرز له وجوداً منفصلاً عن غيره . من المؤكد مثلاً أنّه وبعد مرور مدة طويلة على نهاية الحرب العالميّة الأولى ظلّت أكثريّة الفئة الواعية سياسياً بين المصريّين لا تشعر بأنها عربيّة ، وحتى في دول عربيّة تاريخها أقصر بكثير من تاريخ مصر ، نجد مصالح محلية عميقة الجذور بل وطنيّة محليّة أو لِنَقُلْ ببساطة : قوميّة . ويبدو معقولاً أن يحاول المرء السيطرة على حياته داخل الحدود القائمة . على أنّه إلى جانب هذا توجد عواملُ تولد في العرب الشعور بانتماء بعضهم لبعض ، هي عوامل غالباً ما تكون لا عقلانية ، إلاّ أنّ هذا لا يجعلها أقلّ قوّة إن عصر الجامعة الإسلاميّة قد مضى منذ زمن ؛ وقد اتّضح هذا لمّا ثار العرب ضد السلطان الخليفة ، ولمّا ألغت تركيّة الحديثةُ الخلافة سنة ١٩٢٤ انتهت جميع المحاولات العربيّة لإحيائها إلى الفشل . في غضون ذلك كان الإسلام ، وهو دين الأكثريّة من العرب ، قد أمدّهم بالتطلع إلى ما أبعد من حدود بلادهم . وبالنسبة للمسلمين على الأقل فإن الماضي ، الذي يأملون أن يمدّهم بالقوة والعزم للحاضر والمستقبل ، هو عصرُ الازدهار أيام الدولة الإسلاميّة العربيّة الواحدة الشاملة . أضف إلى ذلك تأثير اللغة التي تربط بين جميع المثقفين العرب . وزيادة على ذلك فهناك عامل ذو أهميّة خاصة وهو الشعور بأن مصير العرب لا في التاريخ فحسب ، ولكن في الحاضر أيضاً ، هو مصير مشترك بينهم جميعاً ، وليس ثمّة ما يقوّي هذا الشعور أكثر من القضية الفلسطينيّة التي أخذت تشغل كلّ قطر عربي منذ ثلاثينات القرن العشرين . وهناك أيضاً اعتبارات واقعية تلعب دورها في محاولات العرب في سبيل وحدتهم :

السعي في الحصول ، بواسطة الوحدة ، على وزن أكبر مما يملكه كل قطر على حدة . والأمل الذي يراود الدول الفقيرة في أن تفيد ، عن طريق الوحدة، من ثَرْوة الدول التي حبتها الطبيعة بخيرات النفط .

وقد أدركت بريطانية العظمى ، أثناء الحرب العالمية الثانية ، قوة محاولات العرب في سبيل الوحدة فوضعت خطة لتقوية مركزها في العالم العربي ، على أساس تشجيع هذه المساعي . ففي ٢٢ آذار – مارس ١٩٤٥ وقّعت مصر والعراق وسورية ولبنان وشرق الأردن والمملكة العربيّة السعوديّة واليمن على «ميثاق جامعة الدول العربيّة» ، وانضمت إليها فيما بعد بقية الدول العربيّة ، حالما تستقل الواحدة منها . وجامعة الدول العربيّة رابطة دولية قراراتها تربط الدول الأعضاء التي توافق عليها فقط، إلا أنها تكوّن إطاراً صالحاً للتوفيق والتنسيق في الأمور السياسية والعسكريّة والثقافية ، وإمكان تهيئة الطريق إلى اتحاد أمتن . لكن حتى قبل أن تقوم للميثاق قائمة وطيدة بدت المصالح المتضاربة بين الدول الأعضاء ففيما رغبت مصر في أن يكون لها الدورُ القياديّ ، كانت الدولتان الهاشميتان تفضلان أن تزاح مصر جانباً ، وأن يزيد نفوذهما عن طريق اتحاد أقوى مع جيرانهما الصغار : سواء «كسوريا الكبرى» (شرق الأردن وسورية وفيما بعد لبنان وفلسطين) أو «كالهلال الخصيب» (العراق وسوريا الكبرى أو الصغرى) . وقد وقفت السعوديّة العربيّة ، بسبب العداء القديم مع الهاشميّين ، إلى جانب مصر في أول الأمر . والنزاع حول فلسطين في سنة ١٩٤٨ حمل دول الجامعة على القتال، لكنّه لم يَحْمِلهم على قبول قيادة موحدة للحرب ؛ والهزيمة التي تلت أدّت إلى اتهامات يرشق الواحد بها الآخر ، الأمر الذي زاد في حدة المنازعات . وقد عمّق هذه الخصومات أيضاً الانقلابات التي قامت في بعض الأقطار العربية ، والتي

حملت إلى السلطة فئات جديده لم تعد لها مصالح مشتركة مع الطبقات العليا المحافظة في أقطار أخرى . وعلى كلٍّ فإن الزعماء الجدد كذلك بسبب الغيرة الشخصيه، لم يتوصّلوا إلى الوحدة فيما بينهم . ومن ثمّ فإن الجامعة العربية كانت ، في كثير من الأحيان ، أقل منها رمزاً وأداة للوحدة من كونها ندوةً للفُرقة العربية .

ان خيبة الأمل بالجامعة لم يتبعها انصراف عن فكرة الوحدة ، بل على العكس من ذلك أدّت إلى تقوية النزعة الوحدويّة الراديكالية ، التي لم تكن لتقنع برابطة دوليّة . وقد كان دستور سوريا لسنة ١٩٥٠ الوثيقة الأولى التي نبّتت الفكرة الجديدة رسمياً ، وهي التي تقول بأن السعوب العربية ، أي السكان الذين يقطنون الأقطار العربيّة المختلفة ، هي أجزاء من الأمة العربية وأن هذه الشعوب لا بدّ لها من أن تتّحد ، إن عاجلاً أو آجلاً ، في دولة كبرى . في سنة ١٩٢٠ عبّرت القومية العربيّة عن نفسها لأول مرّة في خلق دولة في سوريّة . ولما جاءت قوى أجنبية ورسمت حدود الجمهورية السورية المصغّرة بطريقة تعسّفيّة ، لم يقبل السكان الواعون سياسياً نسبياً، هذا الأمر كشيء مسلّم به . ومن ثم ، فإنه بعد انتهاء السيادة الأجنبية ، كانت الجمهورية السورية قد أصبحت في مهبّ رياح المشاريع الوحدوية المختلفة التي عكّرت صفو الجامعة العربية ، والتي ساهمت أيضاً في زعزعة سورية بشكل أساسي من الداخل مرة بعد أخرى . فمن سورية خرج حزب البعث ، وهو أوّل حزب عربي حديث استعمل فكرة الدولة العربية الموحدة أساساً لنظام عقائده ، وجرّب أن ينشر فروعه في جميع الأقطار العربية كي تعمل على تحقيق هذه الدولة . وهذا هو الحزب الذي أخذ المبادرة سنة ١٩٥٨ لتوحيد سورية ومصر، وفي سنة ١٩٦٣ تطلّع إلى وحدة بين العراق وسورية . صحيح أن سورية

هي الّتي مزقت الوحدة مع مصر سنة ١٩٦١ ، والخصومة القائمة بين حزب البعث وعبد الناصر هي الّتي حالت دون التقارب بين سورية والعراق ومصر سنة ١٩٦٣ . ومن هنا يوضح لنا التاريخ السوري بنوع خاص كيف أن الصراع بين المثل الأعلى وقوة الواقع ، وبين التمسك بأهداف الوحدة والعجز عن تحقيقها يحرم العالم العربيّ من الهدوء .

من حيث المبدأ فإن القومية العربية تنادي اليوم بدمج جميع الأقطار من المحيط (الأطلسي) إلى الخليج (العربي) في الأمة ، وفي الواقع فحتّى دول المغرب تؤيد هذا المطلب ؛ فقد انضمت جميعها إلى جامعة الدول العربية . إلى جانب ذلك تقوم مساع لوحدة مغربيّة ، وهي الّتي نشأت عن جهاد التونسيين والجزائريين والمغاربة ضدّ سلطة أجنبيّة واحدة . ولمّا هرب الزعيم المغربي محمد بن عبد الكريم من الحراسة الفرنسية، وحّد في سنة ١٩٤٨ الذين كانوا في المنفى في القاهرة من ممثلي الحركات الوطنيّة في الأقطار الثلاثة في« لجنة تحرير المغرب العربي » . وفي سنة ١٩٥٨ عقد الحزبُ الدستوريّ الجديد التونسيّ وجبهة التحرير الوطنيّة الجزائرية وحزب الاستقلال المغربيُّ مؤتمراً في طنجة، وفيه تمّ القرار على تأسيس اتحاد مغربي وهو الذي وافق عليه إدريس ملك ليبيا . على أن هذا القرار لم يدخل حيز التنفيذ ؛ بل ظهرت الفروق بين الأنظمة السياسيّة والاجتماعيّة ، والتحاسد بين رجال السياسة ، والخلافات على الحدود ، فسببت ما يشبه الخصومات والخلافات الّتي تقوم بين دول الشرق العربي . واشترك كل من دول المغرب والسودان ، وكذلك مصر ، في محاولات وحدة القارة الإفريقية الّتي ليس لها أهداف بعيدة المدى مثل أهداف العرب ، وربما لهذا السبب بالذات توصّلت إلى نتائج أكثر فعالية .

يبدو أحياناً أن الصراع حول الوحدة يصرف انتباه العرب وجهودهم

عن القضايا الاجتماعية والفكريّة الكبرى ، وهي التي يتوجب عليهم أن يحلّوها كي يثبتوا وجودهم في العالم الحديث . إلاّ أننا قد أوضحنا كيف أن هذا الصراع مرتبط باهتمام العرب بأن يهتدوا إلى مكانهم الصحيح في التاريخ . وكذلك فثمة ارتباطات بين السعي للوحدة ومحاولات تطوير المجتمع تطويراً سليماً . كان اهتمام الوطنيّين الأوائل ، بطبيعة الحال، ينصرف إلى الاستقلال من الدولة الأجنبيّة أكثر مما ينصرف إلى شكل الحكومة والتحديث التقني والنمو الاقتصاديّ الذي كان سيؤدي إلى مجتمع الرفاهية . لكن في الانقلابات التي قامت في الأقطار العربيّة بعد الحرب العالميّة الثانية ، أصبح السخط الذي يبديه الجيل الجديد على تلك الأوضاع عاملاً حاسماً في النظر إلى القضايا . فسياسة عبد الناصر وبورقيبة ، وكذلك برامج ابن بلاّ وحزب البعث ، تتّصل اتصالاً وثيقاً بالإصلاح الاجتماعي . فعبد الناصر وحزب البعث ما كان يمكن أن يكون لهما هذه المكانة ولا هذا التأثير في العالم العربي لو أنّهما لم يعِدا بتطوّر اجتماعي بالإضافة إلى الاستقلال والوحدة . ففي نظر دوائر كثيرة من دوائر الشباب العربي يرتبط التقدم بالوحدة ، كما يرتبط التخلف بانقسام البلاد العربية إلى دويلات . ويتوقف مستقبل القومية العربية على مدى نجاحها في منع تعدد الأهداف من خلق الارتباك ومن عرقلة التطور .



من

١٩٦٠ – ١٩٧٣

د. سلوى الخماش

مقدّمة

يمكن اعتبار السنوات التي تلت نهاية الحرب العالمية الثانية وحتى أوائل الستينات فترة تحقيق واستكمال الاستقلال السياسي للعالم العربي باستثناء أطراف الجزيرة العربية التي تأخرت إلى نهاية الستينات . ورغم أن التناقضات المحلية في داخل المجتمعات العربية ذاتها كانت على درجة كبيرة من الحدة بحيث كان من الأجدى أن يواكب النضال الوطني نضال اجتماعي في إطار نظرة علمية بعيدة المدى من أجل تغيير واقع التخلف العربي على مستوياته الاقتصادية والاجتماعية والفكرية ، إلا أن قضية التحرر من الحكم الأجنبي طغت على القضايا الأخرى ، وكانت الشاغل الأول لمعظم الساسة العرب وكثير من المفكرين ، وكانت المحرك الوحيد تقريباً للجماهير العربية . وهكذا ما إن حصلت البلاد العربية على استقلالها السياسي حتى بدأ كل قطر بدوره يواجه تناقضاته ومشاكله المحلية والتي يزيدها تعقيداً تداخل المشاكل العربية بين قطر وآخر .

صحيح أن سلطات الاحتلال تركت وراءها مؤسسات إدارية متنوعة تستطيع الحكومة الوطنية أن تدير البلاد من خلالها ، إلا أن معظم الأقطار العربية كانت تفتقر إلى مؤسسات سياسية قوية ومتمرّسة ومرتبطة بمصالح الجماهير بحيث يمكن بها (المؤسسات) بناء تنظيم سياسي مستقر . أضف إلى ذلك أن الاستعمار قد ساهم مباشرة في خلق مشاكل سياسية داخل

القطر وبين الاقطار ذاتها استفحلت خطورتها بعد الاستقلال . ولأن الاستقلال جاء في كثير من الأحيان نتيجة لانحسار موجة الاستعمار المباشر بعد تقوّض الإمبراطورية البريطانية والفرنسية وظهور الولايات المتحدة الأمريكية وكتلة الدول الإشتراكية على المسرح العالمي ، فإن كثيراً من الأقطار العربية (باستثناء الجزائر وجنوب اليمن مثلاً) لم تخض حروباً وطنية قاسية تساعدها على الانصهار والتجانس والتخلص من المعوقات الذاتية وبالتالي تعجيل حركة التطور التاريخي باتجاه تقدمي تتماشى سرعته مع سرعة العصر وإلحاح المشاكل محلياً ودولياً . وإذا استثنينا الأحزاب اليسارية والتي كانت ضعيفة بطبيعة الحال ، فإن معظم الأحزاب العربية الأخرى التي نشأت في هذه الفترة (فترة تحقيق الاستقلال) ، وبالتالي الفكر السياسي العربي ، كانت تفتقر إلى وضوح الرؤيا السياسية والاقتصادية ، وينقصها تصور شامل لمشاكل المجتمع وكيفية حلها بما يتماشى مع روح العصر مستفيدة من التجارب المماثلة وخاصة في أوربا . ولهذا فقد كانت الفترة ما بين الاستقلال وحتى الوقت الحاضر في معظم بقاع العالم العربي فترة تجربة وخطأ وتفجر لصراعات محلية تحمل طابعاً سياسياً في الغالب وإن كانت لها جذور طبقية غير متبلورة تحاول فيها الطبقة البرجوازية بشرائحها السفلى أن تحتل مركز القيادة السياسية في العالم العربي .

وإذا استثنينا الكويت وربما تونس نجد أن جميع الأقطار العربية (بما فيها السعودية) شهدت منذ نهاية الخمسينات وحتى نهاية الستينات انتفاضات أو انقلاباً أو محاولة انقلاب على الأنظمة التي تسلمت الحكم من سلطة سابقة ، سواء كانت أجنبية أم وطنية والتي تنتمي في غالبيتها إلى بقايا الإقطاع أو الشرائح العليا من البرجوازية .

بحكم التركيب الاجتماعي للفئات التي تسلمت الحكم بعد الاستقلال

وانعدام التنظيمات السياسية الفعّالة ، وسيطرة العقلية العشائرية ، وتصور المستقبل من خلال الماضي ، ووجود مشاكل سياسية معلقة ومعقدة ، استأثرت الفئات الحاكمة بالسلطة مركّزة اهتمامها على خدمة مصالحها، وغير متجاوبة مع آمال ومطامح المواطنين الذين زاد وعيهم السياسي والطبقي نسبياً بفضل تطور المجتمع ذاته، وبتأثير التيارات الفكرية التقدمية التي يتزعمها سياسيون ومفكرون من البرجوازية الصغيرة . وفي غياب أساليب العمل الديمقراطية وانعدام وسائل التغيير عن طريق المؤسسات الدستورية الفعّالة ، أصبحت الجيوش العربية هي مركز القوة والتي تستطيع أن تفرض بالقوة شكل الحكم أو الإطاحة بالفئة الحاكمة . وهكذا كانت الستينات مسرحاً لعدد كبير من الانقلابات أو ما يشبهها ، كتعبير عن التوترات الداخلية والطموحات الشخصية أو الفئوية وانعدام الأرضية الفكرية المشتركة ، مضافاً إلى ذلك التوتر المستمر الذي تفرضه القضية الفلسطينية والعلاقات العربية الإسرائيلية خاصة في الدول القريبة من إسرائيل (سوريا ، الأردن ، لبنان ، مصر ، العراق) .

فمنذ أواسط الأربعينات ما زالت القضية الفلسطينية تلعب دور القضية المعلقة التي لا يستطاع حلها حسب الآمال والأماني العربية (بسبب تعقيد القضية وتداخل أطراف كثيرة فيها ونقص الإمكانيات العملية الواقعية وانعدام الرؤيا الموضوعية تجاهها) والتي لا يستطاع تجاوزها لكونها قائمة بالفعل (ممثلة بالشعب الفلسطيني الذي يبحث عن ذاته ومستقبله) ومرتبطة بعواطف الجماهير العربية التي لا تستطيع السلطة الحاكمة مواجهتها بما يصدم تلك العواطف ، وإن كانت تقدر على تجاهلها أو تهدئتها من حين إلى آخر .

كان تيار القومية العربية الذي بدا وكأنه سيجتاح المنطقة في الخمسينات

قد أعطى الأولوية للوحدة العربية كخطوة لتحرير فلسطين ، ساعد على ذلك حالة الهدوء على الحدود المصرية الإسرائيلية عقب حرب السويس سنة ١٩٥٦ . غير أن تشتت التيار الوحدوي وتعاظم قوة الجيش الإسرائيلي ومواظبة إسرائيل على تنفيذ مشروعاتها الخاصة بنهر الأردن وغيرها والتي تحمل تهديداً نسبياً للدول العربية المجاورة لها ، والشعور العام بخيبة الأمل لدى الشعب الفلسطيني للدرجة التي اتجه معها إلى تكوين منظمات قتالية «عصابية» لمهاجمة العدو الإسرائيلي ، كل هذا دفع بالقضية الفلسطينية والعلاقات العربية الإسرائيلية لأن تأخذ مكان الأولوية مرة ثانية . وبنشوب حرب حزيران سنة ١٩٦٧ تفجرت القضية مرة أخرى ليتسع نطاقها كنتيجة للهزيمة العربية واحتلال أجزاء مهمة من أراضي مصر وسوريا والأردن . وكشفت الهزيمة عن مواطن ضعف قاتلة في البنية العربية كانت تحجبها عن أعين الجماهير العربية وسائل إعلام ودعاية غير واقعية ولا موضوعية .

أدّت حرب حزيران إلى تداخل القضية الفلسطينية «بآثار العدوان» . وأتاحت الحرب للمقاومة الفلسطينية أن تنمو وتتقوى لفترة قصيرة استردت فيها الدول العربية أنفاسها لتعود مرة أخرى تبحث عن طريق للخروج . ولا تزال المنطقة المحيطة بإسرائيل يتحكم في سير الأحداث فيها إلى حد كبير نتائج حرب حزيران . ومن الصعب التكهن بما سيحمله المستقبل ، وإن كانت الدلائل تشير إلى أن العلاقات العربية الإسرائيلية ستكون عاملاً رئيسياً في أحداث السبعينات .

* * *

مصـــر

لم يكن العقد السابع من هذا القرن أقل غنى بالأحداث الهامة في مصر من العقد الذي سبقه . فعلى المدى البعيد يمكن اعتبار الستينات الفترة الحرجة التي وضعت الثورة المصرية محل اختبار على المستوى المحلي والعربي والدولي . ففي عام ١٩٦٠ اشتد التوتر بين إقليمي الجمهورية العربية المتحدة واستقال كثير من السياسيين والضباط السوريين الذين ساهموا في إنشاء الوحدة مع مصر . ونشطت القوى اليمينية مستغلة الأخطاء التي ارتكبتها القيادة السياسية ، وتذمر الضباط وأصحاب رؤوس الأموال والتجار السوريون الذين تضرروا بقرارات التأميم . فتفجر الوضع عام ١٩٦١ بانفصال سوريا وإعلانها دولة مستقلة ، وبطبيعة الحال منتهجة خطاً عدائياً ضد مصر . وفي اللحظة الحرجة وجد عبد الناصر نفسه غير قادر على أو غير راغب في استعمال القوة للمحافظة على وحدة الدولة ، وبذلك واجه أول هزيمة سياسية كبرى تركت في نفسه وفي نفس كثير من معاونيه مرارة دفعته إلى مراجعة مواقفه السياسية محلياً وعربياً للبحث عن أسلوب عمل جديد . فدعا إلى مؤتمر وطني لتحضير ميثاق عمل وطني يضع الخطوط الرئيسية للبنيان السياسي للبلاد ، ويحدد بشكل ما المفاهيم التي تستند إليها سياسة الدولة فكرياً واجتماعياً واقتصادياً . وصدر الميثاق الوطني في عام ١٩٦٢ (٣٠،٠٠٠ كلمة) معلناً أن مصر ستأخذ بالاشتراكية مع إيمان بالقيم الروحية التي جاء بها الإسلام ، وستأخذ بنظام الحزب الواحد الذي يمثله الاتحاد الاشتراكي العربي والذي حل محل الاتحاد القومي .

وفي الواقع فإن المنهج الاقتصادي الذي رسمه الميثاق يمكن تسميته بمنهاج التطور غير الرأسمالي ، وإن كان يحمل بعضاً من المسحات الماركسية سواء في فلسفته أو في إجراءاته . وبالنسبة لحزب الاتحاد الاشتراكي العربي فمن الصعب أن يسمى حزباً بالمفهوم التقليدي للحزب ، إذ يمكن اعتباره تجميعاً لعدد كبير من المواطنين ، من بينهم عدد كبير من موظفي الشركات والحكومة الذين تجمع بينهم رغبة من نوع ما للعمل السياسي . ومع أن الهدف المعلن للاتحاد الاشتراكي هو إشراك الجماهير على مختلف المستويات بتسيير شؤون البلاد ورسم سياستها إلاّ أن مثل هذا الجسم الضخم في بلد غير متطور سياسياً ، ولا تتوفر لديه إيديولوجية واضحة ، ويسوده التخلف الاقتصادي والاجتماعي ، مثل هذا الجسم يكون بطبيعة الحال عاجزاً عن الحركة المنتجة . وقد أدرك عبد الناصر هذا الأمر فيما بعد وحاول إنشاء تنظيم سري داخل الاتحاد الاشتراكي يعتمد على طلائع واعية عرف باسم « التنظيم الطليعي » . واستمراراً في خلق المؤسسات الدستورية أجريت الانتخابات عام ١٩٦٣ لتشكيل مجلس الأمة الذي تكوّن من ٧٥٠ عضواً ، نصفهم من العمال والفلاحين والنصف الثاني من المثقفين والموظفين والرأسمالية الوطنية . غير أن عدم تحديد من هو الفلاح ومن هو العامل بصورة دقيقة وحسب مفهوم طبقي محدد ، أتاح لكثير من كبار المزارعين ومديري الشركات دخول مجلس الأمة باسم العمال والفلاحين . وفي الواقع فإن سلطة مجلس الأمة كانت محدودة تماماً وغالباً ما كان يوافق على القرارات والمشاريع التي تتخذها اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي العربي .

أما على الصعيد العربي فقد اتخذت مصر موقفاً متشدداً من الدول « الرجعية » وخاصة الأردن والسعودية ، انطلاقاً من الفكرة القائلة بأن

مهادنة الرجعية لا يمكن أن تؤدي إلاّ إلى مزيد من الهزائم للقوى الثورية العربية . وهكذا حين أطاح السلال بالإمام البدر وأعلن قيام الجمهورية العربية اليمنية وطلب مساعدة مصر ، سارعت هذه إلى نجدته بالسلاح والجنود بالإضافة إلى المستشارين والخبراء . وكانت تجربة اليمن قاسية بالنسبة لمصر إذ ازداد تورطها هناك بسبب الدعم السعودي للملكيين (الإمام البدر وأتباعه) ووصل عدد القوات المصرية إلى حوالي ٧٠،٠٠٠ جندي . وبسبب طبيعة البلاد الوعرة ، وتقلب القبائل اليمنية في ولائها ، وافتقار الجمهوريين إلى قاعدة سياسية وعسكرية محلية ، وقلة خبرة المصريين في حرب العصابات ثم اعتبار السعودية أن انتصار الجمهوريين يشكل انتصاراً لمصر وبالتالي خطراً على النظام السعودي نفسه ، لهذا كله انقضت خمس سنوات من عام ١٩٦٢ – ١٩٦٧ دون أن تستطيع القوات المصرية إحراز نصر نهائي لصالح الجمهوريين . هذا لا ينفي طبعاً أهمية الدعم المصري الذي مكّن الجمهوريين من الاستمرار حتّى استطاعوا بعد انسحاب المصريين تحقيق نصرهم الحاسم .

بالنسبة لسوريا والعراق وتونس ، فقد تأرجحت العلاقة بين التودد والعداء . وجرت محاولات لإقامة نوع جديد من الوحدة أو الاتحاد بين سوريا والعراق ومصر أو بين العراق ومصر ، إلاّ أن مثل هذه المحاولات لم تحقق أي نجاح لنقص الأسس الموضوعية التي ترتكز عليها .

في عام ١٩٦٤ حصل تغير مفاجىء في السياسة المصرية العربية ، إذ دعت مصر إلى عقد مؤتمر قمة عربي تشترك فيه الدول العربية جميعها بغض النظر عن كونها تحررية أو رجعية . وكان الهدف هو وضع خطة عربية شاملة بعيدة المدى لمواجهة إسرائيل في المجال العسكري وردّ على مشروعاتها الرامية إلى تحويل مجرى نهر الأردن بمشروعات عربية مضادة .

ولقد أسفر الاجتماع عن عدة قرارات وتوصيات وتشكيل لجان مختلفة ، إلاّ أنّه في حقيقة الأمر وبسبب عدم الثقة المتبادلة ، ولاختلاف الانتماءات والولاءات السياسية وافتقار جميع الدول المشتركة إلى مؤسسات ديمقراطية تشترك فيها الجماهير التي سيقع على كاهلها عبء تنفيذ مثل هذه المخططات البعيدة المدى ، لم يتبلور عن تلك الاجتماعات أية انجازات عملية إيجابية . وحين حاولت الدول العربية البدء في مشروع مضاد لمشروع تحويل مجرى نهر الأردن ، قامت الطائرات الإسرائيلية بضرب المنشآت العربية عام ١٩٦٥ . وتكررت اجتماعات الرؤساء والملوك ، إلاّ أن الخلاف والخصام سرعان ما دبّ بينهم بسبب النزاع بين الملك حسين والشقيري من جهة والسعودية ومصر من جهة أخرى وموقف تونس من جهة ثالثة ، ثم عدم ثبات النظامَيْن السوري والعراقي ، وربما لسبب رئيسي آخر هو عدم تفهم بعض الزعماء للواقع العربي الإسرائيلي . وعادت حرب الدعاية بين المعسكر الرجعي والمعسكر التحرري العربيَيْن إلى سابق عهده . وحمل عام ١٩٦٧ توتراً في العلاقات العربية الإسرائيلية تصاعد تدريجياً . وكانت التهديدات الإسرائيلية موجهة في البداية إلى سوريا واضطرت مصر بموجب اتفاقية الدفاع المشترك إلى مساندة سوريا . وبدأ شبح الحرب يخيّم على المنطقة ، فطلبت مصر من الأمم المتحدة سحب قواتها من شرم الشيخ ومضائق تيران ، واستجاب يوثانت لهذا الطلب بسرعة وأمر بسحب كامل القوات الدولية مما اضطر القوات المصرية إلى أخذ مواقع القوات المنسحبة . وأعلنت القيادة تلغيم المضائق وبدأت القوات المصرية تحتشد في سيناء . وهنا تغير الموقف العربي : أعلنت الدول العربية تأييدها لمصر ، وعقدت إتفاقيات دفاع مشتركة أو أحيتها مع الأردن والعراق ، ووصلت قوات رمزية عربية إلى مصر . وما إن أشرف

شهر أيار – مايو – على الانتهاء حتى أصبح الصدام بين إسرائيل ومصر مؤكداً . فإن إسرائيل اعتبرت الاجراءات المصرية بمثابة إعلان الحرب واتخذت القيادة الإسرائيلية قرارها .

ليس هناك شك بأن القيادة المصرية لم تكن بالفعل تنوي مهاجمة إسرائيل ، غير أن الدعاية العربية الخاطئة كانت توحي بذلك مما جعل القيادة أسيرة لدعايتها وارتفعت توقعات الجماهير العربية . وانتشرت حمى الحرب تغذيها العاطفة العربية التقليدية والجهل بواقع القوى المتصارعة . ويبدو أن القيادة المصرية أدركت بعد فوات الأوان أنها انزلقت في الحفرة التي كانت تتجنبها منذ عام ١٩٥٢ . فقامت بمحاولات سياسية لتخفيف حدة المواقف وأجرت اتصالات مع الولايات المتحدة للتوسط ، وأعلنت عن استعدادها للسماح للسفن التي لا تحمل مواد حربية بعبور مضائق تيران إلى العقبة . ولكن القرار الإسرائيلي بالهجوم كان نهائياً رغم الستار الدبلوماسي البارع الذي كان يختفي وراءه القرار حتى تحين اللحظة المناسبة . وفي صباح ٥ حزيران – يونيو – تمكن الطيران الإسرائيلي من تحطيم القوة الجوية المصرية في الساعات الأولى للحرب ، وبذلك تقررت نهاية حرب الأيام الستة في الساعات الثلاث الأولى ، واجتاحت القوات الإسرائيلية قطاع غزة ، وسيناء حتى قناة السويس التي تعطلت عن العمل . وخسرت القوات المصرية ٨٠ ٪ من سلاحها .

لا شك أن حرب عام ١٩٦٧ بحاجة إلى دراسة كاملة ودقيقة حتى تتضح جميع تفاصيلها والتي ما زال بعضها مجهولاً حتى الآن . وأوقف القتال رسمياً بقرار من مجلس الأمن وافقت عليه مصر وإسرائيل بالإضافة إلى سوريا والأردن رغم اعتراض الجزائر على ذلك . وهكذا وجد عبد الناصر نفسه في موقف لا يحسد عليه وأعلن تقديم استقالته من منصبه وإسناد منصب رئاسة الجمهورية إلى زميله زكريا محي الدين نائب رئيس

الجمهورية . وإنه من الصعب إعطاء حكم قاطع فيما إذا كانت استقالة الرئيس جمال عبد الناصر حركة سياسية بارعة لكسب عطف الجماهير التي انتابتها حالة من الذهول واليأس وعدم التصديق أو شعوره فعلاً بأن دوره قد انتهى . المهم أن مظاهرات ضخمة خرجت في ٩ و ١٠ يوليو — تموز ، تطالب الرئيس بالتخلي عن قراره ومواصلة مهمته القيادية حتى تتحرر الأرض التي احتلها العدو . وكان أن رجع عن قراره السابق ليبدأ مرحلة جديدة هي إعادة بناء الجيش وتسليحه و « إزالة آثار العدوان » .

كان لحرب حزيران ١٩٦٧ أثر كبير في الوضع الداخلي في مصر بالإضافة إلى النتائج السياسية والعسكرية التي ترتبت عليها ، إذ كشف النقاب عن نزاعات وخصومات في القيادة المصرية ذاتها تعود إلى عدة أعوام خلت . واتضح أن عدداً كبيراً من ضباط الجيش كانوا يتزعمون مراكز قوى مضادة لعبد الناصر ومن بينهم صديقه والقائد العام للقوات المسلحة ، المشير عبد الحكيم عامر والذي اتهم بتدبير محاولة انقلابية (فرض نفسه بالقوة على قيادة الجيش بعد أن أقصاه عبد الناصر عنها) . ومع أن انتحار المشير ساعد عبد الناصر على اجتياز موقف حرج إلا أنه لا دلائل مؤكدة هناك فيما إذا كان انتحاره بسبب خلافه مع عبد الناصر أو بسبب فشله في الحرب وتحمله مسؤولية هذا الفشل ، الأمر الذي لم يحدث في أي بلد عربي آخر إثر هزيمة كهزيمة حزيران . وجرت محاكمات لعدد من الضباط والقياديين الذين اتهموا إما بالتآمر أو بتسببهم في الهزيمة لإهمالهم رغم تحذير الرئيس لهم وحتى إخبارهم بموعد الضربة الإسرائيلية المتوقعة . وكشفت هذه المحاكمات عن الإهمال والفساد والتكتلات المصلحية وكذلك عن الفوضى السائدة في قيادة الجيش . واستطاع عبد الناصر في فترة وجيزة أن يستعيد مكانته السياسية في مصر .

ساعد على ذلك بشكل أساسي تقديم الاتحاد السوفييتي كافة المعونات التي كانت مصر بأشد الحاجة إليها ، خاصة المواد العسكرية . وقدم الخبراء السوفييت لإعادة بناء الجيش المصري الذي أجريت تغيرات كبيرة في قيادته . وساعد عبد الناصر في موتنه الحرج هذا أن الهزيمة كانت عامة شملت سوريا والأردن والعراق بصورة غير مباشرة . وكان ذهول العرب بشكل عام أقوى من أن يسمح لهم بالبحث عن الأسباب وتحديد المسؤوليات . وتسارعت الدول العربية بصورة عامة للاجتماع وتدارس الموقف فكان مؤتمر الخرطوم سنة ١٩٦٧ الذي أنهيت بموجبه رسمياً الخلافات المصرية العربية وخاصة السعودية . فتم الاتفاق على سحب القوات المصرية من اليمن ، وعلى تقديم المعونات المالية لكل من مصر وسوريا والأردن ، يساهم في دفعها كل من الكويت والسعودية وليبيا .

كانت التوقعات السائدة لدى الجماهير وبسبب أجهزة الدعاية أيضاً أن الحرب ستستأنف بعد فترة وجيزة لاستعادة الأراضي المحتلة . غير أن الموقف كان وما زال أعقد من ذلك بكثير ، وقبلت مصر بقرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ الداعي إلى انسحاب القوات الإسرائيلية إلى حدود ما قبل الحرب تقريباً مقابل الاعتراف بها رسمياً من قبل الدول العربية والسماح لها باستخدام الممرات المائية وإقامة سلام دائم في المنطقة . وعين جنار يارنج كوسيط بين الأطراف المعنيّة . وبعد فترة هدوء تجدد القتال في منطقة السويس على صورة اشتباكات محدودة من الطرفين . إلا أن « حرب الإستنزاف » انتهت في عام ١٩٧٠ حين أخذت الطائرات الإسرائيلية تضرب في أعماق مصر . وفي نفس الوقت تتعرض لهجمات مضادة من أسلحة الدفاع الحديثة التي مد بها الاتحاد السوفييتي مصر . وهكذا بدأت مرحلة جديدة هي التأرجح بين حل سلمي تقبل به الأطراف المعنيّة وتساعد على

تحقيقه الدول الكبرى وبين آمال ووعود بحل عسكري يحسم الموقف .
على الصعيد الدولي فقد اتهمت مصر كلاً من الولايات المتحدة وبريطانيا وألمانيا الغربية بمساعدة إسرائيل في عدوان ١٩٦٧ مما ادى إلى توتر العلاقات بينها وبين هذه الدول . واستطاع ديجول أن يكسب عطف الدول العربية بسهولة حين أعلن إيقاف صفقة طائرات الميراج لإسرائيل .
أما الدول الاشتراكية فقد قدمت مختلف أنواع الدعم خاصة في المجالين العسكري والسياسي ، إلاّ أن مطالب مصر من الاسلحة الحديثة المتقدمة كانت في زيادة مستمرة متأثرة بقوائم الأسلحة التي كانت تزود أمريكا بها إسرائيل . واشتد إلحاح المصريين على الحصول على أسلحة هجومية يبدوا أن الاتحاد السوفييتي لم يكن مقتنعاً بضرورتها لمصر أو بأهلية الجيش المصري لاستعمالها أو ربما تجنباً لمغامرة عسكرية أخرى تتيح لإسرائيل وبالتالي لأمريكا الاستيلاء على أحدث ما أنتجته المصانع السوفييتية . يضاف إلى ذلك عدم رغبة الاتحاد السوفييتي بدخول مواجهة مسلحة مع أمريكا في منطقة الشرق الأوسط قد تنتج بسبب هجوم مصري على إسرائيل . فكان أن أعلن الرئيس أنور السادات قراره في يوليو ١٩٧٢ بإخراج جميع الخبراء والمستشارين السوفييت . ويبدوا أن معاهدة الصداقة السوفييتية المصرية التي وقعها السادات في عام ١٩٧١ مع الرئيس (بدچورني) لم تكن كافية لحمل السادات على اتخاذ أسلوب أكثر ودية فيحل المشكلات السوفييتية المصرية .
وعادت القيادة السياسية المصرية تبحث من جديد عن خطة عمل وهي فاقدة لكثير من المعطيات الأساسية . فبخروج الخبراء السوفييت وبالتالي برود العلاقة السوفييتية المصرية ، وتصميم الملك حسين في الأردن على البحث عن حل لقضية الصراع العربي الإسرائيلي بالشكل الذي يراه ، وباضمحلال دور المقاومة الفلسطينية في المنطقة ، وتمسك أمريكا بموقفها التقليدي تجاه

إسرائيل وعدم استعداد هذه تقديم أي تنازلات هامة مقابل الاعتراف بها والتعامل معها ، وانعدام مخطط عملي واضح المعالم للخروج من الازمة الحالية ، يبدو أن الطريق لإزالة آثار العدوان ما زالت غامضة .

أما على المستوى الجماهيري فإن القيادة السياسية اتخذت إجراءاتها التي أوصلت البلاد إلى الحرب دون أن تكون تلك الجماهير مدركة لمدلول تلك الاجراءات ودون أن تعلم عن دورها في حالة نشوب الحرب ودون أن يكون لديها تصور واقعي عن الحروب الحديثة . وأدت خيبة الأمل التي أعقبت الحرب إلى تفشي حالة من التذمر بين صفوف الجماهير وخاصة العمال والطلبة الذين خرجوا في مظاهرات مطالبين الحكومة باتخاذ إجراءات عملية كفيلة بإعداد البلاد المواجهة لإسرائيل في جولة أخرى . وبغض النظر عن واقعية تلك المطالب في تلك الفترة ، ووضوح الرؤيا لدى المطالبين بها إلا أنها وضعت الحكومة في موقف حرج اضطرت إزاءه إلى استعمال القوة ضد المتظاهرين . وفي ٣١ مارس ١٩٦٨ أصدرت الحكومة المصرية بياناً عرف باسم « بيان ٣١ مارس » يتضمن ما يشبه برنامج عمل يهدف إلى إعداد البلاد سياسياً وتنظيمياً وجماهيرياً لإزالة آثار العدوان . وأجريت تغييرات (فوقية) قصد منها تهدئة الرأي العام ، إلا أن تغييراً جذرياً في البنية السياسية أو التنظيمية وخاصة على مستوى الجماهير لم يحدث . ولقـــد هيأ الانقلاب الذي قام به العقيد معمر القذافي على النظام السنوسي في ليبيا ، ١ سبتمبر — ايلول — ١٩٦٩ متنفساً جديداً للقيادة المصرية في المجال العربي ، إذ ظهر أن زعيم الانقلاب الليبي ناصري ، محب لمصر وللوحدة العربية . فدعا عبد الناصر إلى إقامة نوع من الاتحاد بين البلدين ، فكان ميثاق طرابلس ١٩٧٠ كخطوة أولى على طريق الوحدة بين البلدين . وفي نفس الوقت قدمت ليبيا مساعدات اقتصادية لمصر وأمدتها هذه بالخبراء والمدرسين وغير ذلك مما

تحتاجه دولة تتوفر لديها الأموال الضخمة وتنقصها الخبرات الفنية في كل المجالات .

وفي ٢٨ سبتمبر عام ١٩٧٠ توفي جمال عبد الناصر تاركاً فراغاً سياسياً في القيادة المصرية جرى التنافس على ملئه بين علي صبري وأنور السادات وهما الشخصيتان القويتان في البلاد ، وأصبح الأخير رئيساً للجمهورية وتمكن من القضاء على خصومه ومنهم بالإضافة إلى عـلي صبري شعراوي جمعة وزير الداخلية ، ومحمد فوزي وزير الحربية حيث قدموا للمحاكمة بتهمة التآمر على نظام الحكم .

لقد كانت شخصية عبد الناصر سواء في المجال المصري أو العربي أو الدولي طاغية على معاونيه ومن بينهم الرئيس السادات نفسه والذي حاول أن يعطي عهده مظهر الانفتاح والليبرالية التي لم تكن متوفرة في عهد سلفه . فعيّن كثيراً من الشخصيات ذات الميول الوسطية واليمينية في مناصب هامة متعددة . وكان يؤكّد في كل مرة يواجه فيها الجمهور أنه يعمل على القضاء على مراكز القوى ، وأن السلطة والسيادة للقانون فقط . وقد حاول السادات تحسين علاقته مع كل الدول العربية دون استثناء بما في ذلك الأردن ، وإن كانت علاقته بها تتعرض لتأرجحات مستمرة ، كما يعمل على كسب صداقة دول أوربا الغربية خاصة بعد طرد الخبراء السوفييت لإيجاد حل لمشاكل حرب حزيران . أما موقفه من أمريكا فرغم الهجوم الدعائي العلني المستمر يبدو أن السادات يعتقد بإمكانية التفاهم مع أمريكا بصورة أو بأخرى لتضغط بدورها على إسرائيل لتنسحب هذه من الأراضي التي احتلتها .

إن إصرار العقيد القذافي على تحقيق الوحدة العربية لم يضعف بعد موت عبد الناصر ، بل ازداد إصراراً واندفع يطالب مصر وسوريا والسودان بتنفيذ الخطوة التالية وهي إقامة نوع من الاتحاد بينها وأعلن اتحاد الجمهوريات

العربية فعلاً ، ولم تنضم إليه السودان بسبب مشاكلها الداخلية . وأعلن عن تشكيل عدة مؤسسات دستورية مؤقتة لتطبيق القوانين الخاصة باستكمال الاتحاد لمقومات بنائه . وألحّ القذافي على السادات بتحقيق وحدة اندماجية بين القطرين مصر وليبيا ، في الوقت الذي يحاول السادات تأجيل تنفيذ الفكرة بسبب مشاكل مصر الخاصة من جهة وحرص السادات أن لا يتورط في موقف لا يسيطر عليه تماماً مستفيداً بشكل أو بآخر من محاولة توحيد سوريا ومصر في السابق . إلا أنه وافق أخيراً على طلب القذافي وحدد سبتمبر عام ١٩٧٣ ليكون موعد قيام الدولة الموحّدة . وهكذا في الوقت الذي ما تزال المشاكل الأساسية في مصر ذاتها – مشاكل التنمية والمؤسسات الدستورية والنظام السياسي – تنقصها الحلول المناسبة ، وفي الوقت الذي ما تزال مشكلة الاحتلال الإسرائيلي وغلق قناة السويس مجهولة المستقبل ، يبدو أن النظام المصري مقبل على مرحلة جديدة من الصعب التأكد فيما إذا كانت ستساعده على مواجهة الصعوبات الضخمة التي لم يتمكّن عبد الناصر من التغلب عليها .

سوريا

بعد ثلاث سنوات على قيام الوحدة بين مصر وسوريا تخللتها توترات وخلافات متنوّعة ، استولت جماعة من الضباط السوريين على السلطة وأعلنت إنهاء الوحدة بين البلدين وقيام الجمهورية العربية السورية عام ١٩٦١ . وتتميز الفترة بين الانفصال واستيلاء حافظ الأسد على السلطة في ١٦ أكتوبر – تشرين الأول ١٩٧٠ بعدم الاستقرار السياسي وتعدّد الانقلابات

أو محاولات الانقلاب العسكرية والتغيرات المستمرة في الحكومة وفي ضباط الجيش بحيث أصبحت جزءاً لا يتجزّأ من حياة سوريا السياسية . ومع أن ضباط الانقلاب في عام ١٩٦١ سلموا السلطة إلى السياسيين التقليديين الذين اتجهوا بطبيعة الحال إلى تحسين علاقاتهم مع الأردن والسعودية والدول الغربية ، إلاّ أن حكمهم لم يدم طويلاً ، إذ قام انقلاب في ٨ مارس – آذار ١٩٦٣ يتزعمه مجموعة من الضباط البعثيين أو الموالين لحزب البعث وشكلوا حكومة جديدة ومجلساً للثورة برئاسة أمين الحافظ . وقد بدأ عهد أمين الحافظ وكأنه فاتحة لعهد من الاستقرار السياسي نظراً لانتهاجه خطاً وسطاً بين أجنحة البعث ومحاولته إعادة العلاقات مع مصر إلى طبيعتها ، وإشراك عدد أكبر من السياسيين في إدارة البلاد عن طريق المجلس الوطني للقيادة الثورية المؤلّف من ٩٥ عضواً برئاسته . إلاّ أن انقلاباً آخر قام به ضباط بعثيون ذوو اتجاهات شبه يسارية في فبراير – شباط ١٩٦٦ أطاحوا فيه بالحافظ ، وبذلك بدأت سلسلة من المحاولات غير الناجحة في تشكيل وزارة قوية تستطيع أن تمارس سياستها دون أن تكون تحت رحمة الجيش . وتولّى نور الدين الأتاسي رئاسة الدولة ، غير أن الصراع بين أجنحة حزب البعث وضباط الجيش لم ينته . وجرت عدة مؤامرات اتّهم فيها ميشيل عفلق وصلاح البيطار من السياسيين وسليم حاطوم من العسكريين وغيرهم . وبرز اسم صلاح جديد كالرجل القوي في سوريا حيث كان يتولى أمانة القيادة القطرية للحزب . وكان يوسف زعيّن وإبراهيم ماخوس وهما من البعثيين الشبان يؤيدان اتجاه البعث الجديد ، وكان حافظ الأسد وزير الدفاع يقود الجناح المضاد . وقد ادّى انتهاج الحكومة السورية ، حين كان يسيطر جناح صلاح جديد على السلطة ، سياسة متشددة في مجال العلاقات السورية الإسرائيلية ، وتأييد الفدائيين الفلسطينيين وانطلاقهم من الأراضي السورية إلى تصعيد

النزاع الإسرائيلي العربي مما جعل حكومة اشكول تهدد في أوائل عام ١٩٦٧ باحتلال دمشق . وبموجب اتفاقية الدفاع المشترك بين مصر وسوريا ، فقد أعلنت مصر استعدادها للدفاع عن سوريا . وتلا ذلك سلسلة الأحداث التي أدت إلى حرب ٥ حزيران عام ١٩٦٧ والتي كان من نتيجتها احتلال مرتفعات الجولان وسقوط الجبهة السورية والتي كانت شديدة التحصين من ناحية ومصدر إزعاج كبير لإسرائيل من ناحية أخرى . وحين صدر قرار مجلس الأمن لعام ١٩٦٧ ، رقم ٢٤٢ لم تعترف سوريا بالقرار وظلت تعلن عن رفضها لأي حل سلمي للمشكلة منادية بحرب التحرير الشعبية والتي يشك في استعداد البلاد لخوضها . ومع هذا فإن الصراع الداخلي بين مراكز القوى في الجيش والحزب استمر ووصل إلى ذروته في عام ١٩٧٠ وخاصة بعد أحداث أيلول في الأردن والتي يقال بأن قوات سورية اشتركت فيها . وفي أكتوبر — تشرين الاول ١٩٧٠ استولى حافظ الأسد على السلطة وأقصى خصومه مثل الأتاسي وصلاح جديد وغيرهما . وتولى رئاسة الحكومة وانتهج سياسة أقل تطرفاً ونال تأييد مصر وليبيا التي سريعاً ما قدمت له قروضاً بمبلغ ٣٠ مليون دولار ، حمل العقيد القذافي نصفها اليه حين زار سوريا في أواخر العام المذكور .

كانت سياسة الأسد ترتكز على التخفيف من الإجراءات الاشتراكية التي حاولت الحكومة السابقة تطبيقها ، وتحسين علاقته مع الدول العربية ومنها الأردن والسعودية . وبالنسبة لإسرائيـــل اقتفى أثر السياسة المصرية على أمل أن أية تسوية للمشكلة العربية الإسرائيلية ستحمل ضمناً استعادة المرتفعات السورية . وانضم الأسد إلى ميثاق طرابلس الذي اشتركت فيه مصر وليبيا والسودان . ثم دخلت سوريا عام ١٩٧١ طرفاً ثالثاً في اتحاد الجمهوريات العربية مع مصر وليبيا . كما أن العلاقات السورية

العراقية تحسنت بعد سنوات من القطيعة والإتهامات المتبادلة .

لم تكن مثل هذه الظروف لتسمح بتطوير الاقتصاد السوري بالكم والكيف المطلوبين ، خاصة وإن نفقات الدفاع تصل إلى أكثر من ٦٠ ٪ من الميزانية . وتعتمد سوريا في مشاريعها الهامة كمشروع سد الفرات مثلاً على المساعدات والقروض والخبرة الفنية من الدول الاشتراكية وخاصة الاتحاد السوفييتي وألمانيا الشرقية وبولندا . وقد خاضت الحكومات السورية المتعاقبة حرب مفاوضات طويلة مع شركة التابلاين وشركة نفط العراق لزيادة العائدات من عبور أنابيب البترول خلال أراضيها . وتعرّضت خطوط الأنابيب تارة للتهديد بالقفل وتارة بالقفل وتارة بالنسف . وقد حققت سوريا بعض مطالبها في زيادة العائدات ، كما أنها أممت خط شركة نفط العراق بعد تأميم العراق لممتلكات الشركة عام ١٩٧٢. وقد نجحت سوريا في استخراج البترول من أحد حقولها في الجزيرة بالاعتماد على الخبرة السورية والمعونة السوفييتية ودون اللجوء إلى إعطاء الامتيازات للشركات الأجنبية كما هو المألوف في البلاد العربية الأخرى .

وتحاول حكومة حافظ الأسد على الصعيد السياسي الداخلي إقامة جبهة وطنية تضم مختلف الأحزاب التقدمية (البعثيون والناصريون والوحدويون والشيوعيون) ، إلاّ أن القوة السياسية ما زالت حتى الآن بيد الجيش ممثلة في الضباط البعثيين المعتدلين .

الأردن

كان لانفصال سوريا عن مصر في سبتمبر – أيلول ١٩٦١ ورجوع

السياسيين السوريين التقليديين والمعروفين بميولهم اليمينية إلى الحكم ، أثر في تخفيف حالة العزلة التي كان يمر بها الأردن ، خاصة وإن ثورة تموز – يوليو ١٩٥٨ في العراق كانت قد أطاحت بالنظام الهاشمي هناك وكان يشكل سنداً سياسياً ضخماً بالنسبة للأردن . ومع بداية الستينات لم يكن الأردن قد تمكن بعد من التغلب على مشاكله الرئيسية الثلاث : الوضع الداخلي ، علاقته مع الدول العربية ، علاقته مع إسرائيل . فبالنسبة للوضع الداخلي كانت القوى الوطنية تحاول الحصول على مكاسب سياسية من النظام ، في الوقت الذي استمرت سياسة الملك حسين على خطها التقليدي: أي الاستئثار بالسلطة من قبل الأسرة الحاكمة وعدم السماح بالحريات السياسية وخاصة للأحزاب . وفيما يخص علاقاته مع الدول العربية ، فقد كان على علاقة جيدة مع السعودية والكويت وتونس والمغرب . أما بالنسبة للدول الثلاث المهمة في المنطقة ، الجمهورية العربية المتحدة (مصر وسوريا) والعراق فقد كان الأردن في خصومات مستمرة معها إلى أن كان انفصال سوريا عن مصر . أما علاقته مع إسرائيل فكانت تتوقف إلى حد كبير على علاقته بالدول العربية المجاورة له وبوضعها الداخلي . ففي عام ١٩٦٤ بدأ الملك حسين والرئيس جمال عبد الناصر صفحة جديدة من العلاقات إثر دعوة الرئيس جمال إلى مؤتمر القمة العربي الأول الذي كان يفترض فيه وضع خطة شاملة لمواجهة إسرائيل من الناحية العسكرية وللرد عليها بمشروع مضاد فيما يتعلق بتحويل مجرى نهر الأردن . وكان من أهم الاقتراحات إعلان قيام منظمة التحرير الفلسطينية وتصفية الخلافات العربية التقليدية ووقف الحملات الإذاعية .

لا يعني هذا بالضرورة حدوث أي تغييرات جذرية فيما يتعلق بالوضع السياسي في الأردن أو حتى على المستوى العربي . واستمر الأردن بعد ذلك

يشترك في مختلف الاجتماعات على مستوى الملوك والرؤساء ودون ذلك . إلا أن الملك حسين كان يشعر أن تقوية منظمة التحرير والتي يفترض أن تضم أبناء الشعب الفلسطيني الذين يشكّلون ٦٥٪ من سكان الأردن ، وموافقة الدول العربية على إنشاء جيش خاص بهذه المنظمة ، سيهدد في الواقع سلطته في البلاد ويتضمن تنازلات من جانبه لا يرضى عنها . ورغم أنه افتتح المؤتمر الفلسطيني الأول في القدس عام ١٩٦٥ وأعلن تأييده للكيان الفلسطيني إلاّ أنه سرعان ما رفض اقتراح الشقيري بإعلان القدس مدينة عربية وعاصمة للأردن . وأخذ الأردن يتشدد في مواقفه مع المنظمة خاصة بعد أن بدأ بعض الفدائيين العرب بمهاجمة المستوطنات الإسرائيلية التي تقع على الحدود ، مما عرّض الأردن لحملات انتقامية من إسرائيل . وانتهى الأمر إلى الخلاف المكشوف وتبادل الاتهامات بين الطرفين مما أثر بطبيعة الحال على علاقة الأردن بالدول العربية الأخرى خاصة مصر وسوريا . ووصلت الخصومات بين الأردن وهذه الدول ومنظمة التحرير قبيل حرب حزيران عام ١٩٦٧ إلى الحد الذي شكا فيه الأردن مصر إلى الأمم المتحدة . وهكذا بسبب الخلافات الجذرية بين الدول العربية والعائدة إلى طبيعة تركيب كل منها سياسياً واقتصادياً على المستوى المحلي والعربي والعالمي لم تستطع مؤتمرات القمة وما انبثق عنها من لجان أن توجد تفاهماً حقيقياً يكون الأردن واحداً من أطرافه فنحل مشكلته الثانية بصورة حاسمة .

عمد الملك حسين إلى إجراء تعديلات وزارية بين حين وآخر إلاّ أنها لم تكن تحمل أي تغيير حقيقي في السياسة الأردنية وإن كانت تلعب دوراً دعائياً كما حدث عند إقالة وزارة وصفي التل قبيل حرب ١٩٦٧ ، لرفض عبد الناصر استقباله بحجة أنه «جاسوس للإنجليز» . وحين أصبحت حرب حزيران ١٩٦٧ وشيكة الوقوع طار الملك حسين في مايو ــ ايار ١٩٦٧ فجأة

إلى القاهرة ليبدأ صفحة جديدة مع عبد الناصر ويعقد اتفاقية دفاع مشترك موافقاً على تولّي ضابط مصري (عبد المنعم رياض) قيادة العمليات المنتظرة في حالة نشوب حرب . وكذلك عاد الشقيري معه وكأن شيئا لم يكن . ويبدو أن سلوك الملك حسين لم يكن متوقعاً في الدوائر العربية فحسب ، بل إن الدوائر الإسرائيلية حسب العديد من المصادر لم تضع في حسابها مهاجمة الأردن على اعتبار أن الأردن سيبقى بعيداً عن حلبة الصراع . ولكن حرب حزيران ١٩٦٧ أسفرت عن خروج الأردن كأكبر خاسر في المعركة ، إذ احتلت إسرائيل الضفة الغربية بأكملها والتي تشكل العمود الفقري للمملكة الأردنية الهاشمية . وكانت الهزيمة العربية في عام ١٩٦٧ مناسبة تساوى فيها الأردن مع مصر ، أو حسين مع عبد الناصر ، حيث شهد له الأخير بالوطنية والبطولة .

وبانهزام العرب في حزيران ١٩٦٧ بدأت مرحلة جديدة في الأردن على مختلف المستويات : السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية . فعلى المستوى السياسي ، ظهرت المقاومة الفلسطينية كقوة أساسية في البلاد تدير شؤونها باستقلال تام عن الحكومة الأردنية التي وجدت نفسها مضطرة مرحلياً إلى التغاضي عن مثل هذا الوضع . وتقلصت سلطة الحكومة إلى درجة كبيرة . وكان الرؤساء العرب يحاولون البحث عن خطة جديدة لإزالة آثار العدوان وهذا بدوره أوجد تلاقياً من نوع ما بين الأردن ومصر وسوريا وبقية الدول العربية . إلاّ أن تزايد قوة المقاومة واتخاذها الأردن قاعدة رئيسية لعملياتها العسكرية ، وبَعد هدوء المشاعر لدى الجماهير فيما يتعلّق بالهزيمة ، دفع السلطة في الأردن إلى استعادة بعض ما فقدته بالتدريج الأمر الذي أدّى إلى بدء سلسلة من الاصطدامات بين رجال المقاومة والحكومة . ساعد على ذلك تذمر بعض ضباط الجيش الموالين للملك والذين

هم في غالبيتهم ليسوا فلسطينيين . وتفاقمت هذه النزعات . ومع بداية عام ١٩٧٠ اتضح أنها مسألة حياة أو موت بالنسبة للنظام الأردني ، فأخذ يوجه ضربات متتالية للمقاومة الفلسطينية والتي كانت مشدودة بطبيعتها بين ثلاث قوى رئيسية وهي إسرائيل والأردن والدول العربية . وفي سبتمبر — ايلول ١٩٧٠ وقعت المعركة الفاصلة بين قوات الحكومة وقوات المقاومة وغرق الأردن في حرب أهلية ضربت فيها المدن الرئيسية بالمدفعية من قبل الجيش وحوصرت مخيمات اللاجئين وضربت كذلك . وتوقف القتال بعد تدخل الدول العربية الذي جاء متأخراً كالعادة . وعقدت اتفاقية القاهرة لتنظيم العلاقة بين المقاومة والسلطة في الأردن بعد أن سقط عدد كبير من الضحايا يقدر بالآلاف . ونجحت الحكومة في فرض سيطرتها على المدن الرئيسية . واستمر الوضع على هذا المنوال : اصطدام مسلح تستعيد فيه الحكومة الأردنية مزيداً من سلطتها يعقبه تدخل ووساطة من الدول العربية حتى أواسط عام ١٩٧١ حيث تمكنت الحكومة من استعادة سيطرتها كاملة على البلاد وخرجت قوات المقاومة من الأردن وعاد الوضع كما كان قبل عام ١٩٦٧ ، أي سيطرة الملك مدعوماً بضباطه الأردنيين وأعوانه من السياسيين وعلى رأسهم رئيس الوزراء السابق السيد وصفي التل الذي كان له دور فعّال في استعادة الحكومة لسيطرتها والتخلص من الفدائيين . غير أن هؤلاء لم يغفروا لوصفي التل ما قام به عام ١٩٧٠ و ١٩٧١ ، فتتبعه فريق منهم إلى القاهرة حيث اغتيل أثناء حضوره اجتماعات الجامعة العربية عام ١٩٧٢ .

أخذ الأردن بعد ذلك يعلن عن إصراره على معالجة القضية الفلسطينية بالشكل الذي يراه مناسباً ، معتمداً على أصدقائه من الدول الغربية وخاصة أمريكا وبريطانيا . وأبدى استعداده لقبول حل سلمي مع إسرائيل حسب

المبادىء التي وردت في قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ لعام ١٩٦٧ . وعادت الخلافات بينه وبين سوريا ومصر والعراق .

مع أن خسائر الأردن عسكرياً لم تكن كبيرة (يقال إن عدد القتلى من الجيش لم يزد عن ١٢٦ قتيلاً) إلاّ أنّ الجيش أصيب بضعف عام نتيجة فقده بعض المعدات والأسلحة ، سواء إبّان الحرب مع إسرائيل أو مع المقاومة . كما أن عدداً من الضباط المشكوك في ولائهم قد سرحوا من الجيش بالإضافة إلى الذين تركوه بمحض اختيارهم لأسباب متعددة . فبعد نهاية عام ١٩٧٠ بدأ النظام الأردني يعيد بناء الجيش بشكل يستطيع به أن يوفر الحماية الكاملة له معتمداً على المساعدات العسكرية التي يتلقاها من الدول الغربية الصديقة .

باحتلال الضفة الغربية من قبل إسرائيل حرم الأردن من رقعة هي مصدر الإنتاج الزراعي والعائدات السياحية له ، بالإضافة إلى أهميتها التجارية والبشرية . غير أنّ مؤتمر الخرطوم قرر إعطاء الأردن معونة مقدارها ٤٠ مليون جنيه لمساعدته على مصاعبه الاقتصادية ولتقوية جيشه ومساعدة الرعايا الأردنيين في الضفة الغربية على مواجهة ظروف الاحتلال ، وهو ما يعرف بمخصصات الصمود ، حيث يفترض قيام الحكومة الأردنية بدفع مرتبات لموظفيها في الضفة الغربية المحتلة . وليس هناك معلومات مؤكّدة تبين أن هذه الأموال تصرف في الأغراض المخصصة لها . وقد زاد إغلاق الحدود بين سوريا والأردن إثر التأزم عام ١٩٧٢ الحالة الاقتصادية سوءاً بسبب عدم إمكانية استقبال أو تصريف البضائع عن طريق لبنان . وكان لنزوح عدد كبير من سكان الضفة الغربية إلى الضفة الشرقية بعد الحرب ، ونزوح عدد من سكان القرى التي تقع على الضفة الشرقية للأردن إلى الداخل بسبب نشاط الفدائيين وما ترتب عليه

من ردود الأفعال الإسرائيلية ، دور فعّال في تفاقم المشاكل التي تعانيها الحكومة . غير أنّه في الأشهر القليلة الماضية بدأ التوتر يخف تدريجياً وببطء بين الأردن وإسرائيل ، حيث رفعت الأخيرة كثيراً من القيود التي كانت تفرضها على عبور الأشخاص من وإلى الأردن وكذلك البضائع . وتحاول الحكومة في الوقت الحاضر استمالة بعض زعماء الفلسطينيين للوصول إلى تسوية سياسية من نوع ما . ومع أن الأردن أقل الدول العربية تصلباً تجاه إسرائيل ، إلاّ أنّ الوصول إلى حل بينهما أمر بالغ التعقيد . ولا ينتظر أن يستطيع الأردن القيام به بمفرده بسبب تداخل عدد كبير من الأطراف في القضية . وقد يكون أحد الأسباب التي دفعت النظام الأردني إلى القضاء على الفدائيين هناك ، محاولته الوصول إلى حل ما مع إسرائيل والتي تشترط بطبيعة الحال أن لا يكون للفدائيين الكلمة العليا . وسيأتي تفصيل هذه المسألة حين بحث القضية الفلسطينية .

لبنان

كانت فترة رئاسة اللواء شهاب بمثابة فترة مصالحة بين القوى اللبنانية المختلفة التي اشتركت في انتفاضة ١٩٥٨ . ونتيجة لانفصام الوحدة المصرية السورية ، والخلافات المصرية العراقية والعراقية السورية هدأ تيار القومية العربية الذي اجتاح المنطقة في أواخر الخمسينات ، مما ساعد لبنان على الاحتفاظ بكيانه ولبنانيته . إلاّ أنّ عوامل الصراع في داخل لبنان ذاته لم تمت ، وبقيت وما تزال كامنة قد تنفجر إذا توافرت لها الظروف المناسبة . وابتداء من عام ١٩٦٤ أخذ لبنان يشارك الدول العربية في

مؤتمرات القمة ، واستطاع شارل الحلو بدبلوماسيته وبسبب القرارات والتوصيات التوفيقية التي كان الرؤساء والملوك العرب مضطرين لاتخاذها ، أن يضمن اعتراف الدول العربية بالوضع الخاص بلبنان. وكان هذا يتضمن عدم دخول قوات عربية إلى لبنان إلاّ بعد موافقة مجلس النواب. واستمر النشاط السياسي والاقتصادي والثقافي في لبنان كما هو مألوف عنه من حيث حرية الاستثمار وحرية العمل السياسي وحرية الفكر. وعاد لبنان صديقاً لمختلف الدول العربية.

ويلاحظ أن هناك اتجاهاً آخذاً في النمو في الحياة السياسية اللبنانية ، وهو قيام أحزاب وتشكيلات سياسية غير مستندة إلى أسس طائفية ، بل إلى مواقف إيديولوجية وطبقية ، خاصة في أحزاب اليمين وأحزاب اليسار. ويبدو أن التطور الاجتماعي في لبنان من حيث ازدياد قوة ووعي الطبقة الوسطى والشرائح السفلى منها ، والتخلخل التاريخي في بنية الطبقات العليا (الإقطاعية والرأسمالية) والتي يستمد منها التقسيم الطائفي قاعدته المادية ، مضافاً إليه التفاعل السياسي اللبناني العربي ، قد هيأ مناخاً ملائماً لنمو هذا الاتجاه.

عندما نشبت حرب ١٩٦٧ بقي لبنان كما هو متوقع على الحياد ، وبذلك ضمن عدم احتلال جزء من أراضيه كما حصل بالنسبة لجيرانه. غير أن لبنان لم يستطع أن يمنع تأثره بنتائج الحرب ذاتها. فقد رأى الفدائيون الفلسطينيون في جنوب لبنان منطقة تصلح لشن هجماتهم على الأراضي المحتلة ، كما أن في اللاجئين الفلسطينيين الذين يكونون ١٠٪ من السكان مصدراً جيداً للعناصر المقاتلة ، وفي الحرية السياسية التقليدية في لبنان ساحة ملائمة للعمل السياسي ، الأمر الذي دفع إسرائيل إلى شن حملات انتقامية ضد لبنان سواء في جنوبه أو في بيروت ذاتها (دمرت القوات

الإسرائيلية ١٤ طائرة لبنانية تجارية في مطار بيروت في أكتوبر ـ تشرين الاول عام ١٩٦٨) . وقد حاولت القوى اليمينية ـ حزب الكتائب ـ والوسطى أن تجبر الحكومة على الحد من نشاط الفدائيين . وبالفعل حاولت الحكومة ذلك ، غير أن تدخل الدول العربية أدى إلى إيجاد صيغة عمل بين الطرفين بموجب اتفاقية القاهرة عام ١٩٦٩ ، والتي كانت في صالح المقاومة في ذلك الوقت ، بسبب القوة والشعبية التي كانت تتمتع بها آنذاك . وبعد أن فقدت المقاومة قواعدها في الأردن وحُدّد نشاطها في سوريا وتتضاءلت قوتها السياسية والعسكرية بشكل كبير ، تركزت جهودها العسكرية والسياسية في لبنان مما ضاعف من شدة الحملات الإسرائيلية ، وبالتالي ازدياد ضغط الفئات اليمينية والوسطى على الحكومة لاتخاذ موقف حاسم من المقاومة . ورغم محاولة الفئات والأحزاب التقدمية مساندة المقاومة في لبنان إلاّ أنّ الحكومة تمكنت في سبتمبر ـ أيلول عام ١٩٧٢ من تحديد نشاط المقاومة إلى درجة كبيرة بحيث عاد الجيش اللبناني إلى جنوب لبنان بعد انسحابه عن تلك المنطقة طيلة السنوات الماضية التي أعقبت الحرب . ساعد على ذلك ميوعة الوضع العربي العام تجاه الصراع العربي الإسرائيلي وضغوط بعض الدول الغربية التي ترى في نفسها حامياً تقليدياً للبنان .

وما زال لبنان يؤدي دوره المتزايد والهام في مجال الثقافة والفكر ، حيث أصبحت بيروت العاصمة الفكرية للبلاد العربية بسبب حرية الكتابة والنشر والتي غالباً ما نجدها مقيدة في أكثر البلاد العربية . وإن حرية العمل السياسي فيها جعلها مركزاً هاماً لكثير من النشاطات السياسية العربية ، فتعقد فيها المؤتمرات السياسية والحزبية الممنوعة خارج لبنان مثل مؤتمر الأحزاب التقدمية ، ومؤتمر الأحزاب الشيوعية العربية . وتلجأ اليها

الشخصيات السياسية المعارضة لأنظمة الحكم في البلاد العربية . وجعلها هذا من ناحية أخرى مسرحاً لكثير من عمليات التجسس الدولي والعربي ومؤامرات الاغتيال السياسي لشتى الأطراف بما فيهم إسرائيل (محمد عمران ، غسان كنفاني ، كمال ناصر وغيرهم) .

أما حرية النشاطات الاقتصادية فما زالت ركناً أساسياً في اقتصاد لبنان ، تجلب إليه الأموال والاستثمارات العربية والأجنبية ، وتتيح فرصاً للعمل لكثير من اللبنانيين من سكان المدن الرئيسية التي تبدو مزدهرة ، ولكنها تخفي في نفس الوقت كثيراً من مظاهر تحكم الإقطاع الواضحة في الريف حيث ما زال المرء يجد مقاطعات كبيرة جداً تملكها أسرة واحدة تتحكم بطبيعة الحال في حياة الفلاحين الذين ما زالوا يعيشون في ظروف قاسية خاصة إذا قيسوا بسكان المدن اللبنانية ، مما يشجع باستمرار الهجرة من الريف إلى المدينة أو إلى الخارج . ولا شك أن البنية السياسية في لبنان تعتمد كلية على حالات التوازن الدقيقة القائمة بين الاقطاعية والرأسمالية المحلية من جهة والتقسيمات الطائفية والتي تستند إلى معطيات طبقية من جهة ثانية ، وبين رؤوس الأموال والاستثمارات الخارجية من جهة ثالثة . أدى هذا إلى اعتماد لبنان في اقتصاده على دور الوساطة بصورة أساسية ، وبالتالي عدم تطوير البلاد صناعياً وزراعياً بدرجة كافية ، رغم أن الخبرات والجد اللبناني كفيلة بتحقيق مثل هذا التطور إذا توفرت الظروف الملائمة .

ولا شك أن وضع لبنان تجاه إسرائيل يفرض عليها ضغطاً غير مباشر يمنع أحياناً تنفيذ بعض المشروعات مثل مشروع نهر الليطاني . كذلك اضطرار الحكومة اللبنانية إلغاء تركيب شبكة «رادار روتال» بسبب التهديد الإسرائيلي .

العِـــرَاقْ

لم يكن تولي عبد السلام عارف السلطة في العراق نهاية لفترة الاضطراب السياسي ، بل شهدت العراق في السنوات التي تلت عام ١٩٦٣ تغيراً مستمراً في السلطة الحاكمة من حيث أشخاصها واتجاهاتها . حاول عبد السلام عارف أن يسلك مسلكاً متقرباً إلى مصر خاصة بعد القطيعة التي وقعت بين البلدين إبان حكم عبد الكريم قاسم . وجرت محاولة لإنشاء وحدة بين مصر والعراق وسوريا إلا أن مثل تلك المحاولات لم تسفر عن أية نتائج ملموسة وبقي التوتر سائداً في الجو السياسي بسبب النزاعات الشخصية والحزبية في الجيش وأجهزة الدولة الأخرى مما أدى إلى إعاقة أي تطوير جذري للبنية الاقتصادية والاجتماعية هنالك . وزادت ثورة الأكراد ومطالبتهم بالحكم الذاتي ، ن مشاكل السلطة الحاكمة وعقدتها .

بعد موت عبد السلام عارف في حادث ،ائرة في مارس عام ١٩٦٦ حاول أخوه عبد الرحمن عارف الذي تولى السلطة من بعده ، أن يستعين بسياسيين مدنيين ، إلا أن مثل هذه المحاولة لم تسفر عن إرساء نظام سياسي متمكن وجرت محاولات كثيرة للإطاحة بحكمه ولم تنجح إلا في عام ١٩٦٨ حيث تمكن واحد من أجنحة حزب البعث بالتعاون مع عدد من الضباط الشباب الإطاحة به مستفيدين من حالة الفوضى والاضطراب السائدة في البلاد والشعور بالفشل بسبب حرب حزيران ١٩٦٧ وتأزم المشكلة الكردية . وتولى الفريق أحمد حسن البكر رئاسة الدولة يحكم من خلال مجلس الثورة ومجلس الوزراء .

واجهت الحكومة الجديدة أربع مشاكل رئيسية هي : المسألة الكردية ، والعلاقات العراقية الإيرانية ، والعلاقات العراقية العربية ، والتغلب على المشاكل الاقتصادية ، بالإضافة إلى تثبيت الحكم ذاته . وسلك العراق مسلكاً انعزالياً في بداية الأمر خاصة بسبب الخلاف الذي نشأ بينه وبين حزب البعث السوري ، وكذلك الخلاف مع مصر ، واستعمل أساليب مختلفة للتخلص من خصومة السياسيين .

فيما يتعلق بالمسألة الكردية فقد نجح نظام أحمد حسن البكر في إنهاء الثورة سلمياً والموافقة على إعطاء الأكراد حكماً ذاتياً ضمن وحدة التراب العراقي وإشراك وزراء أكراد في الحكومة . وتجري محاولة لتأليف جبهة وطنية أو ما يشبه ذلك تشترك فيها مختلف الأحزاب التقدمية على أن يكون للبعثيين نصيب أكبر . وفي عام ١٩٧٢ بدأ تحسن في العلاقات المصرية العراقية وكذلك العراقية السورية مما يشير إلى نوع من الانفتاح نحو العالم العربي مرة أخرى بعد أن استطاع الحكم أن يثبت نفسه نسبياً في العراق .

أما بالنسبة للعلاقات العراقية الإيرانية فقد توترت ووصلت إلى حد الاشتباك المسلح في السنوات القليلة الماضية حيث تحاول كل منهما معادلة نفوذ الأخرى في منطقة الخليج العربي خاصة بعد انسحاب بريطانيا من المنطقة وبروز الطموحات الإيرانية والتي تمثلت عملياً باحتلال الجزر القريبة من شاطىء البحرين . وكذلك الخلاف مع إيران على شط العرب . وتتهم إيران العراق بأنها تساند القوى الثورية المعارضة للنظام الحاكم في إيران في الوقت الذي كانت العراق تتهم فيه إيران بمد الأكراد بالسلاح وتغذية الخصومات القومية في العراق .

وفي مجال تطوير الاقتصاد يركز الحكم الحالي في العراق اهتمامه على تطوير الصناعات غير النفطية وذلك لتقليل اعتماده على واردات

البترول ولكنه في الوقت ذاته عمد إلى عقد اتفاقيات نفطية مع الاتحاد السوفييتي لتطوير حقل الرميلة . وقد تدهورت العلاقة بين الحكومة العراقية وشركة النفط العراقية وشركائها بسبب مطالبة العراق بزيادة الانتاج من ناحية وزيادة نصيبه من الأرباح من جهة أخرى . وتعود جذور الخلاف بين العراق وشركات النفط إلى عام ١٩٦١ حين أصدرت حكومة قاسم آنذاك القانون رقم ٨٠ والذي يقضي بتكوين شركة النفط الوطنية وانتزاع ٩٩،٥٪ من الأراضي التي كانت تسيطر عليها شركة نفط العراق . ولقد انتهت المحادثات المطولة بين الحكومة وممثلي الشركة إلى الفشل مما أدى إلى تأميمها في عام ١٩٧٢ . وكان للمعركة البترولية هذه أثر ملحوظ في تحسين العلاقات بين مصر وسوريا من جهة والعراق من جهة أخرى ، إذ أيدت الدولتان موقف العراق . كما أظهرت ليبيا موقفاً مؤيداً ومشجعاً بعد أن توترت العلاقات بين البلدين بسبب توقيع معاهدة الصداقة والتعاون السوفييتية العراقية . وكانت هذه المعاهدة بداية لمرحلة جديدة من تعاون سوفييتي عراقي مشترك في مختلف المجالات وخاصة الاقتصادية ،العسكرية ـالتي عوجبها يقدم الاتحاد السوفييتي الخبراء والقروض والمعدات اللازمة للمشاريع العراقية .

لم يكن اشتراك العراق في حرب حزيران ١٩٦٧ إبّان حكم عبد الرحمن عارف إلاّ إضافة عددية للقوات العربية ، حيث وصلت القوات العراقية متأخرة وضربت من قبل الطائرات الإسرائيلية وهي في طريقها إلى الأردن . وبقيت تلك القوات في المنطقة حتّى عام ١٩٧١ ولكن دون أي فعالية تذكر حتّى أثناء الحرب الأهلية في الأردن بين المقاومة الفلسطينية والنظام الهاشمي عام ١٩٧٠ . هذا لم يمنع الحكومات العراقية المختلفة أن تعلن باستمرار تأييدها للحق الفلسطيني وللمقاومة الفلسطينية . ورغم

مساعدتها لبعض فصائل المقاومة بشكل أو بآخر إلاّ أنّ بُعد العراق عن ساحة المعركة التي تخوضها المقاومة وانشغال العراق بشؤونه الداخلية وصغر الجالية الفلسطينية هناك وتذبذب اتجاهات الحكم ، جعل تأثير العراق في مجرى الأحداث ضئيلاً .

القضيّة الفلسطينيّة

لم يكن عام ١٩٤٨ عاماً حاسماً ونهائياً في تاريخ القضيه الفلسطينية . فإن نشوء ما عرف فيما بعد باسم « مشكلة اللاجئين الفلسطينيين » وعدم اعتراف الدول العربية بإسرائيل كدولة شرعية في المنطقة ، وعدم الاعتراف بحدودها أدى إلى عدم تصفية « الخلاف » معها نهائياً . كما أن تبني الدولة اليهودية في فلسطين لسياسة توسعية سواء بالوسائل السلمية أو العسكرية تهدف إلى احتلال مزيد من الأراضي العربية واستجلاب المزيد من المهاجرين اليهود ، مضافاً إلى ذلك إصرار الشعب الفلسطيني على حقه في العودة إلى وطنه ، وهو حق أقرّته الأمم المتحدة ، كل ذلك جعل إمكانية الوصول إلى حل لهذه القضية أمراً غير ممكن .

إن القضية الفلسطينية كانت وما تزال تحتل مركزاً رئيسياً في النشاطات السياسية والعسكرية في المنطقة . وهي بالإضافة إلى مسألة الوحدة العربية أحد المداخل الأساسية لدراسة وتحليل الواقع السياسي العربي وخاصة في الدول المحيطة بإسرائيل ومع أن الصراعات الداخلية والدولية في المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية في البلاد العربية كانت المحرك الرئيسي للتغييرات السياسية والسلسلة المتصلة من الإنقلابات

ومحاولات الانقلابات التي شهدتها المنطقة ، إلا أن القضية الفلسطينية لعبت وتلعب دوراً بارزاً في تصعيد هذه التغييرات سواء بتهيئة جزء من العوامل الذاتية لدى محاولي التغيير أو بإعطاء التغيير المبررات السياسية والوطنية أمام الجماهير العربية . يضاف إلى ذلك أن علاقات الدول العربية بعدد من دول العالم تتحكم فيها ولو جزئياً مواقف الأخيرة من إسرائيل ومن القضية الفلسطينية . كذلك فإن خطط التنمية والمشاريع الاقتصادية في البلدان العربية المجاورة لإسرائيل تتحكم بها إلى درجة كبيرة حالة التوتر المستمر في المنطقة مما يدفع هذه الدول إلى تخصيص جزء كبير من دخلها القومي لشراء المعدات العسكرية وتقوية قواتها المسلحة حتى تستطيع مواجهة عدوان إسرائيلي قد يقع مستقبلاً ، أو للمشاركة في تحرير فلسطين حينما تتهيأ الظروف لذلك . وحالة التوتر هذه بالإضافة إلى أسباب أخرى أعطت فرصة أكبر لبروز العسكريين العرب على مسرح السياسة العربية وحال إلى حد كبير دون بناء مؤسسات ديموقراطية لتسيير شؤون الحكم أو المساهمة به . كما أن القضية الفلسطينية واحدة من العوامل الهامة في تحديد علاقات الدول العربية بعضها ببعض .

ومع أن قيام إسرائيل قد ووجه بمعارضة ومقاومة كبيرتين من الفلسطينيين العرب تراوحت من الاحتجاج وحتى الصدام المسلح ، إلا أن الهزيمة العربية سنة ١٩٤٨ وما نتج عنها من خلخلة في الأوضاع السياسية والسكانية للمنطقة ، وظهور مجالات عمل جديدة للفلسطينيين في أماكن بعيدة عن المنطقة مثل السعودية والكويت ، أدى إلى ركود المقاومة الفلسطينية لفترة وجيزة .

في الخمسينات أخذت جماعات من الفلسطينيين وخاصة في قطاع غزة الذي كان يقع تحت الإدارة المصرية بتنظيم أعمال عصابية

(فدائية) بسيطة ضد إسرائيل على أمل أن تتحول هذه الأعمال إلى حملات واسعة في المستقبل . إلاّ أنها كانت تقابل بحملات مضادة شديدة من القوات الإسرائيلية التي كانت قدرتها العسكرية تنمو بسرعة كبيرة . وفي نفس الوقت لقيت أعمال الفلسطينيين معارضة كبيرة من الدول العربية التي تنطلق منها والتي كانت تحاول دائماً تجنب إثارة إسرائيل والصدام معها . والعقد السادس من هذا القرن هو العقد الذي ارتفعت فيه موجة القومية العربية والوحدة العربية إلى أعلاها مما جعل كثيراً من الفلسطينيين ينخرطون في الأحزاب السياسية العربية في المنطقة ويعملون من خلالها إما لتحقيق الوحدة العربية أو لقلب البنية السياسية والاجتماعية لدول المنطقة باعتبار أن أحد هذين الاتجاهين هو الطريق إلى تحرير الأرض المغتصبة .

إن فشل الوحدة المصرية السورية وانفصامها عام ١٩٦١ وما تلا ذلك من خلافات سياسية بين الأنظمة العربية الحاكمة وانحسار موجة الوحدة العربية وتفتت كثير من الأحزاب العربية التي كانت تقود العمل السياسي في العالم العربي وكذلك فشل الوساطات الدولية (كوساطة الرئيس كندي مثلاً) في تحقيق سلام بين إسرائيل والأنظمة العربية وجمود الجبهة المصرية الإسرائيلية نتيجة لتواجد قوات الطوارىء الدولية على خطوط الهدنة بين مصر وإسرائيل منذ حرب السويس عام ١٩٥٦ ، كل ذلك ولد حالة من اليأس لدى فئات عديدة من الفلسطينيين بإمكانية حل القضية واسترجاعهم لحقوقهم الشرعية عن طريق الأنظمة العربية . إلاّ أن نجاح الثورة الجزائرية في تحقيق استقلال الجزائر بعد حرب مريرة ضد المستعمر الفرنسي ، وتصاعد حركات التحرر في العالم الثالث أقنع بعض الفلسطينيين بإمكانية استرداد حقوقهم عن طريق الكفاح المسلح وأقنعهم بضرورة تولي شؤونهم بأنفسهم واستئناف المقاومة التي بدأت في العشرينات .

ومن ناحية ثالثة فإن إصرار الجانب الإسرائيلي على مواقفه السياسية وامتناعه عن إعطاء أي من التنازلات ، واستمرار الهجرة اليهودية إلى فلسطين وتعاظم قوة الجيش الإسرائيلي ، وتخوف الأنظمة العربية وعدم استقرارها السياسي داخلياً ، وتذبذب مواقفها الدولية أكد للفلسطينيين وخاصة الشباب المتعلم الذي بدأ ينفتح على العالم بصورة كبيرة عدم جدوى الانتظار حتى يتحقق عمل عربي رسمي موحد .

وفي عام ١٩٦٤ تشكلت منظمة التحرير الفلسطينية برئاسة أحمد الشقيري وبموافقة وتشجيع الدول العربية . وقد قصد بها أن تكون تنظيماً « إطارياً فضفاضاً » للفلسطينيين تمتص موجات التململ السياسي والثوري الفلسطيني وتوائمها مع العمل العربي الرسمي . وفي نفس الوقت رأى فيها عدد من الفلسطينيين أداة ، وإن كانت ضعيفة ، لمواجهة فكرة توطين الفلسطينيين في البلاد العربية ، وإخراجهم ولو جزئياً من الوصاية العربية ، وخطوة نحو تنمية الشخصية الفلسطينية وبلورتها على مقياس جماهيري . ثم تلا ذلك مؤسسات تابعة لمنظمة التحرير أهمها جيش التحرير الفلسطيني الذي تمركزت قطاعات منه في قطاع غزة وسوريا والعراق ، وكذلك الصندوق القومي الفلسطيني . إلاّ أن ضغوط الدول العربية المتعددة الاتجاهات على منظمة التحرير واستعمال بعض هذه الدول المنظمة كأداة في خلافاتها السياسية مع شقيقاتها العربيات ، وتخوف بعض الدول العربية وخاصة الأردن من تعاظم نفوذ المنظمة ، بالإضافة إلى التركيب الخاص بالمنظمة وقيادتها وانعدام الرؤيا الواضحة للعمل واعتمادها على الدول العربية ، وهو الأمر الذي كان يحاول الفلسطينيون الانعتاق منه إلى حد ما ، هذا كله جعل المنظمة أقل فاعلية مما اعتقد الفلسطينيون أنها ستكون .

في نفس الوقت كانت جماعات من الفلسطينيين تحاول إنشاء منظمات

سرية تعمل على تحرير فلسطين عن طريق الكفاح المسلح . ففي كانون ثاني عام ١٩٦٥ صدر أول بيان عن عملية عسكرية قام بها الجناح العسكري (العاصفة) لحركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح) والتي تعود أصولها إلى عام ١٩٥٥ حيث بدأت بتشكيل الخلايا السرية بين الفلسطينيين للإعداد لحرب عصابية ضد إسرائيل . وإذا استثنينا الجزائر وسوريا فإن معظم الدول العربية ومنظمة التحرير الفلسطينية كذلك وجهت نقداً شديداً ومعارضة كبيرة لهذه التنظيمات السرية إلى حد سجن أفرادها أو قتلهم عند الضرورة . أدى هذا إلى حصر النشاط العسكري والسياسي السري في نطاق ضيق تماماً .

لقد كان نشاط الفلسطينيين في ضرب الأهداف الإسرائيلية وانطلاقهم من قواعد في سوريا من الأسباب التي تذرعت بها إسرائيل للتهديد بالهجوم على سوريا قبيل حرب حزيران سنة ١٩٦٧ . كما أنه كان سبباً في وقوع هجمات إسرائيلية على الأردن كما حدث في قرية السموع الأردنية . وبعد هزيمة الجيوش العربية في حزيران وارتخاء قبضة الأنظمة العربية نتيجة لذلك اشتدت حركة المقاومة الفلسطينية (الفدائيين) وخرجت إلى العلانية . وبسرعة كبيرة ظهر عدد من التنظيمات الفدائية تتراوح اتجاهاتها السياسية ومنطلقاتها الايديولوجية من يمين الوسط وحتى أقصى اليسار . وانتشرت قواعدها ومعسكراتها في الأردن وسوريا ولبنان حيث التركيز السكاني الأكبر للفلسطينيين ، واستطاعت أن تستقطب العديد من الشباب الفلسطيني من مخيمات اللاجئين ومن المدن وحظيت بتأييد كبير من الجماهير العربية . ولم تستطع الأنظمة العربية إلا أن تعلن تأييدها «الرسمي» للعمل الفدائي باعتباره تياراً جماهيرياً لا تستطيع كبحه في تلك الظروف ، ولأنه من ناحية ثانية ساعد إلى حد كبير على انصراف الجماهير العربية عن تقصي

أسباب الهزيمة ومحاسبة المسؤولين عنها . وتهيأت بذلك للأنظمة العربية فرصة لالتقاط أنفاسها تعمل اثناءها على تجميع قواها العسكرية والسياسية لتعيد إحكام القبضة السياسية في الداخل من جديد .

وخلال الثلاث سنوات الأولى التي أعقبت حرب حزيران نجحت المقاومة الفلسطينية في إثبات وجودها كقوة سياسية في المنطقة العربية ، قادرة على التأثير على مجريات الأحداث بشكل ملحوظ . وتمكنت تنظيمات الفدائيين من السيطرة على منظمة التحرير الفلسطينية كإطار فضفاض أيضاً لتوحيدها وأضفت عليها نوعاً من القوة والحيوية وبعض الاستقلالية عن الأنظمة العربية .

إن العمليات العسكرية التي قام بها الفدائيون الفلسطينيون ضد إسرائيل قد أرهقت بالفعل قوات الاحتلال الإسرائيلية وجعلت عملية الاحتلال بعيدة عن الهدوء والاستسلام الذي أعقب حرب سنة ١٩٤٨ . غير أن الأهمية الرئيسية للنشاط الفدائي تتمثل في استقطاب الفلسطينيين نحو فكرة تحرير الأرض بقوة السلاح وترسيخ فكرة الالتزام بالثورة الفلسطينية لدى الجماهير الفلسطينية والعربية وبالتالي بدلت شعور المواطن الفلسطيني من لاجيء يبحث عن حل لقضيته من خلال المنظمات الدولية إلى إنسان مضطهد يقاتل في سبيل تحرير أرضه .

أما على الصعيد الدولي فقد تغير وجه القضية الفلسطينية أيضاً وبكيفية مشابهة . فبعد أن كانت مسألة لاجئين فلسطينيين وخلافات على الحدود بين إسرائيل والدول العربية المجاورة لها ، أصبحت مسألة شعب يطالب بحقه في تقرير مصيره . وقد تَبَنَّتْ الأمم المتحدة هذه النظرة الجديدة حين أقرت في عام ١٩٧٠ بحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره وأقرت عام ١٩٧١ بمشروعية المقاومة الفلسطينية كحركة تحرير قومية . يضاف

إلى ذلك العلاقات النضالية التي أنشأتها المقاومة الفلسطينية مع عدد من حركات التحرير والحركات السياسية التقدمية في دول العالم الثالث وأوربا وأمريكا .

لم يستمر التعايش بين الأنظمة العربية وحركة المقاومة الفلسطينية إلا فترة قصيرة . فمنذ عام ١٩٦٩ أخذ يتلاشى تدريجياً ليحل محله تناقض واضح . فمن ناحية كانت حركة المقاومة بحاجة إلى قواعد لها في البلاد العربية وبحاجة إلى دعم مادي وأدبي من المنطقة باعتبارها تمثل العمق الاستراتيجي للمقاومة . ومن ناحية ثانية فإن تواجد حركة جماهيرية مسلحة تتوفر لها إمكانات قوية لجذب الجماهير العربية إلى صفوفها وتعمل في أرض دولة عربية سيؤدي إذا استمر إلى قلب التركيب السياسي والاقتصادي لتلك الدولة ويجعل الزمام يفلت من يد السلطة الحاكمة خاصة وأن الحركات والأحزاب السياسية العربية أخذت تتحرك بحرية أكبر مستفيدة من حالة الانفراج السياسي الذي شهدته المنطقة عقب حرب حزيران . فإذا أضفنا إلى ذلك الغارات الإسرائيلية المكثفة على الدول العربية التي ينطلق منها الفدائيون والضغوط الدولية على بعض الدول العربية للسيطرة على الموقف أي كبح جماح المقاومة الفلسطينية كشرط مسبق لتحقيق تسوية سلمية للأزمة ، وعدم استعداد الدول العربية بتركيباتها الحالية من النواحي العسكرية والسياسية والجماهيرية والذهنية لتحمل أعباء حرب طويلة تتعرض فيها كثير من منشآتها للتدمير ، وعدم استعدادها لتكييف أوضاعها لمثل هذه الظروف ، بالإضافة إلى الظروف المحلية الخاصة بكل دولة جعل الصدام بين المقاومة الفلسطينية والدول العربية ، خاصة المجاورة لإسرائيل أمراً منطقياً ومتوقعاً . فشهدت كل من لبنان والأردن صدامات مسلحة بين قوات المقاومة وقوات كل من لبنان والأردن . وبعد سلسلة من الصدامات المتقطعة في الأردن حيث كان يعقب كل صدام تدخل ووساطة من الزعماء

العرب ، كما هي العادة لحصر النزاع ومنع إراقة الدم العربي بأيدٍ عربية استطاع النظام الأردني أن يوجه ضربته الأخيرة إلى حركة المقاومة الفلسطينية في الأردن في أيلول عام ١٩٧٠ حيث تحول الموقف إلى حرب أهلية راح ضحيتها آلاف من المواطنين ، وانتهت بإخراج المقاومة من الأردن والقضاء على نفوذها السياسي والعسكري . واستعاد النظام الأردني سيطرته على البلاد بصورة أكثر تشدداً مما كان قبل عام ١٩٦٧ .

بدأت الصدامات في لبنان في عام ١٩٦٩ وكان آخرها وأعنفها صدامات أيار ١٩٧٣ . أما سوريا فإنها اكتفت بتحديد مجالات العمل للفدائيين ، ولا تزال تلعب دوراً هاماً في استمرار المقاومة الفلسطينية ولو بصورة أقل وضوحاً مما كان في السابق . وبعد قبول مصر لمبادرة روجرز وزير الخارجية الأمريكية لحل مشكلة الشرق الأوسط ورفض المقاومة الفلسطينية للمشروع الأمريكي ، فترت العلاقات بين حركة المقاومة ومصر . واقتصر الدعم المصري على المسائل الدعائية . ويمكن القول أنه في نهاية عام ١٩٧٠ ضعف النشاط السياسي والعسكري لحركة المقاومة الفلسطينية وخف تأييد الدول العربية لها إلى حد كبير وتركزت جهود المقاومة بعد ذلك للمحافظة على بقائها بصورة أساسية .

إن الجهود التي بذلت لإحلال السلام في المنطقة لم يكتب لها النجاح رغم تعدد الأطراف التي شاركت بذلك . فقرارات الأمم المتحدة ومجلس الأمن ووساطات الدول الكبيرة والدول الإفريقية وغيرها لم تستطع حتى أن تعيد الموقف إلى ما كان عليه قبل حرب سنة ١٩٦٧ أو حتى أن ترسي قواعد للاتفاق ترضى بها الأطراف المتنازعة . أما القضية الفلسطينية كقضية شعب يناضل لتحقيق أمانيه القومية وحقوقه المشروعة ، فما زالت محور الصراع في المنطقة وينتظر لها أن تبقى كذلك لسنين عديدة قادمة .

السعودية

لم تشهد السعودية في الستينات أي تغير جذري في نظامها السياسي أو الاجتماعي ، بل تركز النشاط الداخلي على القيام ببعض المشاريع الصناعية المختلفة وربط البلاد بشبكة من الطرق وفتح المدارس وتقوية الجيش . وكان تورّط السعودية في حرب اليمن وعلاقاتها مع الدول العربية هي أبرز الأحداث في تلك المملكة . فبعد فرار الإمام البدر من صنعاء التجأ إلى السعودية في طلب العون لاستعادة ملكه الذي قضت عليه ثورة السلال . وأبدت السعودية استعداداً نشطاً في بداية الأمر لمد الملكيين (أتباع البدر) بالسلاح والأموال، سهّل ذلك اتخاذ الملكيين مراكز للقيادة في شمال اليمن على الحدود السعودية . وقد أدّى هذا الوضع إلى تأزم العلاقات السعودية المصرية التي كثيراً ما تعرضت لهزات مختلفة حتى وصلت إلى درجة القطيعة بين عامي ١٩٦٢ — ١٩٦٤ . فإن مصر كانت السند الأساسي للجمهوريين في صنعاء . واستمر الدعم السعودي للملكيين بين مدّ وجزر يقابله موقف مصر من الجانب الآخر حتى ديسمبر ١٩٦٧ حيث كان من نتائج حرب حزيران انعقاد مؤتمر الخرطوم والاتفاق على سحب القوات المصرية بكاملها ووقف الدعم السعودي للملكيين . وقد أتاحت حرب ١٩٦٧ للسعودية أن تلعب دوراً في السياسة العربية أقوى مما كان باستطاعتها قبل الحرب ذلك أنها وافقت على دفع ٥٠ مليون جنيه سنوياً كتعويض لمصر والأردن عن الخسارة التي لحقت بهما باحتلال إسرائيل للضفة الغربية وبسبب غلق قناة السويس .

أما أبرز الأحداث الداخلية ، فقد كان الخلاف بين الملك سعود وأخيه الأمير فيصل حيث استطاع الأخير أن يقصي سعوداً عن العرش في ٢ نوفمبر ــ تشرين الأول عام ١٩٦٤ ويتسلم مقاليد الحكم كملك للبلاد . وقد أبدى فيصل انفتاحاً على العالم الخارجي أكثر من أخيه سعود ، وتمثل ذلك بزياراته لدول أوروبا ١٩٦٧ وإفريقيا عام ١٩٧٠ ونشاطه في مجال الدول الإسلامية حيث حاول عقد مؤتمر إسلامي عام .

وفي المجال العربي حاولت السعودية التوسط بين الملك حسين والمقاومة الفلسطينية بعد الصدام الذي وقع بينهما في أيلول عام ١٩٧٠ . وقد جرت محاولة إنقلابية ضد فيصل في سبتمبر ــ ايلول عام ١٩٦٩ من قبل بعض ضباط سلاح الطيران غير أنها فشلت وأعدم عدد كبير منهم .

ومع أنه يبدو أن الملك فيصل قد تمكّن من تثبيت نفسه والقضاء على خصومه السياسيين إلاّ أن البلاد ما زالت بحاجة إلى مجهودات كبيرة وتغييرات أساسية لتطوير نظامها السياسي وللقضاء على التخلف الذي يعم البلاد وخاصة في مجالات التعليم والصحة والخدمات الاجتماعية خاصة في الأماكن البعيدة عن المدن الرئيسية .

الجمهوريّة العربيّة اليمنيّة

أما جنوب الجزيرة فقد كانت الستينات فيه حافلة بالأحداث السياسية الهامة وخاصة في الطرف الغربي منه أي اليمن . ففي أواسط الخمسينات شهدت اليمن لأول مرة انفتاحاً محدوداً على العالم بدأه الإمام أحمد . فعقد بعض الإتفاقيات مع الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة وغيرها للقيام

ببعض المشاريع البسيطة . كما أنه أعلن عن ارتباطه بالجمهورية العربية المتحدة (مصر وسوريا) عن طريق وحدة فيدرالية عُرفت باسم اتحاد الدول العربية. وبهذا تمكن من إيقاف الحملات الدعائية الموجهة ضده من صوت العرب ومن شخصيات يمنية معارضة . وبرز ابنه الأمير البدر كولي للعهد ذي تطلعات إصلاحية ولو أنها محدودة . فقد قام بزيارة عدد من دول أوروبا الشرقية بالإضافة إلى الدول العربية . غير أن حالة التخلف الشديد وأتوقراطية الأسرة الحاكمة وأساليب الإمام أحمد في إخماد نشاط ضباط الجيش أدّت إلى ازدياد حالة عدم الرضى وتفاقم الوضع الداخلي . وما كاد الإمام أحمد يوارى التراب في عام ١٩٦٢ ويتولى الإمامة ابنه البدر حتّى قامت مجموعة من ضباط الجيش بقيادة عبد الله السلال بانقلاب على الإمام البدر معلنة انتهاء المملكة المتوكلية اليمنية وقيام الجمهورية العربية اليمنية .

وبنجاة البدر من الموت وهربه إلى الشمال حيث استعان بالسعودية لمحاربة الثوار الذين تسندهم مصر بدأت الحرب الأهلية في اليمن بين الجمهوريين والملكيين . واستمرت هذه الحرب حتّى عام ١٩٦٩ واشتركت فيها قوات مصرية وطائرات وطيارون من السعودية وعلى نطاق محدود من الأردن وقد نتج عن هزيمة القوات العربية في حزيران ١٩٦٧ انسحاب مصر من اليمن مقابل توقف مساعدة السعودية للملكيين والذين انتهوا إلى التسليم بالأمر الواقع في عام ١٩٦٩ .

لم تكن اليمن بحاجة إلى حرب أهلية تغذيها القبلية والطائفية الدينية بقدر حاجتها إلى فترة تلحق فيها بركب الحضارة والتقدم . فقد كانت الحرب السبب في تبديد مجهودات الناس والحكومة وفي ظهور الخلافات بين قادة الثورة فاختفى شخص كالبيضاني وحصل انقلاب على السلال أدّى إلى لجوئه إلى العراق .

بعد مرور عشر سنوات على قيام الثورة لم يظهر في اليمن نظام سياسي مستقر . فالحكومة ما زالت معرضة لهزّات سياسية . إن المسؤولية الملقاة على عاتق الحكومة ليست بالأمر البسيط حيث إن درجة التخلف الاجتماعي والاقتصادي تجعل عملية الإصلاح في منتهى الصعوبة ، خاصة إذا كان القطر في حالة اضطرابات سياسية أو خلافات خارجية مع الجيران كما يحصل مع اليمن الشعبية . وقد خف اهتمام مصر باليمن وقلت مساعدتّها فأصبحت الآن تحاول الحصول على معونات من جهات مختلفة ، خاصة من الصين والاتحاد السوفييتي .

اليمن الديمقراطية

كانت بريطانيا قد أعلنت عن عزمها على الانسحاب من جنوب اليمن بعد أن مهّدت لذلك بإقامة ما عرف باسم « اتحاد الجنوب العربي » مؤلف من إمارات ومشيخات يرأسها حكام محليون موالون للحكم البريطاني . وبرزت كل من جبهة التحرير الوطنية وجبهة تحرير جنوب اليمن المحتل كقوتين أساسيتين في الحرب ضد الاحتلال البريطاني وضد الاتحاد . وتمكنت القوى الوطنية في جنوب اليمن من إجبار بريطانيا على الانسحاب قبل الموعد المعلن عنه ، وأعلن استقلال جنوب اليمن وأطلق عليه اسم جمهورية اليمن الشعبية في ٣٠ نوفمبر – تشرين الثاني عام ١٩٦٧ . وكانت جبهة التحرير قد سيطرت على الموقف بعد خلافها مع جبهة تحرير جنوب اليمن المحتل . وتولى قحطان الشعبي رئاسة الجمهورية ، يحكم بموجب مرسوم ، ومن خلال مجلس الوزراء وذلك إلى أن يتم وضع

الدستور . أما الهيئة التشريعية فهي الجمعية العمومية لجبهة التحرير الوطنية .

وقد كان لإغلاق قناة السويس إثر حرب ١٩٦٧ أثر اقتصادي سيء على البلاد، إذ هبط دخل ميناء عدن وقل عدد السياح مما اضطر المسؤولين إلى القيام بإجراءات اقتصادية مشددة للتغلب على الأزمة المالية . أضاف إلى الموقف صعوبة ، الاتجاه الراديكالي لجبهة التحرير الوطنية مما جعل السعودية والأنظمة اليمينية في البلاد العربية تقف إزاءها موقفاً شبه عدائي . وتحاول الجبهة حالياً تطبيق برامج إصلاح واسعة وخاصة في مجال الزراعة . وتعتمد إلى حد كبير على المعونات التي تقدمها لها دول المعسكر الاشتراكي وفي مقدمتها الاتحاد السوفييتي وألمانيا الديموقراطية .

كانت هناك آمال لدى المسؤولين والوطنيين في جنوب اليمن وشماله في أن يتم توحيد الشطرين في دولة يمنية واحدة بعد التخلص من الحكم البريطاني من جهة والقضاء على الملكيين من جهة أخرى . إلاّ أن افتقار اليمن الشمالي إلى مؤسسات سياسية ، وعدم استقرار الحكم فيها ، بالإضافة إلى اضطرارها لممالأة السعودية ، وانتهاج الجنوب خطاً اشتراكياً لا يروق للشخصيات المحافظة في الجزيرة ، وضخامة الصعوبات الاقتصادية التي يواجهها كل من الشطرين ، ثم السعي الدائب لسلاطين الاتحاد المُنحل في العودة إلى الحكم بتأييد من السعودية وبعض الشخصيات في اليمن الشمالي والسلطات البريطانية في عُمان ، وتحالف جبهة تحرير اليمن المحتل مع القوى المضادة لجبهة التحرير الوطنية والسعي إلى إسقاط الحكم فيها ، كل هذا جعل مسألة الوحدة اليمنية غير قابلة للتحقيق عملياً في المرحلة الراهنة رغم ادّعاءات الأطراف جميعها برغبتها في الوحدة . ولقد تأزم الخلاف بين الشمال والجنوب ووصل إلى درجة الاشتباك المسلح ، بدأ على شكل مناوشات متقطعة ودسائس سياسية وانتهى إلى احتلال أحدهما لأراضي

الآخر في سبتمبر – ايلول وأكتوبر – تشرين الثاني عام ١٩٧٢ . وحاولت الجامعة العربية التوسط بين الطرفين ، إلا أن الوساطة وإن كانت ستصيب حظاً من النجاح في تخفيف التوتر وإيقاف القتال إلا أنها لن تستطيع أن تقضي على جذور الصراع حسبما يبدو .

مسقط وعمان وإمارات الخليج

أما في مسقط وعمان فإن حالة التخلف الشديد الذي تعيشه البلاد مصحوبة بأساليب حكم مستمدة من القرون الوسطى كان يمارسها سعيد ابن تيمور ، دفعت بعدد من الشباب الطموح إلى تغيير الأوضاع إلى تكوين جبهات مضادة للنظام القائم للتخلص منه ومن السيطرة البريطانية المستترة وراءه ، معلنة عن برامج إصلاحات اجتماعية واقتصادية طموحة واسعة . واشتد ساعد الجبهة الشعبية لتحرير الخليج العربي وتمكنت من السيطرة على الجزء الشرقي من البلاد ، خاصة المناطق الجبلية ، مستمدة العون بصورة أساسية من جمهورية اليمن الشعبية . وفي عام ١٩٧٠ أصبحت قوات الجبهة تهدد مدينة سلالة ، غير أن تصلب سعيد بن تيمور وعدم اقتناعه بضرورة إجرائه بعض التغييرات الطفيفة ليبعد الأنظار عن الثورة ، مهد لانقلاب في القصر قام به ابنه قابوس بمساعدة بعض الضباط الإنجليز .

تركزت سياسة قابوس على توسيع جهاز الحكم وإن بقي هو بطبيعة الحال السلطة الفعلية . واهتم بمقاومة الثوار والظهور للعالم الخارجي بمظهر المصلح الذي يسعى إلى تحديث البلاد . إلا أن قطراً مثل مسقط وعمان يحتاج إلى تغييرات جذرية ومجهودات كبيرة قد لا يستطيع شخص

كقابوس أن يواجهها .

إن أهم ما يلفت النظر في ثوار الجبهة الشعبية هو منطلقها اليساري الذي يُشعر السعودية بالخطر ويدفعها إلى مد يد المساعدة إلى قابوس الذي يعتمد أيضاً على المساعدات البريطانية والضباط البريطانيين في جيشه . وينظر قابوس إلى العلاقة بين الجبهة الشعبية واليمن الجنوبية وكأنها تهديد له ، خاصة وأن لليمن الشعبية مطالب إقليمية تتعلق بجزيرتي كوريا موريا اللتين ضمتا إلى سلطنة مسقط بعد انسحاب بريطانيا من عدن عام ١٩٦٧ .

ولأول مرة تشترك المرأة في الجزيرة العربية في أعمال العنف السياسي ، إذ التحق عدد من الفتيات بمقاتلي الجبهة . ولكن الطريق ما زال طويلاً أمام كل من الطرفين للوصول إلى حل جذري للمشاكل الضخمة على المستويات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تعاني منها البلاد .

وعلى ساحل الخليج العربي اتفق أمراء ومشايخ تلك المنطقة على إقامة اتحاد بينها بناء على اقتراح بريطانيا التي كانت تحكم تلك المناطق منذ القرن الماضي والتي أعلنت عن نيتها في ترك المنطقة (عسكرياً) في نهاية ١٩٧١ . ويتكون اتحاد إمارات الخليج من الإمارات المتصالحة بالإضافة إلى قَطَر والبحرين . وتبذل الدول العربية المجاورة — الكويت والعراق — مجهودات لتقوية الوضع السياسي على ساحل الخليج وذلك لمعادلة النفوذ الإيراني في المنطقة . فقد استطاعت إيران احتلال جزر أبو موسى وطنب الكبرى وطنب الصغرى إثر الانسحاب البريطاني — كما هي العادة — من المنطقة . وبعبارة موجزة فإن منطقة الخليج العربي ما زالت منطقة صراع على النفوذ بين تيارات مختلفة أهمها إيران والسعودية والعراق وتحاول كل منها التأثير على مجرى الأحداث في المنطقة .

ولعل الكويت هي أكثر الإمارات في الخليج استقراراً وغنى . وتلعب الكويت دوراً ملحوظاً في السياسة العربية بسبب نفوذها المالي . ولم تحدث فيها تغييرات سياسية تذكر حتى بعد موت الأمير عبد الله السالم الصباح وتولي ابنه الإمارة . إن النظام النيابي المعمول به في الكويت تفتقر إليه جميع مناطق الجزيرة العربية وإن كان بطبيعة الحال لا يخرج بسياسة الكويت عن الموقف المتواسط بين الاتجاهات العربية المختلفة والمائلة إلى الجناح السعودي في كثير من الأحيان .

وقد تمكنت الكويت من تسوية الخلاف بينها وبين السعودية على المنطقة المحايدة وتقسيمها بينهما . وإن مساهمة الكويت في دعم كل من مصر والأردن في أعقاب حرب ١٩٦٧ وتقديم القروض والمعونات لبعض الدول العربية الأخرى مثل اليمن واتحاد الإمارات والسودان وأحياناً العراق ، واشتراكها في صندوق الإنماء الاقتصادي العربي ، يجعل لها مكاناً مرموقاً في المجموعة العربية .

السودان

طلعت الستينات على السودان وهي تواجه المشاكل الرئيسية الثلاث : مشكلة التنمية الاقتصادية في البلاد ، ومشكلة إرساء دعائم نظام سياسي لا يستند إلى سلطة فردية . ويمكن اعتبار هاتين المشكلتين عامتين بالنسبة للدول المتخلفة ، يضاف إليهما مشكلة ثالثة خاصة بالسودان وهي ثورة جنوب السودان والتي اندلعت في عام ١٩٥٥ وتهدف إلى تحقيق نوع من الاستقلال للجنوب عن الشمال استناداً إلى كون السودان الجنوبي

تسوده أغلبية إفريقية تختلف في الثقافة واللغة والدين ومرحلة التطور الحضاري عن الشمال .

كانت الفترة التي استولى فيها اللواء عبود وجماعة من الضباط على الحكم منذ عام ١٩٥٨ ، فترة تسلط عسكري وكبت سياسي ، وجهت الحكومة فيها جهودها للقضاء على تمرد الجنوبيين الذين كانوا يتلقون معونات من بعض الدول الإفريقية المتاخمة ومن بعض المرتزقة الأوروبيين ، وللقضاء على كل النشاطات السياسية في البلاد . ولم تكن الإنجازات الفعلية التي تحققت بالنسبة لمشاريع التنمية وحل المشكلات الاقتصادية في مستوى إلحاحية وخطورة تلك المشاكل أبداً . وبدأت حالة من التذمر في الأوساط الشعبية وفي القوات المسلحة السودانية ساعد على تفاقمها سوء الأحوال بصورة عامة ونشاط الفئات السياسية مما أدى إلى انتفاضة شعبية عام ١٩٦٤ ، أطيح على أثرها باللواء عبُّود وجماعته وتولى الحكم مجموعة من السياسين السودانيين التقليديين حيث أخذ الأزهري زعيم حزب الأمة السوداني ، منصب رئاسة الدولة ، ومحمد أحمد محجوب رئاسة الوزارة . غير أن الحكومة الجديدة فشلت في إيجاد حل لمشكلة الجنوب وشغلت بالنزاعات السياسية الداخلية بين الأحزاب السياسية والشخصيات الدينية مما جعلها عاجزة عن إحراز أي تقدم حقيقي . ورغم إجراء انتخابات نيابية وإصدار دستور وتشكيل حكومة ائتلافية عام ١٩٦٨ إلاّ أنّ الأوضاع بقيت مهزوزة ، مما ساعد على نجاح انقلاب بقيادة مجموعة من الضباط في ٢٥ مايو عام ١٩٦٩ أطاحت بالحكومة المدنية وتولت حكم البلاد وأنشأت مجلس الثورة الوطني برئاسة العقيد جعفر النميري .

كانت اتجاهات الحكومة الجديدة توحي بميول اشتراكية ورغبة

في الانفتاح على البلاد العربية . وعين أبو بكر عوض الله ، وهو شخص يتمتع بثقة كثير من السودانيين رئيساً للوزارة . وقامت الحكومة بعدة إجراءات لحل مشكلة الجنوب ، فقررت منحه الحكم الذاتي الإقليمي ضمن وحدة التراب السوداني وأعلنت العفو العام عن المتمردين وعينت وزيراً يتخصص بشؤون الجنوب ووضعت خطة وميزانية لتنمية جنوب السودان . غير أن حركة التمرد لم تستجب لعرض الحكومة مما دفع بها إلى ضرب أماكن تجمع المتمردين . وفي شمال السودان ذاته قضت الحكومة على تمرد الطائفة المهدية واتاحت حرية العمل السياسي للفئات اليسارية وشرعت كذلك في تقوية الجيش . في المجال العربي ظهر تقارب واضح مع مصر وليبيا . واستعانت الحكومة بخبراء ومعدات من الكتلة الشرقية وخاصة الاتحاد السوفييتي . إلا أن الخلاف بين قادة الانقلاب بدأ يأخذ دوره تدريجياً بسبب اختلاف الاتجاهات السياسية لمجموعة الضباط وانعدام وجود تنظيم سياسي أو خطة واضحة متفق عليها لإنشاء مثل هذا التنظيم . وفي يوليو ١٩٧١ جرت محاولة للإطاحة بالنميري قام بها بعض زملائه ذوي الميول اليسارية إثر سلسلة من الاستقالات داخل الحكومة والجيش . غير أن هذه المحاولة باءت بالفشل، وكان تدخل الحكومة الليبية لصالح النميري ، حين أجبرت الطائرة التي تقل اثنين من قادة الانقلاب على الهبوط وهي في طريقها من لندن إلى الخرطوم حيث سُلّما فيما بعد إلى النميري ، من العوامل التي ساعدت على فشل الانقلاب . وعاد النميري إلى السلطة وشن حرباً على الشيوعيين وأنصارهم في البلاد ، واتهم بعض الدول الاشتراكية بمساعدتهم ، وأعدم عبد الخالق محجوب سكرتير الحزب الشيوعي السوداني والشفيع محمد الشفيع الزعيم العمالي المعروف بالإضافة إلى قادة الانقلاب وعدد من الضباط . وعلى أثر ذلك تأزمت العلاقات بين

السودان ودول الكتلة الشرقية وبدأت سلسلة من التصفيات السياسية داخل السودان انتهت إلى سيطرة النميري والضباط الموالين له على الموقف تماماً مستفيدين من التأييد والدعم الذي قدمته كل من ليبيا ومصر .

وفي أديس ابابا تم توقيع اتفاقية السلام بين جبهة تحرير جنوب السودان وحكومة السودان تحت إشراف الإمبراطور هيلا سيلاسي وبعد مفاوضات سياسية .

وبمقتضى الاتفاقية يحصل الجنوب على استقلاله الذاتي ويشترك في الجيش السوداني ويمارس حقوقه الثقافية والقومية . واحتذاء بالتجربة المصرية أنشأت حكومة السودان حزباً سياسياً هو : الاتحاد الاشتراكي السوداني ودعت جميع الأحزاب الأخرى إلى حل نفسها والعمل في إطار الاتحاد الاشتراكي . كما أنها أنشأت كتائب ٢٥ مايو للشباب بغرض الدفاع عن النظام واحتواء حركة الشباب ضمن الإطار الحكومي الرسمي . وبعد المحاولة الانقلابية بعام اتجه جعفر النميري إلى طلب المساعدة المالية والفنية من مصادر غربية بالدرجة الأولى مثل أمريكا وألمانيا الغربية ، ومن دول منطقة الخليج العربي .

إن الموقف الحالي في السودان لا يشير إلى أن حكومة النميري وجدت طريقها إلى حل مشاكل السودان سواء فيما يتعلق بالبناء السياسي حيث استقال عدد من اعضاء الحكومة وضباط الجيش أو في المجال الاقتصادي رغم إعلان الحكومة اتباع نهج اشتراكي . وفي الوقت ذاته بردت العلاقات السودانية الليبية والسودانية المصرية مؤخراً بسبب تلكؤ النميري في الانضمام إلى اتحاد الجمهوريات العربية وهي مسألة بالغة الحيوية بالنسبة للعقيد القذافي ، وبعض الاجراءات المضادة التي اتخذتها حكومته ضد بعض الشركات المصرية الحكومية العاملة في السودان . وزاد هذا في انعزال

حكومة النميري عن المجموعة العربية ، خاصة بعد منعه الطائرات الليبية من المرور فوق السودان لنجدة أوغندا في سبتمبر ـ أيلول عام ١٩٧٢ ، وطلبه سحب القوات السودانية الرمزية المرابطة مع القوات المصرية على قناة السويس .

ليبيا

كان لاكتشاف البترول عام ١٩٦١ في ليبيا تأثير أساسي في التغيرات السياسية والاقتصادية التي مر بها القطر في السنوات العشر الماضية . فقد كانت البلاد محدودة الموارد جداً ، لا صناعات فيها ، ورقعتها الزراعية المستغلّة صغيرة إذا ما قيست بمساحتها الشاسعة وتتحكم في حياتها التجارية جالية كبيرة من الإيطاليين الذين بقوا في البلاد خاصة في طرابلس بعد الاستقلال . وعلى الصعيد السياسي فرغم وجود مجلس نيابي إلاّ أنّ الحكم الفعلي كان بيد الأسرة السنوسية وبطانتها التي كانت تتجه نحو اليمين بسبب الخلفية الدينية التي ترتكز إليها الأسرة السنوسية من جهة وبسبب ارتباط البلاد بمعاهدات مع كل من بريطانيا وأمريكا من جهة أخرى ، حصلت بموجبها كل منهما على قاعدة عسكرية مقابل معونات اقتصادية تقدمها كانت ميزانية الدولة تعتمد عليها . هذا جعل من ليبيا مصدر خطر بالنسبة لمصر كما حدث عام ١٩٥٦ عندما انطلقت بعض الطائرات البريطانية من قاعدة العضم لمهاجمة الأراضي المصرية . غير أن تدفق الثروة البترولية في الستينات ضاعف الدخل القومي عشرات المرات دون أن يكون هناك خطة طموحة بعيدة المدى ومدروسة لتطوير الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية

المتخلفة . وركّزت الحكومة جهدها على إقامة جيش قوي للدفاع عن النظام القائم بصورة أساسية ، وتعاقدت مع بريطانيا بالذات على شراء كميات ضخمة من الأسلحة المتقدمة . وكان دور ليبيا في المجال العربي ثانوياً ، وإن كانت لم تنجُ من حملات دعائية من قبل الدول العربية المتحررة . وكان للأحداث التي تجري في الشرق خاصة في مصر تأثير على عدد من الشبان الليبيين في القوات المسلحة والذين كانت تتاح لهم فرصة السفر إلى الخارج للدراسة . وفي عام ١٩٦٧ اشتركت ليبيا في مؤتمر الخرطوم ووافقت على المساهمة في دفع التعويضات لدول المواجهة . إلاّ أن هذا بطبيعة الحال لم يقض على حالات التذمر الداخلي التي أخذت تتفاقم بسبب الفساد في أجهزة الدولة واستغلال جزء كبير من أموال الدولة في المصالح الشخصية للطبقة الحاكمة وكبار رجال الأعمال .

وفي ١ سبتمبر – ايلول ١٩٦٩ تمكن مجموعة من الضباط (الوحدويين الأحرار) من الإطاحة بحكم إدريس أثناء غيابه في إجازة في اليونان وأعلنوا قيام الجمهورية العربية الليبية بقيادة العقيد معمر القذافي الذي كشف اتجاهاته الوحدوية وخاصة مع مصر التي سارعت إلى تأييد الحركة الانقلابية وتقديم الدعم السياسي لها وتزويدها بالخبراء . ومنذ ذلك الوقت أخذت ليبيا تلعب دوراً سياسياً بارزاً في المجموعة العربية يفوق ما يؤهله لها حجمها السكاني الصغير (٢ مليون) ويتناسب تماماً مع قوتها الاقتصادية الضخمة . فسلكت سياسة تقارب حثيثة مع مصر والسودان وسوريا انتهت إلى إقامة اتحاد الجمهوريات العربية (ليبيا ، مصر ، سوريا) .

لم يكن لدى مجلس قيادة الثورة على ما يبدو منهج سياسي واضح سوى اقتفاء أثر التجربة المصرية بإضافة لون إسلامي لها صادر عن العقيد القذافي نفسه الذي يحاول تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية في القطر . وكان أول

عمل قامت به الحكومة الجديدة هو مفاوضة الإنجليز والأمريكيين للجلاء عن الأرض الليبية . وقد نجحت المفاوضات بسرعة غير متوقعة وتمّ تسليم القاعدتين (العضم وويلز) إلى القوات الليبية في غضون عدة أشهر من قيام الثورة ، ٢٩ و ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٦٩ ، أما العمل الثاني فكان إخراج الجالية الإيطالية في أكتوبر — تشرين الأول ١٩٧٠ ومصادرة ممتلكاتها مما أوجد فراغاً في المجالات التكنيكية وغيرها .

وتحاول ليبيا توسيع مجال تأثيرها في اتجاهات مختلفة . ففي البحر المتوسط قدمت الدعم السياسي لمالطة للتخلص من قواعد حلف شمالي الأطلسي . كما أنها تساند الدول الإفريقية حديثة الاستقلال . وقد لعبت دوراً بارزاً وحققت نجاحاً في حمل الرئيس عيدي أمين على طرد الخبراء الإسرائيليين من أوغندا ، وقدمت له القروض — ٢٩ مليون دولار — بالإضافة إلى المساعدة العسكرية حين نشبت الحرب بين تنزانيا وأوغندا في سبتمبر عام ١٩٧٢ . أما في المجال العربي فإن القذافي يؤمن بأن لليبيا دوراً في تاريخ توحيد البلاد العربية يشابه دور بروسيا في الوحدة الألمانية . وهو لذلك يضع إمكانات ليبيا العسكرية والاقتصادية (بغض النظر عما يمكن أن تحققه عملياً) لنصرة القضايا القومية ، مثل استعداده لإرسال قوات ليبية إلى الخليج العربي قبل احتلال إيران لجزر أبو موسى وطنب الكبرى وطنب الصغرى — كذلك استعداده لإرسال قوات ليبية إلى لبنان في سبتمبر عام ١٩٧٢ حين تعرض لهجوم إسرائيلي ، وغيرها من المواقف المشابهة . وانطلاقاً من نظرته الإسلامية فهو لا يمتنع عن تقديم المساعدات لمسلمي الفلبين وزنوج أمريكا ويعلن عن تأييده لحركات التحرر في العالم بما في ذلك ثوار إيرلندا .

ورغم أن الاستثمارات الأمريكية في البترول الليبي تشكل النسبة

الكبرى ، إلا أنه على الصعيد السياسي تعلن ليبيا دائماً عن موقف عدائي تجاه الغرب والشرق (الكتلة الشرقية) على السواء ، الأمر الذي يسبب بعض الإحراج لشركائها في الاتحاد خاصة فيما يتعلق بموقفها العدائي من الكتلة الشرقية .

وقد لعبت ليبيا دوراً مهماً في المسائل البترولية حيث استطاعت الحصول على زيادات ملموسة في عائدات البترول ووقفت موقفاً مؤيداً للعراق حين أمم الأخير شركة نفط العراق . ولجأت ليبيا إلى تأميم شركة النفط البريطانية كعمل انتقامي ضد بريطانيا بسبب تواطئها مع إيران على احتلال الجزر السابقة الذكر في الخليج العربي .

وفي مجال التنمية والتطوير فقد خصصت الحكومة نسبة كبيرة من ميزانيتها لمشاريع التنمية المختلفة من صناعية وزراعية وإقامة شبكات طرق وتحسين مستوى الخدمات الصحية والتعليمية بالإضافة طبعاً إلى تزويد القوات الليبية بالأسلحة الحديثة ، وخاصة طائرات الميراج التي تعاقدت على شرائها من فرنسا . وفيما يخص القضية الفلسطينية يرى النظام الليبي أن تكون المعركة مع إسرائيل قومية ، بمعنى أن تشترك فيها الدول العربية ولا تقتصر على الفلسطينيين الذين تقدم لهم ليبيا معونات سياسية ومادية مختلفة .

- إن العقيد القذافي يعتبر نفسه خليفة لجمال عبد الناصر وهو بالتالي يحاول تحقيق الإنجازات السياسية والعسكرية والاجتماعية التي حاولها سلفه والتي لم يحقق فيها النجاح المطلوب . وإن كان العقيد القذافي لا يفتقر إلى الجرأة في اتخاذ القرارات ، إلا أنه ينقصه بُعد الرؤيا والحنكة السياسية ، وتسيطر عليه في نفس الوقت عقدة التميز عن الشرق والغرب وبأنه لا بد في يوم ما أن يقدم « النظرية الثالثة » على حد تعبيره والتي تعطي حلولاً

تونس[٧]

إذا انتقلنا من ليبيا غرباً إلى جارتها تونس نجد أن الوضع السياسي هناك يتميز بنوع من الاستقرار لا يتوفر في كثير من البلاد العربية الأخرى . فحكومة تونس مدعومة بقاعدة سياسية وهي الحزب الدستوري الاشتراكي الحاكم الذي يتزعمه الحبيب بورقيبة ، وهو الحزب الوحيد العامل في البلاد . ورغم أن بورقيبة يتمتع بسلطات واسعة جداً في الحزب والحكومة، ورغم نزعة التمجيد الفردية التي تغذيها أجهزة الإعلام التونسية حول شخصية (المجاهد الأكبر) إلا أن الحزب يقوم بنشاطات تنظيمية على المستوى الجماهيري بشكل يلفت النظر إذا ما قورن بالأحزاب العاملة في البلاد العربية الأخرى . وهناك دستور دائم للدولة ومجلس للنواب كل أعضائه تقريباً من الحزب الحاكم . ولقد انعكست أفكار بورقيبة المعتدلة ومواقفه الواقعية الوسطية ، وأساليبه البراجماتيكية على الحزب بحيث أصبح يمثل الطبقة البرجوازية التونسية مركزاً كل اهتمامه على بناء تونس حديثة على النمط الغربي . ومن الجدير بالذكر أن في تونس نقابات عمال حسنة التنظيم وقوية نسبياً أكبرها الاتحاد القومي التونسي للزراعة والاتحاد العام التونسي للشغل وإن كانت بطبيعة الحال خاضعة على الأقل في قياداتها وسياستها للحزب الدستوري .

إن هذا لا يعني أن الوضع السياسي داخل تونس لا تشوبه الخلافات والنزاعات. فلقد شهدت أواخر الستينات خلافات داخلية ومحاكمات سياسية .

فعزل رئيس المباحث وأعيد تنظيم وزارة الداخلية في ٢٣ يونيو ــ حزيران عام ١٩٦٧ وانتهت محكمة أمن الدولة في ١٨ فبراير ــ شباط ١٩٦٩ من محاكمة ٣١ شخصاً بتهمة تعريض أمن الدولة للخطر وإقامة جمعية غير مشروعة . كذلك أقصي أحمد المستيري ، أحد الرجال البارزين في الحزب الدستوري عن منصبه وفصل من الحزب بسبب خلافه مع الحبيب بو رقيبة . وفي عام ١٩٦٨ قامت إضرابات طلابية واسعة النطاق وخاصة في الجامعة تطالب بإجراء إصلاحات في النظام الجامعي واضطرت الحكومة إلى إقفال الجامعة ومحاكمة بعض الطلبة ، ثم هدأت المسألة تدريجياً .

منذ استقلال تونس في عام ١٩٥٦ وتصفية الخلافات بينها وبين فرنسا وتمكن بو رقيبة من الحكم بعد قضائه على خصومه السياسيين في أوائل الستينات ، ركزت تونس كل اهتمامها على مواجهة المشاكل الداخلية ، معطية أهمية كبرى للتعليم وتطوير الزراعة وإنشاء بعض الصناعات واهتماماً متزايداً بالسياحة التي حققت نجاحاً مرموقاً . وتعتمد تونس في تنفيذ مشاريع التنمية على معونات من إيطاليا وألمانيا الغربية وفرنسا والولايات المتحدة بالإضافة إلى حجم من التعاملات لا بأس به مع بعض دول الكتلة الشرقية وخاصة رومانيا . وحين اكتشف البترول فيها عام ١٩٦٤ ساعد رأس المال والخبرة الإيطالية في استخراجه واستثماره .

تختلف تونس عن بقية البلاد العربية في أنها لا تعلق أهمية كبيرة على قضية الوحدة العربية لا عملياً ولا دعائياً كما هي العادة في المشرق . ولا تعتبر تطورها الاقتصادي والاجتماعي مرتبطاً بتغيرات في الخريطة العربية فهي لذلك تسلك في سياستها الخارجية والتي تتميز بميل واضح نحو الغرب، حسبما تمليه عليها مصلحتها الذاتية بغض النظر في كثير من الأحيان عن مواقف الدول العربية الأخرى ــ كما حدث في قضية قطع العلاقات مع

بون ــ ألمانيا الغربية في عام ١٩٦٥ ــ الأمر الذي جعلها عرضة بين حين وحين لحملات إعلامية ضدها من المشرق العربي وصلت إلى درجة قطع العلاقات بينها وبين مصر للمرة الثانية في عام ١٩٦٦ . ولعل واحداً من المواقف التي انفردت بها تونس وأثارت رد فعل عربي عنيف هو تصريح الحبيب بو رقيبة عام ١٩٦٥ بضرورة الوصول إلى نوع من التسوية بين العرب وإسرائيل ، ورفض تونس أن تقتفي خطوات الدول العربية في اتخاذ مواقف متصلبة من إسرائيل . ورغم أن الحبيب بورقيبة أعلن فيما بعد بأن تصريحه هذا يعكس ما دار في مؤتمر القمة العربي وتحدى الرؤساء العرب أن ينفوا ذلك (وهم بالفعل لم ينفوا) إلا أن ذلك لم يمنع من مهاجمته على صفحات الجرائد وفي الإذاعات . وبعد حرب ١٩٦٧ حصل نوع من التقارب بين تونس والمجموعة العربية ، وقام السادات بزيارة تونس رسمياً في مايو ــ ايار عام ١٩٧٢ .

إن سيطرة شخصية بو رقيبة على جهاز الدولة والحزب وتفرده باتخاذ القرارات ورسم السياسة بشكل يكاد يكون أتوقراطياً أفقد الحزب قدرته على إبراز شخصيات قيادية قديرة تستطيع أن تتولى قيادة البلاد في حالة غيابه (وفاته) ، إذ يبدو أن كثيراً من الوزراء بما فيهم الوزير الأول (Premier) هم أشبه بالموظفين الذين ينفذون ما يصدر إليهم من أوامر دون أن تتوفر لديهم الحرية أو القدرة على الابتكار والمبادرة . ساعد على ذلك سياسة بو رقيبة في التخلص من الشخصيات القوية في الحزب وتوجيه تهم الخيانة لها . ومن هنا لا يستطيع المرء أن يتنبأ باستقرار سياسي في البلاد مستقبلا .

* * *

الجزائر

تركت حرب الاستقلال الجزائرية التي اندلعت في عام ١٩٥٤ وانتهت في عام ١٩٦٢ أثراً كبيراً في البلاد من النواحي الاقتصادية والسياسية والاجتماعية. فبانتهاء الحرب ضد فرنسا بدأت الخلافات الشخصية بين الزعماء الجزائريين تطفو على السطح . وبدأت عمليات التصفية السياسية ، فاختفى من المسرح السياسي شخصيات مثل فرحات عباس وبن خده ومحمد خيضر ومحمد بو ضياف وغيرهم . وكانت مهمة بن بلا الذي أصبح رئيساً للجمهورية عام ١٩٦٣ ، صعبة لسببين : الأول هو وجود المنافسين الخطرين ، والثاني حدة المشاكل الداخلية . ونهج بن بلا سياسة تقارب مع الدول العربية وخاصة مصر وكذلك مع الدول الاشتراكية . إلا أن تفرده بالسلطة ألّب عليه الشخص القوي وهو وزير الدفاع ، العقيد هواري بو مدين الذي أطاح بين بلا في انقلاب عسكري في ١٩ يونيو — حزيران ١٩٦٥ متهماً إياه بالدكتاتورية وتشجيع البيروقراطية والفشل في إدارة المزارع المؤممة وغير ذلك رغم تعاونه مع بن بلا إبان الأزمة السياسية التي أعقبت الاستقلال . ولقد استخدم بو مدين الجيش قبل وبعد انقلاب ١٩٦٥ للقضاء على أية مقاومة سياسية في البلاد ، مثل زحفه على الجزائر العاصمة على رأس قوة من جيشه في أغسطس — آب ١٩٦٢ وإجباره الرئيس بن خده على تنصيب بن بلا رئيساً للوزراء واحتفاظه هو بمنصب وزير الدفاع ، كذلك قضائه على مظاهرات الطلاب وبعض الحركات السرية التي كانت تحاول إعادة بن بلا أو الإطاحة ببو مدين نفسه . وعين نفسه رئيساً للدولة والحكومة بالإضافة إلى رئاسة

مجلس قيادة الثورة . وبدأت جبهة التحرير الوطنية تمارس نشاطها كحزب سياسي وحيد في البلاد ، مظهرة في بداية الأمر اهتماماً كبيراً بالاشتراكية الأممية أي خارج نطاق القطر الجزائري لتشمل المغرب وتونس . إلا أن هذا الحماس خف تدريجياً ليصبح محصوراً في الجزائر ذاتها .

أعطت الحكومة الجزائرية اهتماماً بالغاً للمشاريع الصناعية والاجتماعية والعلمية ، فعقدت الاتفاقيات مع كثير من دول العالم ، على رأسها فرنسا في المعسكر الغربي والاتحاد السوفييتي في المعسكر الشرقي . وحصلت أمريكا على امتيازات للتنقيب عن البترول كما أنها قدمت للجزائر معونات مختلفة . وفي المجال الزراعي أصدرت الحكومة عدة تشريعات لتحديد الملكية الزراعية وتشجيع المزارع التعاونية والحكومية ووضعت برامج زراعية ضخمة واعتبرت البلاد نفسها في عام ١٩٧١ مقبلة على ثورة زراعية تحت شعار « الأرض لمن يفلحها » . إن الإمكانيات الزراعية للقطر الجزائري كبيرة بحيث لو أحسن استغلالها وتطويرها سيكون لها أثر فعّال في دعم الاقتصاد الجزائري ومساعدة البلاد على التغلب على مشكلة البطالة الحادة فيها . لكن الاقتصاد الجزائري ما زال فاقداً لكثير من حرية الحركة والقدرة الذاتية على النمو لكثرة الإرتباطات الجزائرية الفرنسية .

استقدمت الجزائر خبراء عديدين في مختلف المجالات (خبراء عسكريون، صناعيون ، مهندسون وأطباء) وبشكل بارز من الكتلة الشرقية وفرنسا بالإضافة إلى عدد كبير من المدرسين العرب للمساعدة في تعريب التعليم وإزالة آثار « الفَرْنَسَة » من البلاد .

أعادت حكومة بو مدين صياغة سياستها الخارجية ، على أساس الحياد والتقرب الحذر إلى الكتلة الشرقية . وأبدت نشاطاً كبيراً في المجال الإفريقي والمجال العربي والمغربي ، فصفّت الخلافات بينها وبين جارتيها تونس

والمملكة المغربية وعقدت اتفاقيات تعاون معهما . ومن ناحية أخرى اتفقت مع فرنسا على تصفية قواعد التجارب الذرية في الصحراء الكبرى وكذلك القاعدة البحرية في المرسى الكبير .

وفي حرب حزيران ١٩٦٧ أعلنت الجزائر الحرب على إسرائيل وأرسلت قوات رمزية إلى مصر ورفضت الاعتراف بوقف إطلاق النار بعد الحرب . كذلك لم توافق على موقف مصر من مشروع روجرز وأبدت دعماً متزايداً للمقاومة الفلسطينية وبدا كأنها ستلعب دوراً هاماً في السياسة العربية . إلاّ أنه في أواخر الستينات بدأ اهتمام الجزائر بهذه المسألة يتضاءل تدريجياً في الوقت الذي عقدت فيه اتفاقيات بترولية وغازية ضخمة مع الولايات المتحدة الأمريكية . ولم تبد تجاوباً كبيراً مع مشاريع القذافي في قومية المعركة . إلاّ أن موقفها التقليدي المؤيد لحركات التحرير الإفريقية والعالمية والذي يظهر أنه في حالة انكماش نسبي ما زال يجذب إليها الكثير من المطالبين بالحرية لبلادهم (مثل حركة الفهود السود في أمريكا ، وثوار غينيا- بساو وأنجولا وموزامبيق) .

المغرب

لم يستطع حزب « جبهة الدفاع عن المؤسسات الدستورية » الذي أنشأه الحسن الثاني ليواجه به القوى الوطنية في البلاد أن يزوّد الملك بالقاعدة السياسية التي كان يبحث عنها والقادرة على إخفاء المشاكل الحقيقية التي تعاني منها البلاد . وهكذا تجدد الصراع بين القوى الوطنية بقيادة حزب الاستقلال المعتدل والاتحاد الوطني للقوى الشعبية ذي الإتجاه اليساري من جهة والملك وحلفائه من الطبقة الحاكمة من جهة أخرى . ولم يكن الملك على استعداد

لإعطاء أي تنازلات حقيقية سواء على صعيد السلطات أو على صعيد الاصلاحات الجذرية التي تحتاجها البلاد . كما أن ارتباط سياسة الملك بفرنسا والولايات المتحدة – توجد ثلاث قواعد أمريكية في المغرب – ونمو الاستثمارات الاحتكارية الأجنبية في البلاد بشكل كبير ، كانت أموراً لم تستطع القوى الوطنية السكوت عنها .

وفي عام ١٩٦٥ قامت اضطرابات في أنحاء متفرقة من البلاد خاصة في كزابلانكا (الدار البيضاء) ، فعلّق الملك البرلمان وأعلن حالة « استثناء » واستولى على كافة السلطات في القطر وعمد إلى كبت الحريات السياسية مستخدماً وزير داخليته الجنرال أوفقير للتخلص من القوى الخطرة . فكان حادث اغتيال المهدي بن بركة ، زعيم حزب الاتحاد الوطني للقوى الشعبية على يد أوفقير نفسه . وتعاقبت حكومات مختلفة لم تكن لديها السلطة من جهة أو الرغبة من جهة أخرى لمواجهة الفساد والمحسوبية والتخلف الاقتصادي والاجتماعي الذي يعم البلاد . وفي عام ١٩٦٦ أعلن الملك عن برنامج إصلاح زراعي وُزعت بموجبه بعض الأراضي التي آلت إلى الحكومة من بعض الفرنسيين الذين تركوا البلاد ، على الفلاحين . وبطبيعة الحال لم يمس مثل هذا البرنامج مصالح الطبقة الاقطاعية والبرجوازية التي تدعم النظام ، ولم يغير من وضع الطبقة السفلى الفقيرة . وجرت مفاوضات متعددة بين الملك والقوى الوطنية في البلاد آلت جميعها إلى الفشل بسبب تمسك الملك بسلطاته ورفض القوى الوطنية التعاون معه حسب الشروط التي يريدها هو .

وقد جرت محاولة للإطاحة بالنظام الملكي والقضاء على الحسن نفسه في ١٠ يوليو – تموز عام ١٩٧١ . تزعم محاولة الانقلاب هذه الجنرال محمد مدبوح مدير الحاشية الملكية . وقد نجا الحسن من موت محقق وقدم عدد كبير من الضباط والجنود المسلحة للمحاكمة وأعدم ٩ من الجنرالات .

ورغم أن الانقلابيين كانوا يمثلون البرجوازية العسكرية ولم تكن لهم قواعد سياسية معروفة إلاّ أن حركتهم هذه كشفت عن السخط وعدم الرضى الذي يسود البلاد سواء في الجيش أو بين الجماهير . واستمر الملك الحسن في اتباع سياسته التقليدية بمساعدة أوفقير الذي توسعت سلطاته وأصبح الحاكم الفعلي الذي يتصف بالبطش والولاء للملك . وأعلن الحسن عن رغبته في بدء صفحة جديدة ومحاكمة المسؤولين عن الفساد ، إلاّ أن شيئاً من هذا لم يتم . واستمرت مقاطعة القوى الوطنية للملك كما هي . وكان من نتيجة محاولة الانقلاب هذه تأزم الموقف بين ليبيا والمغرب بسبب تأييد ليبيا للانقلابيين منذ اللحظة الأولى وقبل أن تتحقق من نجاح المحاولة .

وفي أغسطس –آب ١٩٧٢ جرت المحاولة الثانية لاغتيال الملك الحسن هو وكثير من معاونيه أثناء عودتهم جواً من رحلة إلى فرنسا . وقام بالمحاولة ضباط من سلاح الجو الملكي المغربي . غير أن المحاولة فشلت للمرة الثانية وعاد الملك لممارسة سلطاته ولكن بغياب أوفقير المرة هذه . فقد مات أوفقير منتحراً (مقتولا ؟) بعد الحادث مباشرة مما يثير تساؤلات حول دوره في محاولة الاغتيال الأخيرة والتي ما زالت تفاصيلها مجهولة . وهكذا نجد أن السنوات العشر التي انقضت على تولّي الملك الحسن الثاني للسلطة لم تساهم أية مساهمة فعّالة في تمكين المغرب من حل مشكلاته المتعددة-والمعقدة سياسياً واجتماعياً واقتصادياً . ولا يزال التوتر بين مختلف القوى قائماً وقد ينفجر في أي وقت .

فهرس الأعلام

أ

ب

ت

ث

خ

ز

س

ش

ص

غ

ف

ل

م

فهرس الأمكنة

ب

ح

ش

ص

ط

ظ

ع

غ

ف

ل

م

ي

محتويات الكتاب

Dieses Werk wurde in Zusammenarbeit der Verlage
Dar Sader, Beirut, Libanon.
und Horst Erdmann Verlag, Tübingen, Bundesrepublik
Deutschland, veröffentlicht.

An der Übersetzung wirkten Professor Dr. Nicola A. Ziadeh,
Beirut, und Dr. Salwa Khammash, Berlin, mit

Die deutsche Originalausgabe der «Geschichte der Arabischen
Welt» von Franz Taeschner, mit einem Beitrag «Die Arabische Welt in der Epoche des Nationalismus» von Fritz Steppat,
ist 1964 im Alfred Kröner Verlag, Stuttgart erschienen.

Beirut

1975

GESCHICHTE DER ARABISCHEN WELT

von

Franz Taeschner Fritz Steppat

Salwa Khammash

Dar SADER, publishers
P.O.B. 10, Beirut

HORST ERDMANN Verlag
Tübingen und Basel